

١٥٠ وصية نبوية تهم المرأة المسلمة
فى يومها ودينها

تأليف
عبد المنعم الهاشمي

مكتبة عباد الرحمن
مصر

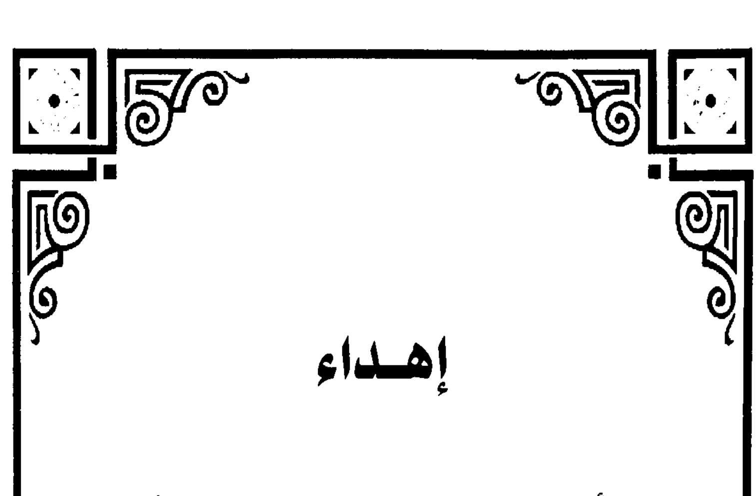
مكتبة العلوم والحكم
مصر

مكتبة عباد الرحمن

للطبع والنشر والتوزيع

الطبعة الاولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الايداع	٢٠٠٥/٣٦٢٨



إهـداء

إلى الأخوات المؤمنات... زوجات وبنات وأمهات.

أهدى لهن وصايا أحبها فيهن ، ويحبها الإسلام لهن.

أرجو أن تتقبل بقبول حسـن ، وتكـون إهـداء لطريـق الهداية الذى ننهل منه جميعا.

عبد المنعم الهاشمى





المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، الناصح الأمين...

أما بعد ،،،

فإن قول رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة » كان هو الدافع الأول لصفحات هذا الكتاب ، نسأل الله أن تكون نصيحتنا صادقة ، مستمدة من هدى النبي ﷺ ، وهذا ما حرصنا عليه حرص الساجدين الشاكرين لنعم الله عز وجل.

اللهم انفعنا بما علمتنا ، وعلمنا ما ينفعنا يا الله يا كريم.

عبد المنعم الهاشمي

* * *

الوصية الأولى
أنصفك الإسلام فانصفيه

لقد أنصف الإسلام نساءه وبناته فى تعليمات وتشريعات عظيمة مما جعلها تثق بنفسها ، وترد اعتبارها ، وتسترد حقها ، وجعلها تتساوى مع الرجل فى الأمور « العامة » وأعلن « إنما النساء شقائق الرجال »[١].

ومما أنصف به الإسلام المرأة نورد ما يلى:

أولا : المساواة فى القيم الإنسانية :

أ - مشاركة الجنسين فى التناسل البشرى على السواء ، قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾ [الطارق: ٥- ٧].

والمراد هنا: صلب الرجل ، وترائب المرأة[٢].

ب - معيار التفضيل عند الله : التقوى ، لا الجنس - فى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣ ﴾ [الحجرات: ١٣].

جـ- تكافؤ دماء الجنسين ؛ لأنهما متساويان فى الإنسانية[٣]، فقد قال الله تعالى:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ

---

(١) رواه أبو داود (٢١٦) ـ صحيح أبى داود للألبانى .
(٢) انظر تفسير الآية عند ابن كثير الآية : ٧ .
(٣) المرأة بين هداية الإسلام وغواية الإعلام : صلاح الدين مقبول ص ١٨٠.

كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ [المائدة: ٤٥].

وقد احتج الأئمة كلهم أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية[١] ؛ لأنهما يتساويان فى الإنسانية . وقد استدل بهذه الآية كثير من الأصوليين والفقهاء على أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكى مصدرا ، ولم ينسخ ، كما هو المشهور عند الجمهور . وقال الحسن البصرى: هى عليهم « أى على اليهود » وعلى الناس عامة ، وقال ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم »[٢].

د - التساوى فى الإجارة والذمة : فقد قال رسول الله ﷺ: « المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم »[٣]، وقد جاءت أم هانئ يوم الفتح إلى النبى ﷺ فقالت: « يارسول الله ، زعم ابن أمى (على بن أبى طالب) أنه قاتل رجلا آجرته فلان بن هبيرة » ، فقال رسول الله ﷺ: « قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»[٤] . وقالت عائشة رضى الله عنها: « إن كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز »[٥] .

ثانيا : المساواة فى الأمور الدينية :

ومن إنصاف الإسلام للمرأة أنه ساوى بينها وبين الرجل فى الأمور الدينية وهى:

أ - **المساواة فى العقائد:** فقد ساوى الجنسين فى الإيمان والعقيدة ، فقال

---

(١) ابن كثير تفسير الآية ٤٥ سورة المائدة .
(٢) أبو داود عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ـ رقم (٢٣٩٠) (صحيح سنن أبى داود للألبانى) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) رواه البخارى (١/ ٤٦٩رقم ٣٥٧) ورواه مسلم ١/ ٤٩٨ عن أم هانئ رضى الله عنها .
(٥) أبو داود رقم (٢٤٠٢) .

تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء: ١٢٤]، وقد اختبر الرسول ﷺ جارية معاوية بن الحكم السلمى . فقال: « أين الله ؟ » فقالت: فى السماء ، قال: « من أنا؟ » قالت : أنت رسول الله قال: " أعتقها فإنها مؤمنة "(١).

ب - **العبادات:** ونجد هذا الإنصاف فى تفضيل خروج الرجل مع امرأته للحج على خروجه للغزو ، فقد أمر رسول الله ﷺ رجلا اكتتب فى الغزو - وزوجته خارجة للحج من غير ذى محرم - بخروجه معها ، بقوله : « انطلق ، فحج مع امرأتك » (٢) . وقوله ﷺ عن عبادة المرأة : « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : ادخلى الجنة من أى أبوب الجنة شئت » (٣) ، ودعا الإسلام رب البيت لحث أهله على الصلاة ، ففى قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

[مريم: ٥٤،٥٥].

جـ - **العمل الصالح وعمل الخير:** لقد ساوى الإسلام بنص القرآن الكريم بين الرجل والمرأة فى العمل الصالح فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧] ، وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وفى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ

---

(١) رواه مسلم عن معاوية بن الحكم السلمى رضي الله عنه .
(٢) رواه البخارى (٩/ ٣٣٠ رقم ٥٥٣٣) .
(٣) رواه أحمد (١/ ١٩١) عن عبد الرحمن بن حسنة .

وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٥].

ثالثا : المساواة فى الحقوق المدنية :

أ - **التعليم والتعلم:** وفى ذلك قول النبى ﷺ : " ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران "(١) . وقالت عائشة رضى الله عنها: « نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين »(٢) . وتجيء امرأة ذات يوم إلى رسول الله ﷺ ، فتقول : يا رسول الله ، ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه ، تعلمنا مما علمك الله فقال : « اجتمعن يوم كذا وكذا » ، فاجتمعن فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله(٣).

ب - **الحوار والمناظرة :** كانت لأم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ محاورات ومناظرات مع الصحابة - رضى الله عنهم- جميعا - فى كتاب مستقل(٤) نأخذ منه: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، فجاءت فقالت : إنه بلغنى أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : ومالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ومن هو فى كتاب

---

(١) رواه البخارى (١/ ١٩٠ رقم٩٧) ومسلم (رقم ١٥٤) عن أبى موسى الأشعرى ﷺ .
(٢) رواه مسلم (٣٣٢/ ٦١) .
(٣) البخارى ١/ ١٩٥ رقم (١٠١) ومسلم برقم (٢٦٣٣) عن أبى سعيد الخدرى .
(٤) الكتاب هو : « الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة » للزركشى .

الله ، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين ، فما وجد فيه ما تقول . قال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه ، أما قرأت: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧] قالت: بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه ، قالت: فإنى أرى أهلك يفعلون ، قال : فاذهبى فانظرى ، فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئا ، فقال : لو كانت كذلك ما جامعتها[١] .

وعن أم الفضل بنت الحارث: « أن ناسا تماروا عندها يوم عرفة فى صوم النبى ﷺ ، فقال بعضهم : هو صائم ، وقال بعضهم : ليس بصائم ، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه »[٢] وقال ابن حجر : « وفى الحديث من الفوائد ... المناظرة فى العلم بين الرجال والنساء » .

جـ - **الاستشارة والرأى:** وذلك ما حدث مع النبى ﷺ بعد نزول الوحى لأول مرة ـ فقد جاء النبى ﷺ إلى خديجة رضى الله عنها ، وفؤاده يرجف ، فأخبرها الخبر ، وقال لها: " لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل[٣] .

د - **والمرأة فى الإسلام داعية ، ومفتية:** ففى الدعوة نجد أن الإسلام قد وقع فى قلب أم شريك القرشية وهى بمكة ، فأسلمت ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرا ، فتدعوهن وترغبهن فى الإسلام ، حتى ظهر أمرها لأهل مكة ، فأخذوها وعذبوها بالتجويع والتعطيش أياما ، وتركوها حتى فى حر الهاجرة والشمس ، ثم قالوا لها: لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا[٤] .

---

(١) صحيح البخارى (٨/ ٦٣٠ رقم ٤٨٨٦) وفى الفتح قال : ويحتمل أن يكون المراد بالجماع الوطء أو الاجتماع وهو أبلغ ـ انظر فتح البارى : ٨/ ٦٣١ .

(٢) البخارى (٤/ ٢٣٦ رقم ١٦٦١ ، ١٩٨٨) ومسلم رقم (١١٢٣) .

(٣) البخارى (١/ ٢٢ رقم ٣) .

(٤) الإصابة (٨/ ٢٤٨) قسم النساء .

إنصاف المرأة بالمساواة فى القضايا الجنائية:

أ - **الحدود:** ساوى الإسلام بين الجنسين الذكر والأنثى فى حد الردة ، وحد القتل ، وحد الزنا ، وحد السرقة ، وحد القذف ، وحد الخمر ، وقصاص الجروح ، فقال الله ﷻ : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤٥] . قال ابن كثير: « قد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة .

ونقل عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ ﴾ [المائدة:٤٥] أنه قال: ... تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم : رجالهم ونساؤهم إذا كان عمدا فى النفس ومادون النفس ، ويستوى فيه العبيد : رجالهم ونساؤهم فيما بينهم ، إذا كان عمدا فى النفس وما دون النفس »(١) . قال عمر بن الخطاب ﷺ وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: « إن الله قد بعث محمدا ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم ، قرأناها ووعيناها وعقلناها ، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده . فأخشى- إن طال بالناس زمان - أن يقول قائل : وما نجد الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، وإن الرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن ، من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير (المائدة : ٤٥) .

(٢) رواه البخارى (١٢/ ١٣٧ رقم ٦٨٢٩) ومسلم رقم (١٦٩١) واللفظ له عن ابن عباس - رضى الله عنهما .

وقال تعالى فيمن أحصن من الرجال والنساء: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢] وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٨] ، وقال رسول الله ﷺ : «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة »[١].

إنصاف المرأة بالمساواة فى الالتزامات المالية :

وذلك فى التملك والملك: فيتساوى الرجل والمرأة فى تملك جميع أنواع الملك ، والتصرف فيه بالبيع والشراء ، والصرف والإيجار ، والوكالة والحوالة والوقف والرهن ، والشركة والوديعة ، والهبة والوصية.

إنصاف المرأة فى قانون الأحوال الشخصية :

أ - **اختيار الزوج:** الأصل أن الرجل هو الذى يتولى اختيار المرأة التى يريد الزواج منها ، ولكن لا غضاضة أن تعرض المرأة نفسها على الرجل ، فإن رضى بأمرها يقوم بالخطوة التالية ، وهى التقدم إلى أهلها وذويها لخطبتها وعقد النكاح عليها.

فقد ذكر الإمام البخارى فى صحيحه: باب « عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح » ثم قال: " حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا مرحوم قال : سمعت ثابتا البنانى ، قال : كنت عند أنس وعنده ابنة له ، قال أنس : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها ، قالت : يارسول الله ، ألك بى حاجة ؟ فقالت بنت أنس : ما أقل حياءها ، واسوأتها ، قال أنس : هى خير

---

(١) البخارى : (١٢/ ٢٠١) رقم (٦٨٧٨) ومسلم رقم (١٦٧٦) عن عبد الله بن مسعود .

منك ، رغبت فى النبى ﷺ فعرضت عليه نفسها »[(١)] . ثم روى البخارى عن سهل بن سعد أن امرأة عرضت نفسها على النبى ﷺ قال له رجل : يارسول الله ، زوجنيها . قال: " ما عندك ؟" قال : ما عندى شىء ، قال : " اذهب فالتمس ولو خاتما من حديد" ، (فلم يجد ولا خاتما من حديد) فقال له : "ماذا معك من القرآن ؟ " فقال : معى سورة كذا وكذا ـ لسور يعددها . فقال النبى ﷺ: " أملكناكها بما معك من القرآن » [(٢)] . وقال ابن حجر - رحمه الله : « وفى الحديثين دلالة على جواز عرض المرأة نفسها على الرجل ، وتعريفه رغبتها فيه ، وأن لا غضاضة عليها فى ذلك ، وأن الذى تعرض المرأة نفسها عليه إن شاء رضى ، وإن شاء رفض ، لكن لا ينبغى أن يصرح لها بالرد ، بل يكفى السكوت ، أى سكوته ؛ لأن السكوت ألين فى صرف المرأة وأدب من الرد بالقول »[(٣)] .

وإذا عدنا إلى السيدة خديجة - رضى الله عنها - فإننا سنجد أن رغبتها فى النبى ﷺ ، ما حكاه لها غلامها ميسرة مما شاهده من علامات النبوة قبل البعثة ومما سمعه من بحيرا الراهب فى حقه لما سافر معه ميسرة فى تجارة خديجة - رضى الله عنها[(٤)] .

ب - **التراضى:** وفى الإسلام إنصاف للمرأة حينما يتساوى الزوجان فى الرضا بالآخر ـ فعن خنساء بنت خدام: « أن أباها زوجها وهى ثيب فكرهت ذلك ، فأتت رسول الله ﷺ ، فرد نكاحه »[(٥)] . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « تستأمر اليتيمة فى نفسها ، فإن سكتت فهو إذنها ، وإن أبت فلا جواز عليها »[(٦)] .

---

(١) البخارى ٩/ ١٧٤ رقم (٥١٢٠) .

(٢) البخارى ٩/ ١٧٥ رقم (٥١٢١) .

(٣) انظر المفصل فى أحكام المرأة د/ عبد الكريم زيدان ص ٦ ، ٥٤ ، ٥٧ ـ فتح البارى ٩/ ١٧٥ .

(٤) الإصابة (٨/ ٦٤) قسم النساء .

(٥) سنن النسائى (رقم ٣٠٦٦ صحيح سننه للألبانى) .

(٦) النسائى (رقم ٣٠٦٧) حديث حسن .

جـ - **حق الانفصال:** أنصف الإسلام المرأة بأن أعطاها حق الانفصال ـ فالمرأة بالانفصال عن الرجل أو الانفصال عنه كالرجل ، إلا أن العصمة بيد الزوج ما لم يتعد حدود الله . أما الزوجة فلها أن تفارق ما تكرهه فى وقت ، وفى كل حال ، وذلك بالخلع ـ والخلع : بضم الخاء وسكون اللام ـ فى اللغة : فراق الزوجة على مال ، مأخوذ من خلع الثياب لأن المراد المرأة لباس الرجل معنى ، وضم مصدره تفرقة بين الحسى والمعنوى[١]. فمتى كرهت المرأة بعلها لسوء خلق أو سوء خلق ، فما عليها إلا أن ترفع أمرها إلى الحاكم الحنيف ، وتحضر ما أعطاها قبل من الصداق ظن ، وحينئذ يجب على الحاكم أن يأمر زوجها بقبول الصداق ، وعلى الزوج أن يقبله ويفارقها فى الحال[٢] .

والأصل فى الخلع ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ولكنى أكره الكفر فى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : " أتردين عليه حديقته؟ " قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : " اقبل الحديقة وطلقها تطليقة "[٣].

إنصاف المرأة بالمساواة فى الحقوق الزوجية :

أ - **حل الاستمتاع:** الاستمتاع حق مشترك بين الزوجين فيحل لكل منهما الاستمتاع بالآخر ، لأن الزوجة تحل لزوجها ، كما يحل هو لها ، لأن نقاص النكاح لا تتحقق إلا بهذا الحل[٤].

ب- **ثبوت النسب:** والمقصود من ذلك أن ما يولد لهما أثناء قيام الرابطة الزوجية يثبت نسبه من الزوج على أن ولده من زوجته التى هى أمه.

---

(١) فتح البارى : ٩/ ٣٩٥ .

(٢) أحكام الخلع فى الإسلام . د/ تقى الدين هلال ص ٤٤ ، ٤٥ المكتب الإسلامى ، ط ثانية ١٣٩٥ هـ .

(٣) رواه البخارى (٩/ ٣٩٥ رقم ٥٢٧٣) .

(٤) المرأة بين هداية الإسلام وغواية الإعلان . صلاح مقبول .

جـ ـ **حرمة المصاهرة:** حرمة المصاهرة هى حرمة أنكحة أشخاص معينين تربطهم رابطة معينة بأحد الزوجين ، وهذه الحرمة قد ثبتت لبعض الأشخاص بمجرد انقضاء عقد النكاح بينهما لا تثبت هذه الحرمة للبعض الآخر بمجرد عقد النكاح بل لا بد أن يعقبه دخول لثبوت هذه الحرمة.

د ـ **حسن المعاشرة:** ومن الحقوق المشتركة بين الزوجين : المعاشرة بالمعروف ، فيلزم على كل واحد من الزوجين معاشرة الآخر بالمعروف من الصحبة الجميلة وكف الأذى لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ، فلكل من الزوجين حق المعاشرة بالمعروف على الآخر.

هـ - التوارث: يرث كل منهما من مات قبل الآخر .

إنصاف المرأة فى إقامة الواجبات المشتركة :

أ - **بيعة النساء:** فقد أمر الله عز وجل النبى ﷺ بمبايعة النساء . فقال ﷻ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة: ١٢] وقد بايع النبى ﷺ الرجال على ما بايع عليه النساء ، من الشروط المذكورة فى هذه الآية ، وبيعتهن أيضا سميت « بيعة النساء » التى فيها إقامة الواجبات المشتركة ، التى تجب على الرجال والنساء على السواء فى جميع الأوقات.

هذه نماذج واضحة مبينة تثبت أن الإسلام أنصف المرأة وغير فى مجرى تاريخها التشريعى ، وراعى الفترة الإنسانية المشتركة بين الرجل والمرأة منذ أول لحظة من تشريعاته ، فرد الإسلام اعتبار المرأة ، فكان لها الفضل فى عصر النبى ﷺ ـ فكان لها السبق فى الإسلام ، مثل خديجة بنت خويلد- رضى الله

عنها- وهى أول من صدقت ببعثه ﷺ مطلقا ، وهى أول من قامت بتشجيع وتقوية وتثبيت النبى ﷺ عند بدء الوحى ، وكانت تدعى قبل البعثة بالطاهرة - رضوان الله عليها[١] .

وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس عم النبى ﷺ والتى آمنت قبل زوجها العباس بن عبد المطلب ، وقد قال ابن سعد صاحب الطبقات[٢] إنها أول امرأة آمنت بعد خديجة .

منهن أيضا أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنها- وهى زوج الزبير بن العوام أسلمت قديما بمكة ، وذكر أنها أسلمت بعد سبع عشرة نفسا ، وهاجرت وهى حامل منه بولده عبد الله ، فوضعته بقباء ، وعاشت إلى أن ولى ابنه الخلافة[٣] .

وكذلك فاطمة بنت الخطاب أسلمت مع زوجها « سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل » وقبل أخيها أمير المؤمنين - عمر بن الخطاب- بل كانت هى السبب فى إسلام عمر ﷺ .

ومنهن أيضا أم سليم « أم أنس خادم النبى ﷺ » أسلمت مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار ، فغضب زوجها مالك بن النضر ، وخرج إلى الشام فمات بها[٤]، وكانت جويرية بنت الحارث - زوج النبى ﷺ - سببا لدخول قومها فى الإسلام - فكانت أعظم الناس بركة على قومها - فعندما خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج بنت الحارث بن أبى ضرار ، تداعى المسلمون والمؤمنون لتكريم السيدة التى أغرها نبيهم بالزواج ، وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها ، فأرسلوا أحرارا وهم يقولون : أصهار

---

(١) الإصابة (٨/ ٦٠) .

(٢) انظر ترجمتها فى الطبقات الجزء الثامن .

(٣) الإصابة (٨ / ٧، ٨) .

(٤) المصدر السابق .

رسول الله ﷺ [1] - رضى الله عن جويرية ، فقد كانت أكثر النساء بركة على أهلها الذين أسلموا جميعا . فانظرى أيتها الأخت المسلمة ، كيف كان الإسلام وما يزال أكثر إنصافا وتكريما للنساء .

❊ ❊ ❊

(١) زواج النبى ﷺ - عبد المنعم الهاشمى - مكتبة ابن كثير ، دار ابن حزم بيروت .

الوصية الثانية
تعلمى من عقيدتهن

١- ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء:

هذا المشهد الذى نتعلم منه سلامة العقيدة ، وصدق الإيمان هو وصية من الوصايا المهمة ، والذى جاءت به امرأة مسلمة فى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذى خرج يعس فى المدينة ، فلما أعياه التعب ، اتكأ على جانب جدار فى جوف الليل ، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا ابنتاه قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت : يا أمتاه وما علمت ما كان عزمه أمير المؤمنين اليوم ؟ قالت : وما كان من عزمته يا بنية؟ فقالت: إنه أمر مناديا فنادى ألا يشاب اللبن بالماء ، فقالت لها: يا بنية قومى إلى اللبن فامذقيه بالماء ، فإنك فى موضع لا يراك عمر. فقالت الصبية لأمها : ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء ، وعمر يسمع ذلك ، فقال : يا أسلم[1] امض إلى الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها ، وهل لهم من بعل ؟ قال أسلم : فأتيت الموضع ، فنظرت فإذا الجارية أيم (أى لا زوج لها) وإذا تلك أمها ، وإذا ليس لها رجل ، فأتيت عمر فأخبرته ، فدعا ولده ، فجمعهم ، قال : هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه؟ ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد على هذه الجارية فقال عبد الله : لى زوجة ، وقال عبد الرحمن: لى زوجة ، وقال عاصم بن عمر : لا زوجة لى فزوجنى فبعث إلى الجارية ، فزوجها من عاصم ، فولدت لعاصم بنتا ، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز ، فلنتعلم من جده عمر بن عبد العزيز التقوى والاستقامة فى السر والعلن ، فعبارتها التى قالت فيها: « ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء » تدل على صدق خالص ، وإيمان راسخ فهى تقية مستقيمة فى سرها وعلانيتها ، وفى خلوتها وجلوتها .

---

(١) أسلم هو غلام عمر رضي الله عنه أو صاحبه فى هذه الليلة ، وراوى الحديث هنا هو عبد الله بن زيد ابن أسلم ، عن أبيه عن جده أسلم .

ولكل عمل أجر ، ولكل جهد ثمار ، فكانت ثمرة صدقها وسلامة عقيدتها أن أكرمها الله بهذا الزواج العمرى المبارك ، فتزوجت عاصم بن عمر وأنجبت فتاة كبرت وترعرعت ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان فأنجبت منه عمر بن عبد العزيز ، هذا الفتى الأشج الذى ملأ الدنيا عدلا وقضى على الظلم والجور.

٢- إذن لن يضيعنا :

وهذه عقيدة أم العرب هاجر أم النبى إسماعيل عليه السلام ، عندما تركها إبراهيم عليه السلام فى صحراء ليس فيها ماء ، ولا طعام ، أضف إلى ذلك طفلها الرضيع ، فلما هم إبراهيم عليه السلام بالسفر دونها ودون رضيعها وهذا أمر لا يتوافق مع مشاعر الأبوة المعروفة ، فحولت هاجر فكرها إلى أمر لا يملكه إبراهيم عليه السلام ولا تملكه هى فقالت فى هدوء: آلله أمرك بهذا يا إبراهيم ؟ فقال إبراهيم عليه السلام : نعم ، فأحست أن الأمر كله بيد الله ، إذن فلا خوف ولا غرابة فى هذا وجاء ردها مليئا بالعقيدة السليمة والإيمان الراسخ عندما قالت فى رضا واطمئنان: « إذن لا يضيعنا »[١].

* * *

(١) البخارى فى كتاب الأنبياء ـ الفتح ٦/ ٣٩٦.

الوصية الثالثة
أى الأعمال أفضل؟

ومن الوصايا الهامة تلك الوصية التى أوصاها الرسول ﷺ عندما سأله عبد الله بن مسعود قائلا : أى الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ : " الصلاة على وقتها " ثم قال ابن مسعود : ثم أى؟ قال:" بر الوالدين" ، ثم قال ابن مسعود : ثم أى؟ قال عليه السلام: " الجهاد فى سبيل الله "(١).

١-الصلاة:

فى هذه الوصية نجد الصلاة فى مستهل أفضل الأعمال ، أو فضائل الأعمال ، ويتحدث الرسول ﷺ عن أهمية الصلاة والتى هى الصلة بين العبد وربه ، أضف إلى ذلك ما وصفه بها الرسول ﷺ من أنها كالنهر الذى يغتسل منه المسلم خمس مرات فيمحو ذنوبه وخطاياه وشبه الذنوب والخطايا بالدرن أو الوسخ فلنتأمل حديث الرسول ﷺ يقول: « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئا "؟ قالوا : لا يبقى من درنه ، قال: " فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا "(٢) فإن ذهبت إلى الصلاة تتطهر وتدعو وتستغفر بين الساعات والساعات ومن وقت لآخر خمس مرات ، فإن رحمة الله ستشملك فى هذه الصلوات ، فالمسلمون والمسلمات يفيؤون إلى الصلاة خمس مرات فى اليوم يسبحون ويحمدون ويكبرون ويستمدون العون من المعبود ، ويطلبون المغفرة والرحمة ، فهل نعمل بهذه الوصية التى تعد عماد الدين ، وجزاء العمل بهذه الوصية جزاء عظيما وثوابا فياضا تحدث عنه الرسول ﷺ فى حديث عثمان رضي الله عنه ، فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من امرئ مسلم

---

(١) متفق عليه ـ انظر شرح السنة للبغوى ٢/ ١٧٦ ، كتاب الصلاة : باب فضل الصلوات الخمس .

(٢) متفق عليه ـ شرح السنة ٢/ ١٧٥ .

تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله »[(١)].

وفضل الصلاة فضل عظيم وردت فيه عشرات الأحاديث والآثار بل قل مئات تؤكد أن فضل الصلاة الخاشعة الطاهرة القانتة على المسلم أنه فضل عظيم ، والرجل ملزم بحضور صلاة الجماعة فى المسجد، أما المرأة فقد أعفاها الإسلام بسماحته وفضله من لزوم حضور صلاة الجماعة فى المسجد ، لكنه فى نفس الوقت أباح لها إن أرادت ووجدت فرصة أن تخرج إلى المسجد لحضور الجماعة ، وروت السيدة عائشة - رضى الله عنها- أن المرأة أبيح لها الخروج للمسجد لحضور الجماعة بشرط أن تكون متلفعات بحجابهن لا يعرفهن أحد ، فعن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت: « لقد كان رسول الله ﷺ يصلى الفجر فيشهد معه نساء من المؤمنات متلفعات فى مروطهن ، ثم يرجعن إلى بيوتهن ، ما يعرفهن أحد »[(٢)].

وعن عائشة- رضى الله عنها- أيضا: « ... كن نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس »[(٣)].

ولو نظرنا إلى هذه الخاصية التى منحها الإسلام للمرأة نجد فى الإسلام سماحة تشريعه وروعة الإلزام والإباحة ، فللمرأة أعباء وشواغل كثيرة فى بيتها ومع أطفالها وزوجها مما لا يمكنها من لزوم مغادرة بيتها خمس مرات فى اليوم ، فجعل صلاة المرأة فى بيتها خيرا لها من صلاتها فى المسجد ، وترك حرية الاختيار لها إن شاءت خرجت لحضور جماعة المسجد وإن شاءت بقيت للصلاة فى بيتها.

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه .

(٢) فتح البارى ١/ ٤٨٢ كتاب الصلاة .

(٣) متفق عليه ـ شرح السنة ٢/ ١٩٥ كتاب الصلاة ، باب تعجيل صلاة الفجر.

ولكى تتكامل المنظومة التشريعية الرائعة فإنه ليس لزوجها أن يمنعها إذا استأذنته للخروج للمسجد ، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ بل فى أكثر من حديث فيقول عليه السلام: « إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها »(١). وقوله ﷺ : « لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن »(٢).

وفى العصر المكى كان خروج المرأة فيه نشر ، لكن رجال المسلمين الذين يطيعون رسول الله ﷺ ، فأذنوا لنسائهم بالخروج وتركوا غيرهم جانبا ، وقد بين هذه الصورة حديث عبد الله بن عمر- رضى الله عنهما - قال : كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء فى المسجد فقيل لها : لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار! قالت : وما يمنعه أن ينهانى؟ قال : يمنعه قول رسول الله ﷺ :« لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »(٣).

لذلك كان ارتياد النساء المساجد كلما تيسر لهن ، خير كثير ، ففى المسجد وعظ وتوجيه ، ومن ذلك نماذج كثيرة نجد منها قول أم هشام بنت حارثة بن النعمان- رضى الله عنها: « أخذت ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ ﴾ [ق:١] من فى رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر فى كل جمعة »(٤) وفى الطهارة تحدث النبى ﷺ عن الاستعداد لصلاة الجمعة بالغسل والاغتسال للرجال فقال ﷺ : « من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل »(٥).

مصاعب ولكن سماحة الإسلام :

وقد واجهت المرأة مصاعب فى إباحة الخروج للصلاة فى المسجد ، لكن

---

(١) فتح البارى ٢/ ٣٥١ كتاب الأذان ، باب استئذان المرأة زوجها بالخروج إلى المسجد ، وصحيح مسلم ٤/ ١٦١ كتاب الصلاة ، باب خروج النساء إلى المساجد .

(٢) رواه أحمد ٢/ ٧٦ ، ورواه أبو داود ١/ ٢٢١ فى كتاب الصلاة ، باب ما جاء فى خروج النساء إلى المسجد.

(٣) انظر الفتح ٢/ ٣٨٢ كتاب الجمعة ، باب الإذن للنساء بالخروج إلى المساجد .

(٤) صحيح مسلم ٦/ ١٦٢ كتاب الجمعة : باب تحية المسجد والإمام يخطب .

(٥) الفتح ٢/ ٣٥٧ ، باب الغسل يوم الجمعة .

سماحة الإسلام لم تمنعها من ذلك ، وبقى أمر خروجها ساريا والنهى عن منعها من الزوج ، لمعرفة الإسلام ورسولهﷺ مدى الفوائد العظيمة التى تعود عليها من ارتياد المسجد . ومن المصاعب التى واجهت المرأة ما رواه وائل الكندى أن امرأة وقع عليها رجل فى سواد الصبح ، وهى تعمد إلى المسجد ، فاستغاثت برجل مر عليها ، وفر صاحبها ، ثم مر عليها قوم ذوو عدة فاستغاثت بهم ، فأدركوا الذى استغاثت به ، وسبقهم الآخر فذهب ، فجاؤوا به يقودونه إليها فقال : إنما أنا الذى أغثتك وقد ذهب الآخر ، فأتوا به رسول اللهﷺ فأخبر أنه وقع عليها ، وأخبره القوم أنهم أدركوه يشتد ، فقال : إنما كنت أغيثها على صاحبها فأدركنى هؤلاء فأخذونى ، قالت : كذب هو الذى وقع علي . فقال رسول اللهﷺ : « اذهبوا به فارجموه » فقام رجل من الناس فقال : لا ترجموه وارجمونى ، أنا الذى فعلت الفعل ، فاعترف ، فاجتمع ثلاثة عند رسول اللهﷺ : الذى وقع عليها ، والذى أصابها ، والمرأة ، فقال: " أما أنت فقد غفر الله لك " ، وقال للذى أصابها قولا حسنا ، فقال عمر أرجم الذى اعترف بالزنا ، فقال رسول اللهﷺ : " لا لأنه قد تاب إلى الله - أحسبه قال - توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم »(١).

ضوابط صلاة المرأة فى الجماعة :

وقد وضع رسول اللهﷺ ضوابط لصلاة النساء صلاة الجماعة ، وذلك فى الصفوف وفى الخروج من المسجد ، وتنبيه النساء للإمام بالتصفيق ، والنهى عن تطيب المرأة عند خروجها على المسجد .

أولا : تنظيم الصفوف: نظم رسول اللهﷺ الصفوف فى جماعة ، ودعا النساء إلى الصفوف الخلفية فقالﷺ : " خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها »(٢).

---

(١) رواه أحمد ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٩٠٠ ، ٢/ ٦٠١ .

(٢) رواه مسلم ٤/ ١٥٩ ، كتاب الصلاة.

ثانيا : إفساح المجال للنساء ليخرجن قبل الرجال : ذلك ما أخبرت به أم سلمة زوج الرسول ﷺ ، فعن هند بنت الحارث أن أم سلمة زوج النبى ﷺ أخبرتها أن النساء فى عهد رسول الله كن إذا سلمن من المكتوبة قمن ، وثبت رسول الله ﷺ ومن صلى من الرجال ما شاء الله ، فإذا قام رسول الله ﷺ قام الرجال.

ثالثا : تنبيه النساء الإمام بالتصفيق : ذلك ما رواه الشيخان ، عن سهل ابن سعد الساعدى قال : قال رسول الله ﷺ: « مالى رأيتكم قد أكثرتم التصفيق من نابه شىء فى صلاته فليسبح ، فإنه إذا سبح التفت إليه . وإنما التصفيق للنساء »(١).

رابعا : لا تتطيب المرأة عند الذهاب للمسجد : فعلى الرغم من أن الإسلام أباح حضور المرأة المسلمة جماعة المسلمين إلا أنه وضع لذلك شروطا أهمها: ألا تكون المرأة متطيبة ، ولا متبرجة بزينة ، فقد أورد صحيح مسلم حديث زينب الثقفية عن النبى ﷺ أنه قال: « إذا شهدت إحداكن العشاء فلا تتطيب تلك الليلة »(٢) . وقال رسول الله ﷺ فى موضع آخر : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا »(٣) وقوله ﷺ: « أيما امرأة أصابت بخورا فلا تشهد معنا العشاء الآخرة »(٤).

حضور صلاة العيدين :

لقد كرمك الإسلام أيتها الأخت المسلمة ، وجعلك مكلفة كالرجل فى عبادة ربك ، ورغبك أيضا فى حضور المشاهد العامة فى عيدى الفطر والأضحى ، تشهدين الخير ودعوة المسلمين وقد تحدث الرسول ﷺ عن هذا

---

(١) متفق عليه ، انظر شرح السنة ٣/ ٢٧٣ كتاب الصلاة ، باب التسبيح إذا نابه شيء فى الصلاة .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الصلاة ٤/ ١٦٣ ، باب خروج النساء إلى المساجد .

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٦٣ .

(٤) المصدر السابق نفسه .

الجانب فى أحاديث كثيرة متعددة ، فقد أمر ﷺ أن يخرج النساء جميعا لحضور تلك المشاهد ، سواء كانت من العواتق- وهن الفتيات البالغات أو اللاتى قاربن البلوغ ، أو من ذوات الخدور وهن المخبآت والبكر حتى الحيض أمرهن بالخروج ، ما يعتزلن الصلاة ، ويشهدن الخير ودعوة الإسلام والمسلمين . وبلغ من حرص رسول الله ﷺ على خروجهن جميعا للصلاة فى هذين العيدين أنه أمر من لديها أكثر من جلباب أن تلبس أختها التى لا جلباب لها ، وفى ذلك حث على حضور صلاة العيد لكل النساء ، وعلى المواساة ، والتكافل والتعاون على البر والتقوى . فعن أم عطية الأنصارية رضى الله عنها قالت: « أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرج فى العيدين العواتق وذوات الخدور وأمر الحيض أن يعتزلن مصلى المسلمين »[١]. وعن أم عطية أيضا: « كنا نؤمر بالخروج فى العيدين المخبأة والبكر ، قالت: الحيض يخرجن فيكن خلف الناس ، يكبرن مع الناس »[٢].

وفى صحيح البخارى: حدثنا محمد بن سلام ، قال : أخبرنا عبد الوهاب عن أيوب عن حفصة بنت سيرين ، قالت: « كنا نمنع عواتقنا أن يخرجن فى العيدين ، فقدمت امرأة فنزلت قصر بنى خلف ، وكانت أختها معه فى ست غزوات ، فقالت : كنا نداوى الكلمى (الجرحى) ، ونقوم على المرضى ، فسألت أختى النبىﷺ : أعلى إحدانا بأس إذا لم يكن لها جلباب أن لا تخرج؟ « لتلبسها صاحبتها من جلبابها ولتشهد الخير ودعوة المسلمين » . قالت حفصة : فلما قدمت أم عطية أتيتها فسألتها ، أسمعت النبىﷺ ؟ قالت: بأبى نعم - وكانت لا تذكره إلا قالت : (بأبى) سمعته يقول: " ليخرج العواتق ذوات الخدور- أو العواتق وذوات الخدور- والحيض ، وليشهدن الخير

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ١٧٨ ، ١٧٩ كتاب صلاة العيدين ، باب إباحة خروج النساء فى العيدين إلى المصلى .

(٢) رواه مسلم ٦/ ١٧٩ كتاب صلاة العيدين ، باب إباحة خروج النساء فى العيدين إلى المصلى .

ودعوة المؤمنين ، ويعتزل الحيض المصلى » . قالت حفصة: فقلت لها: الحيض؟ قالت: نعم ، أليست الحائض تشهد عرفات وتشهد كذا وتشهد كذا[١].

وفى صحيح البخارى رواية أخرى عن أم عطية قالت: كنا نؤمر أن نخرج يوم العيد ، حتى تخرج البكر من خضرها ، حتى تخرج الحيض فيكن خلف الناس ، فيكبرن بتكبيرهن ، ويدعون بدعائهم ، يرجون بركة ذلك اليوم وطهرته[٢].

وفى هذا التشريع النبوى العظيم مراعاة وتقديرا لمشاعر وفكر النساءعندما أمر بخروج النساء جميعا ، حتى الحيض منهن ، مع أن الحائض معفاة من الصلاة ، ولا يجوز لها أن تغشى المصلى ، ولكنه عم بدعوته النساء جميعا ، حرصا منه على أن يشاركن فى هذين العيدين الكبيرين ويشهدن الخير ودعوة المسلمين ، فيكبرن مع المكبرين ، ويدعين من الداعين ، ويعشن قضايا الأمة الإسلامية من خلال سماعهن للخطبة فى هذه الأيام المباركة.

ففى خطبته ﷺ اتجه إلى مكان تجمع النساء فوعظهن وذكرهن وجعل هذا الوعظ والتذكر حقا على الإمام ، ففى الحديث الشريف عن أبى جريج قال : « أخبرنى عطاء عن جابر بن عبد الله قال: سمعته يقول: إن النبى ﷺ قام يوم الفطر فصلى ، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، ثم خطب الناس ، فلما فرغ نبى الله ﷺ نزل ، وأتى النساء فذكرهن ، وهو يتوكأ على يد بلال ، وبلال باسط ثوبه يلقى فيه النساء الصدقة ، قلت لعطاء: زكاة يوم الفطر؟ قال: لا ولكن صدقة يتصدقن بها حينئذ ، تلقى المرأة فتخها ويلقين (والفتخ هو الخواتيم العظام) قلت لعطاء: أحقا على الإمام أن يأتى النساء حين يفرغ ، فيذكرهن؟ قال: إى ، إى لعمرى ، إن ذلك لحق عليهم ، وما لهم لا يفعلون ذلك »[٣].

---

(١) الفتح ٢/ ٤٦٩ ، كتاب العيدين .

(٢) انظر الفتح ٢/ ٤٦١ كتاب العيدين : باب التكبير أيام منى .

(٣) انظر الفتح ٢/ ٤٦٦ كتاب العيدين ، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد ، وصحيح مسلم ٦/ ١٧٤ كتاب صلاة العيدين .

ونجد فى هذا الحديث موعظة النبى ﷺ للنساء وتذكير لهن ، وفى حديث آخر ، قال ابن عباس: « شهدت صلاة الفطر مع نبى الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب . قال: فنزل النبى ﷺ كأنى أنظر إليه حين يجلس الرجال بعده(١) ثم أقبل يشقهم حتى جاء النساء ، ومعه بلال فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة:١٢] فتلى هذه الآية حتى فرغ منها ، ثم قال: " أنتن على ذلك؟ " فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها منهن : نعم يا نبى الله- لا يدرى حينئذ من هى(٢)- قال: " فتصدقن " ، فبسط بلال ثوبه ، ثم قال : هلم فدى لكن أبى وأمى ، فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم فى ثوب بلال "(٣).

وفى تذكير النساء ووعظهن وأخذ الصدقة منهن ، والتأكد من ثباتهن على البيعة ، تكليف لهن بالقيام بشعائر هذا الدين ، ودفع لهن على ساحة العمل الصالح ، وقد تم هذا كله بفضل الدعوة إلى الصلاة الجامعة فى العيدين ، وفى هذا دليل على أهمية صلاة الجماعة فى مجتمع المسلمين.

المرأة وصلاة السنن والنوافل:

دعا الإسلام ألا تقتصر المرأة المسلمة على أداء صلواتها الخمس المفروضة بل تصل السنن الرواتب أيضا ، وتصلى من النوافل ما يتسع لها وقتها وجهدها ، كصلاة الضحى ، وبعد المغرب ، وفى الليل ، فإن صلاة النفل تقرب العبد من ربه ، وتحبوه محبة الله ورضوانه ، وتجعله من الصالحين القانتين

---

(١) اى يأمرهم بالجلوس .
(٢) قال ابن حجر فى الفتح : إنها أسماء بنت يزيد بن السكن .
(٣) الفتح ٢/ ٤٦٦ ،كتاب العيدين .

الفائزين ، وليس أدل على عظم المرتبة التى يبلغها العبد المؤمن بكثرة تقربه من الله بالنوافل من قوله فى الحديث القدسى: « مازال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه »(١).

وتصورى يا أختاه ما الذى سيترتب على حب الله لعبده ، فإنه يجعل أهل السماء يحبونه ، وكذلك أهل الأرض ، وذلك ما جاء فى حديث أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : إنى أحب فلانا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إنى أبغض فلانا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء ، إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الأرض»(٢) .

وكان رسول الله ﷺ قدوة لأتباعه فى هذا ، فقد كان ﷺ يصلى من الليل حتى تتفطر قدماه ، فتسأله أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها: لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيجيبها: أفلا أكون عبدا شكورا ؟»(٣).

وفى صلاة النافلة ننقل لك أختى المسلمة هذا الموقف التشريعى العظيم عن أم المؤمنين زينب - رضى الله عنها - فقد كانت تصلى النافلة ، وتطيل الصلاة فنصبت حبلا بين ساريتين ، فإذا أدركها التعب والفتور أمسكت به ،

---

(١) الفتح ١١/ ٣٤١ ، كتاب الرقائق ، باب التواضع .
(٢) صحيح مسلم ١٦/ ١٨٤ كتاب البر والصلة والآداب ، باب إذا أحب الله عبدا .
(٣) متفق عليه : انظر شرح السنة للبغوى ٤/ ٥٤ ، كتاب الصلاة ، باب الاجتهاد فى قيام الليل .

لتسترد نشاطها ، وذخل رسول الله ﷺ المسجد فرأى ذلك الحبل ، فقال: « ما هذا » قالوا : لزينب ، تصلى ، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به ، فقال : حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر قعد » أو « فليقعد »[١].

وكانت امرأة من بنى أسد ، تدعى الحولاء بنت تويت ، تصلى الليل كله لا تنام ، ومرت يوما بعائشة أم المؤمنين ، وعندها رسول الله ﷺ ، فقالت له عائشة : هذه الحولاء بنت تويت ، وزعموا أنها لا تنام الليل ، فقال رسول الله ﷺ « لا تنام الليل ، خذوا من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا »[٢]والرسول ﷺ يحب دوام الأعمال الصالحة وإن قلت ، فقد روت السيدة- عائشة رضى الله عنها- قالت : قال رسول الله ﷺ : " أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها ، وإن قل" . قال: وكانت عائشة- رضى الله عنها - إذا عملت عملا لزمته »[٣].

وكذلك كان أهل بيت رسول الله ﷺ ، فقد روى الإمام مسلم عن عائشة - رضى الله عنها- أنها قالت: « كان لرسول ﷺ حصير ، وكان يحجره من الليل ، فيصلى فيه ، فجعل الناس يصلون بصلاته ، ويبسطه بالنهار ، فثابوا ذات ليلة ، قال: " يا أيها الناس عليكم ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب الأعمال على الله ما دووم عليه ، وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملا أثبتوه "[٤]...أى لازموه وداوموا عليه.

* * *

(١) صحيح مسلم ٦/ ٧٢، ٧٣ كتاب صلاة المسافرين .

(٢) صحيح مسلم ٦/ ٧٣ .

(٣) مسلم ٦/ ٧٢.

(٤) صحيح مسلم ٦/ ٧٠ ـ ٧٢ كتاب صلاة المسافرين ، باب فضيلة العمل الدائم .

وصية اقتداء

قدوة بائعة اللبن فى الصدق والإيمان

انظرى إلى هذه الفتاة وأمها ، واعتبرى فإن سيرتها وصية من وصايانا قالت الأم: يا ابنتاه قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت الابنة : يا أمتاه أوما علمت ما كان فيه من عزمة أمير المؤمنين اليوم ؟قالت: وما كانت من عزمته يا بنية؟ فقالت: إنه أمر مناديا فنادى ألا يشاب اللبن بالماء ، فقالت الأم: يا بنتاه: قومى إلى اللبن فامذقيه بالماء ، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادى عمر: فقالت الصبية لأمها : يا أمتاه ، والله ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء[1].

١- ذكرى شقاء اليم :

بينما كان عمر بن الخطاب ﷺ يحج فى خلافته الراشدة ذات عام من أعوام خلافته الراشدة العظيمة ، مر عمر ﷺ بجبل يقال له: ضجنان على بريد من مكة ـ والبريد فرسخان أو اثنا عشر ميلا[2] من طريق عرفات ، فوثبت إلى خاطره ذكرى شقاء اليم ، وكان قد ألم به من سياط أبيه ، فوقف يتأمل المكان والذكرى ويسترسل فى تأمله ويمد نظره إلى الوادى ويرجع به إلى القمة ، حتى إذا استمكن . قال : لا إله إلا الله العظيم ، المعطى من شاء ما شاء ، كنت فى هذا الوادى فى مدرعة صوف أرعى إبل الخطاب ، وكان فظا ، غليظ القلب ، يتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصرت ، وقد أمسيت الليلة وليس بينى وبين الله أحد.

لقد كانت صورة بائسة مؤسفة فى ذهن أمير المؤمنين ، وقف يتأملها ويتذكر ويقول ذلك القول ليشهد الناس على ما كان من حاله فى أسر الشقاء

---

(١) مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى : ص ١٠.

(٢) انظر معجم البلدان ٥/ ٤٢٦ .

طفلا وصبيا ، يلهب أبوه جلدته بسوطه ليرعى الإبل فى منأى عن مكة ، وكان عليه ألا يقصر فى عمله ، بل عليه ألا ينال قسطا من الراحة ولو بسيطا ثم نظر عمر وهو يعيد بصره من حضيض الوادى ويصعده إلى قمة الجبل ، فإذا هو قد ارتفع خليفة على الناس وصعد فوقهم جميعا كما صعدت قمة هذا الجبل ، جبل ضجنان ، وأشرفت فى عزة وعلو على حضيض الوادى ، وارتسم فى خاطر عمر منظران قد تباينا ، ودارت فيه على عجل خيالات خزى وعجب ، فشهد بما كان فيه من شقاء الطفولة ، وظلمة الشرك ، ثم عجب لما أصابه من النعيم حين أسلم فصار على رؤوس الأمكنة وفوق هامات وليس بينه وبين الله أحد.

ولم ينكر عمر بن الخطاب فضل أبيه الخطاب حين ذكره بالقسوة ، ولكنه أشار إلى يده عليه حيث ألهب فيه- مذ كان طفلا وصبيا يرعى له إبله- جذوة إحساسه وهيج حدته حين أتعبه فى العمل وأمضه وأوجعه ولم يمهد لجنبه ليستريح ، فشب الراعى الصغير حميا متحمسا ذا حدة وسطوة ، يحسن رعاية الإبل ويلين قيادها ، ويصبر على عيش البادية متمدرعا فى صوف فى مكان قصى عند وادى ضجنان ، فلما نقل الإسلام عمر من الظلمات إلى النور ، وصعد عمر إلى حكم الناس وجد العرب كالإبل الآنفة تتبع قائدها ، وعليه أين ينظر أين يقودها؟.

وظلت فى عمر من سياط أبيه فزعة من القسوة ، وبقية من الحدة ، فى صبر لا ينفذ وجهد لا يمل ورأى لا يتردد ، وكأنما تحول فيه هيج الحدة وخوف العقوبة إلى طبع دافع يحثه على العدل والمضى والتنفيذ ، فلما صار إليه أمر الناس رحم فأطمع ، وقسا فزجر ، وفيما بين الرحمة والقسوة ساق الناس سوق الإبل ، ورعاهم رعيتها ، فاستطاع أن يحملهم على الطريق.

بنو عمر بن الخطاب:

وإذا كان عمر بن الخطاب قد ورث هذا الميراث ، فإن هذا العرق والميراث قد تدلى فى قوة بينة إلى أولاده ، وكانت له فيهم مظاهر تختلف وتتباين ، غير

أنها كانت كلها تنحرف نحو الحدة وتنطبع بطابع « عمرى » ، فإذا أراد بنو عمر شيئا أقدموا وأقحموا- فلم تمنعهم قوة ولم تكسرهم مخافة ، وإذا امتنعوا عن شيء صدوا عن طبع وأمسكوا دون اصطناع حيلة ، وحين حرم عليهم أميرهم أن يكونوا خلفاء ، تجافت عن الخلافة جنوبهم ، وغضبت عن لمعتها قلوبهم وأبصارهم ، وامتنعوا عن امتناع كأنه طبع فى العرق ودم من الميراث ورثوه من نفس هيجة أبيهم عمر على الخير والعدل - رضوان الله عليهم أجمعين - وذلك فى حماسة واندفاع ، ولم يكن هذا المظهر من أولاد عمر إلا دلالة على الحدة الموروثة بدت فى لون سلبى وصوت ساكت ، وكانت الدلالة أتم صمتا وأسكن حركة فى ابنه عاصم بن عمر بن الخطاب الذى زوجه رضى وتزوج عاصم طاعة وبركة - فيما سنرى.

أبو عاصم بن عمر:

مرت على وفاة رسول الله ﷺ خمس سنوات حين ولد عاصم بن عمر بالمدينة ، فلم يقدر له أن يكون صحابيا ولكنه سمع حديث النبى ﷺ من أبيه فرواه عنه ، فلما شب وأيفع انتظم فى جند فتح إفريقية تحت راية عبد الله بن أبى سرح ، ودخل إليها مجاهدا فاتحا سنة سبع وعشرين ، فلما ما أدى ما كتب عليه من القتال وما تطوع له من النصرة رجع إلى أهله بالمدينة وأقام بها(١).

أخلاقه:

وترفع عاصم بن عمر عن العبث كله فى حياته ، فكان خلوقا طيبا ولم ير الناس أحدا منهم أنه تكلم ببعض ما يريد ، فقد نزر الكلام فيه حياء وعفة وحبا للمسالمة وإيثار الخير ، فإذا حدث بينهم وبين أحد شيء وخاف عاصم أن يحتد الغضب وتشتد الخصومة ترك مجلسه وطرح حجته حتى تهدأ الثائرة ، ثم يعود إن رأى أن يعود ، وورث أبناؤه منه خالص صفاته تلك فأطفؤوا فى

---

(١) انظر النجوم الزاهرة ١/ ١٨٥ ، وشذرات الذهب ١/ ص ٧٧ .

نفوسهم سائر الغضب ، وبردوا عنهم نيران الأحقاد . وقد رووا أنه حدث بين عاصم بن عمر وبين رجل من قريش كلام فى أرض قد تنازعا فيها ، فجعل القرشى يغالى فى خصومته حتى تهدد عاصما قائلا له : إن كنت صادقا فأدخلها . قال له عاصم : أوقد بلغ بك الغضب كل هذا ؟ هى لك! ، فاستحيا القرشى من قوله وقال له : بل هى لك ! فتركاها جميعا لم يأخذها واحد منهم حتى ماتا ، ولم يتعرض لها أولادهما ، وبقيت طلقا حلالا للفقراء والمساكين[1] .

زوجتى بنت بائعة اللبن :

وجرى القدر لعاصم بحظ حسن ، والحظ هنا يكمن فى رضى من يعرف عاصم دينه ، ورضى من يعرف هذه الفتاة الهلالية دينها ، فهو عاصم بن عمر ابن الخطاب - رضى الله عنهما - صاحب الخلق الحسن والدين الكامل والحياء الشامل ألا نرضاه لهذه الفتاة التى رفضت إن تمذق الماء باللبن خوفا من الله ﷻ ، لقد رضى عمر بن الخطاب عن خلق هذه الفتاة ودينها أفلا يرضاها زوجة لابنه عاصم ، نعود على حظ عاصم الحسن ، فقد كان زواجه - حين أراد أن يتزوج إلى فتاة بنى هلال ، وكانت ذات وعى وفهم وحكمة وتدين ، زوجها له أبو عمر بن الخطاب ﷺ ، وقد كان عمر ﷺ يريد هو أن يتزوج منها لولا أنه كبر ولم تبق فيه رغبة ؛ لأنه رآها أحق النساء بأن ترتفع من خيمتها فى حواشى المدينة إلى بيوت الخلفاء.

فبينما كان عمر يعس فى حواشى المدينة وهو خليفة أصابه الإعياء فاتكأ على جانب جدار ، فإذا امرأة تقول لفتاة لها- وقد أمنت من يسمع قولها ، واطمأنت أنه لا يسمع كلامها أحد- فقالت: قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت الفتاة: أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟ قالت المرأة: وما كان من عزمته؟ فقالت: إنه أمر مناديه فنادى ألا يشاب اللبن بالماء

(١) رياض النفوس ١/ ٧٧ .

فقالت المرأة: قومى إلى اللبن فامذقيه ، فإنك فى موضع لا يراك عمر ولا مناديه : فقالت الصبية : والله ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء ، وطارت المقالة إلى سمع عمر بن الخطاب ﷺ ، فكانت عجبا وأى عجب ، نعم عجب عمر- رضوان الله عليه - لما دار فيها ، أفى خلافتى من يصدقنى فى السر والعلن ويكون هو هو فى الملأ كما هو فى الخلاء ، ومن؟ امرأة عربية أصيلة هلالية تبيع اللبن وتكد من أجل لقمة العيش ، ما أروع هذه النفس الطيبة وما أجمل هذه الفتاة المخلصة التى علمت فعملت بما علمت - رضوان الله عليها.

كان عجب عمر شديدا لوعى هذه الفتاة الفقيرة من وراء الخيام تستجيب لنداء الخير من غير تردد ، ولم يجف حلق المنادى من ندائه بالأمر على الناس ، وهى فى أشد الحاجة لمذق اللبن ليكثر فيكثر الربح ، ولم يكن عمر يعلم أن تلك التى تحضها على المذق أمها ، ولو علم لذهب فى تعجبه أكثر مما ذهب ؛ لأن الفتاة تغضب أمها من حيث لا ينالها من رضى الخليفة شىء ومن يعلمه بأمرها العظيم ، وهو منها رضوان الله عليه رفيع الشأن عال بعيد.

وود عمر ﷺ ود ود الصادقين لو تزوج هذه الفتاة من فوره ، وإنها لخليقة أن تكون له زوجا ، إلا أنه كبر وعلت سنه وفاتته الرغبة والميل ، وكان معه مولاه « أسلم » فقال له بصوت خافت لا يسمع فى الخيمة : يا أسلم ، علم الباب واعرف الموضع ، ثم مضى فى عسسه ، فلما أصبح قال : يا أسلم ، امض إلى ذلك الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها وهل لهما من بعل؟.

قال أسلم : فأتيت الموضع فنظرت ، فإذا الفتاة أيم لا بعل لها ، وإذا تيك أمها ، وإذا ليس لهما رجل ، وكانت امرأة من بنى هلال ، فأتيت عمر بن الخطاب فدعا ولده جميعا فقال: هل فيكم من يحتاج على امرأة أزوجه؟ ولو كان بأبيكم ميل ما سبقه أحد منكم إلى هذه الجارية ! فقال له عاصم ابنه: يا أبت إنه لا زوجة لى فزوجنى . فقال له : اذهب يا بنى فتزوجها فما أحراها أن تأتى بفارس يسود العرب ، فذهب عاصم فتزوجها[1] .

---

(١) ابن الجوزى ص ٦٥ ، مناقب عمر لابن الحكم ، شذرات الذهب ١/ ١٩٩.

ها هى أم عاصم :

شاءت الأقدار إلا أن تلد هذه الفتاة الهلالية ولدا ، بل جاءت لعاصم بطفلة صغيرة جميلة ، طيبة المنبت ، نقية طاهرة ، لم تلد لعاصم ذكرا بل ولدت أنثى ، وليس الذكر كالأنثى ، فلما ولدتها أسمتها أم عاصم وأنبتها ربها نباتا حسنا ، نعم لقد نبتت أم عاصم نباتا حسنا يحمل جرأة وشهامة وجدية آل الخطاب ، وتحمل صدق أمها وإخلاصها ، وعندما شبت عن الطوق وبلغت مبالغ الوعى والإدراك سعت إلى العلم فتعلمت ، وحين شبت أصبحت راوية الحديث عن أبيها عاصم عن جدها عمر بن الخطاب - رضى الله عنهم جميعا وأثر عنها مما روته من الحديث: « نعم الإدام الخل » وإذا نظرنا لأم عاصم وأثر البيت العمرى فيها ، نجدها وكأنما اصطبغت بصبغة بيت عمر ﷺ ، فاتجهت نحو التقشف والزهد.

وكان من اهتمامها بالتقشف والزهد هذا الحديث الذى روته ، ولم يكن فى البيت العمرى المبارك ما هو أعظم من عبادة الله والزهد ، ولا أكثر دورانا فى الكلام من الذكر والتسبيح والتلاوة ، ومن ثم الحديث عن الخل والزيت والزهد فى متاع الدنيا . ثم بدرت من أم عاصم - رضوان الله عليها - وهى صبية وزوجة بوادر من المروءة والبر ، وهزتها فعلات الكرم والمودة وحدثوا عنها أنها يوم مرت أيلة على الحدود بين أرض الحجاز وبداية الشام[1] وهى فى طريقها إلى زوجها عبد العزيز بن مروان وإلى مصر ، جاءها رجل معتوه فقدم إليها هدية فقبلتها منه وأثابته عليها فرضى ، فلما ماتت أم عاصم وتزوج عبد العزيز بأختها حفصة ومرت بأيلة تريد مصر فى طريق أختها ، جاءها المعتوه نفسه فأهدى إليها فلم تثبه كما فعلت أختها من قبل ، فغضب المعتوه وقال: ليست حفصة من رجال أم عاصم فبين فضائل أم عاصم - وهو المعتوه! وقد ذهبت قولة المعتوه مثلا مضروبا شرودا منشرا شرودا.

---

(١) معجم البلدان ١/ ٣٩١ وهى المعروفة اليوم بإيلات .

مع عبد العزيز بن مروان :

تزوجت أم عاصم عبد العزيز بن مروان ، وهو من الأصول الأموية وفروعها التى قد طابت ومالت عن السرف ورغبت فى العضد ، وكانت فروع بنى أمية فى ثياب من العز وأبهة الملك ذات جوهر يجرى مع الصفاء ، ومن هذه الفروع ذات النضرة عبد العزيز بن مروان ـ ترى من هو هذا الرجل؟ .

نشأ عبد العزيز بن مروان فى المدينة فطبعته على خيرها ، وروى عن بعض رجالها الحديث كأبى هريرة وغيره[1]، فلما رحل إلى مصر وتولى أمرها خالطت قلبه الخشية لرقة أهلها وحسن طاعتهم ، وحين ابتعد عن أهله مال....العفة وقصد الاعتدال . ورق ذوق عبد العزيز بن مروان وبلغ من الترف حدا رفيعا وتأثر بما رأى فى الشام ومصر من الدور والأبنية والآثار ، فجعل يسابق الخلفاء والأمراء من أهله فى البناء وإعلاء الجدران وضرب الدنانير ثم جعل الأمكنة لسكناه ، ويشترى عشرات من الدور يزخرفها وينجدها ثم يهبها لأولاده[2] ، فلما عصف طاعون الجارف بأهل مصر القديمة « فسطاط عمرو» تحول عبد العزيز إلى مكان طيب الهواء قد استحسن موضعه فاشتراه من قبط مصر بعشرة آلاف دينار واختط به مدينة حلوان ، بينها وبين الفسطاط نحو فرسخين من جهة الصعيد مشرفة على النيل ، ثم بنى داره بها وزخرفها وموهها بالذهب ووضع قريبا منها مقياس حلوان[3].

وطالت الأبهة بعبد العزيز وامتدت مفخرته فبنى دار الأضياف[4]وضرب حولها قباب الجود والكرم ، وأدار فيها الموائد ودعا الناس إلى طعامه ، فكثرت بداره الضيفان وكثر رماد النار ، إذ كان له فى كل يوم ألف جفنة من ألفى

---

(١) انظر شذرات الذهب ١/ ٩٥ .

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم .

(٣) النجوم الزاهرة ١/ ١٨٥ .

(٤) فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٣ .

قدر يقرى الناس وضيافتهم حتى قال الشاعر:

كل يوم كأنه عيد أضحى عند عبد العزيز أو يوم فطر

وله ألف جفنة مترعات كل يوم يمدها ألف قـدر[(١)]

وكما أن عبد العزيز بن مروان زوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ﷺ ، وكما كان كثير قرى الضيفان كان جوادا على أصحابه الذين وفدوا عليه من المدينة والحجاز ، فبنى لهم الدور ، وغرس لهم النخيل في حلوان وجيزة الفسطاط[(٢)]وكان يرد على الجميل الذى يوهب له بما ليس فى حسبان أحد ، وكان على ذلك كله على نية طيبة وناحية من الورع ، يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الحلال والحرام ، فحين أراد أن يتزوج أراد ذات عرق ، فإن العرق دساس ، وأراد ألا يتزوج من حسناء فى منبت سوء كما فعل بعض أهله من بنى مروان ، ثم رأى أن يكون مهر زوجته أم عاصم من أنقى ماله الحلال وأبعده عن الشك ، فقد كان بعض ماله مختلطا مجلوبا من المظالم ، ولعرفانه به وخوفه منه قال لقيمه ومسؤول أمواله: اجمع لى أربعمائة دينار من طيب مالى فإنى أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح ، فجمع له قيمة ما أراد ، فتزوج به أم عاصم[(٣)] ، وفرح عبد العزيز وفرح أهله بهذا الزواج فرحا عظيما وزفت إليه جميلة بنى الخطاب وعقيلتهم الطاهرة أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ﷺ . وأقبل البيت المروانى الأموى على العروسين بالمنح والهدايا حتى إنهم ليقولون: إنهم أوقدوا المصابيح ليلة زواجه بطيب الغالية بدل الزيت.

أم الخليفة الراشد:

ترى أتاهت فطنة عمر وبشارته لابنه عاصم حين لم تلد الهلالية ذكرا

---

(١) معجم البلدان ٣/ ٣٢٦ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ١٠٣ .

(٣) انظر صفة الصفوة ٢/ ٦٣ .

وولدت له أم عاصم ، ثم رجعت بشارة عمر مرة أخرى حين تزوجت أم عاصم عبد العزيز بن مروان وولدت له أشقاء أربعة : أبا بكر وعمر ومحمدا وعاصما.

لكن بشارات وفطنات عمر لم تنته ، فأخذت شمائل بنى الخطاب تجتمع فى الفتى عمر بن عبد العزيز فورث من أمه أم عاصم وأخواله آل عمر بن الخطاب جوهر التقوى وحب المروءة والميل إلى الإنصاف ، وورث من البيت الأموى ومن أبيه على وجه الخصوص ذوقه الرفيع وإدراكه الدقيق ، وورث من أمه حدتها وحماستها ولسانها وقصدها فى الكلام ، فإنه حين استترت حدة عمر بن الخطاب فى ابنه عاصم ، عادت فظهرت فى حفيدته أم عاصم ، فلم تكن تدع أمرا يهيجها إلا اهتاجت له ، ولم تترك غلطة ولا هفوة إلا حاسبت عليها حسابا عسيرا ، تماما كما كان يفعل جدها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه وأرضاه - ولو كان المخطئ زوجها لم تعفه ، ولو كان هذا الزوج واليا واقفا على رؤوس الناس.

وأرسل عبد العزيز بن مروان إلى زوجته أم عاصم وكان واليا على مصر ، أرسل إليها أن تقدم عليه بحلوان مصر ومعها ابنها عمر بن عبد العزيز ، وكانت وقتها فى زورة لأهلها فى المدينة ، فأخبرت عمها عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ بما رغب فيه زوجها ، فطلب إليها أن تلبى دعوة زوجها فتسافر إلى مصر وتبقى ابنها عمر بالمدينة لينشأ ويعلم ، وقد صار آل الخطاب حوله يتعشقونه وينعطفون عليه بالمحبة والترضية ؛ لأنه أكثر الناس شبها بأبيهم عمر ابن الخطاب ﷺ ، فتركته أم عاصم كما أراد عمها ، وقصدت مصر وحدها تريد حلوان . فلما قدمت أم عاصم على زوجها عبد العزيز بن مروان من المدينة إلى مصر ولم يكن معها ابنها سألها عبد العزيز عنه فأخبرته ، فسر لبقائه بالمدينة فى عطف أخواله آل الخطاب الذين آثرهم بل وأحبهم حبا عظيما ، وكانت وراء هذه الفرحة الظاهرة فرحة أخرى أبلغ منها ، فإن بنى أمية كانوا يتوددون لآل الخطاب ويرجون رضاهم عسى أن يؤثر ذلك فى أهل المدينة

فيرضوا لمكان آل الخطاب فيهم ، ورأى عبد العزيز بن مروان من فوره أن يوظف لابنه من يخدمه ومن يعلمه هناك ، ثم أسرع فكتب بما علم وعمل إلى أخيه عبد الملك الخليفة فى دمشق ، فانطلقت نفس عبد الملك ، وفرح لهذه البادرة التى تقر به من المدينة باتصال حبله بآل الخطاب ، وأجرى على ابن أخيه فى كل شهر من المال الفىء ألف دينار ، وشب عمر بين يدى أم عاصم أمه الرؤوم ، وأحاطت به رعاية وحنان أعمامه وأخواله ، فمشى فى الأرض وكأنما يكون لنفسه طبقة واحدة هى بين السادة من أهل المدينة والسادة من أمراء دمشق.

ابنى الأشج يملأ الأرض عدلا :

كرم آل الخطاب عمر بن عبد العزيز دون غيره من أبناء عبد العزيز بن مروان مع أن عبد العزيز بن مروان كان له عشرة أولاد هم : أبو بكر وعمر ومحمد وعاصم ، وأمهم أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب والأصبغ وسهل وسهيل والريان وأم الحكم وأم البنين وأمهاتهم مختلفات ، بعضهم من أم عبد الله بنت عبد الله بن عمرو بن العاص ، وبعضهم من أم ولد أخرى رومية يقال لها مارية[1] . فلعمر بن عبد العزيز من أم عاصم أشقاء ثلاثة ، ولكن آل الخطاب أفردوا عمر بالتكريم من بين أشقائه ؛ لأنه كان شبيه أبيهم ولأنهم رأوا فيه مخايل أمل يكاد يتحقق تأويلا لرؤيا كان رآها أبوهم عمر بن الخطاب ، وكانت رؤيا يتمناها الناس أن تسرع فتولد ، فلما ولدت قويت وصارت فراسة عرفت من الخلق والخلق والحركة والمزاج . ثم كانت كائنا حيا ينبض فى ذات عمر بن عبد العزيز.

كان عمر بن الخطاب قد رأى رؤيا فقام منها يمسح النوم عن وجهه ويعرك عينيه ويقول : من هذا الذى يكون أشج من ولدى ويسير بسيرتى؟ويقول: إن من ولدى رجلا بوجهه أثر يملأ الأرض عدلا[2] ، وقد طوفت هذه الرؤيا

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ص ١١٢.

(٢) المعارف ص ١٥٨ .

بعين ابن الخطاب فتعجب لها ؛ لأنه كان قد أصر على حرمان ولده جميعا من الخلافة حتى يكون كفئا لها منهم كابنه عبد الله ، ولعل ابن الخطاب ود ألا يرى - حتى فى منامه- من يلى الخلافة من ولده وأحفاده ، وقد أشفق على أهله فلم يشأ أن يحمل أحدا منهم أصر أمة ، ورجا الله أن يخرجوا من الدنيا ، قد خطوا منها بالكفاف ، لا عليهم ولا لهم.

صدق عمر بن الخطاب الرؤيا ، فلما قصها على أهله صدقها أهله ، وانتظروا تأويلها ، ودأب عبد الله بن عمر ﷺ بقول قولة أبيه عمر بن الخطاب: ليت شعرى من هذا الذى من ولد عمر فى وجهه علامة ، يملأ الأرض عدلا. وانتقلت القولة من فم إلى فم ، وفشت فى أولاد عمر وأنسابهم وفى بنى أمية والناس ، وعرفها الشيخ والصبى ، فانتظروا جميعا الأشج الذى يحكم.

ثم حان لعمر بن عبد العزيز أن يزور أباه فى مصر وهو غلام ، فارتحل إليه حتى إذا جاء حلوان انطلق يتدلل ويتنقل كما شاء له هواه ليرى بحلوان مصر ما لم ير بالمدينة ، وخرج ذات يوم يتفرج بما شاء واصطحب أخا له غير شقيق هو « الأصبغ » فأتيا معا اصطبل الخيل ، وبينما عمر يلعب بلا حذر ، ويمضى فى غفلة من وراء الخيل رمحته بغلة ، فأصابت جبينه - وكانت شديدة- فشجت رأسه ، فصاح الأصبغ ضاحكا حين رأى ما أصاب أخاه ، وجعل يقول : الله أكبر! هذا أشج بنى مروان الذى يملك![1].

كان الدم يسيل من عمر ، وعمر يتألم ، والأصبغ فرح يضحك ويصيح ويكبر ثم يقول: هذا أشج بنى مروان ! والأصبغ أموى ، ولكنه يرى أخاه أشبه ببنى الخطاب منه ببنى أمية ، بل كان أخوه الأصبغ وأهله جميعا يرون ذلك . وكانت لحاظهم ترمق عمر وقلوبهم تطيف به كلما درج وخطا واتضحت فيه السمات ، فلما ضربته البغلة فشجته لم يملك الأصبغ أن صاح

---

(١) المصدر السابق .

به ، وطغى شعوره عليه فصاح مكبرا . وبلغ الخبر دار الأمير فأسرعت أم عاصم إلى ابنها عمر بن عبد العزيز وبلغت مكانة فى جماعة من خدمها قبل أن يبلغه أبوه ، وأقبلت عليه تضمه إليها وتمسح الدم عن وجهه ، ثم لم تمسك عليها حدتها حين علمت أن الأصبغ كان يضحك ، فأقبلت على زوجها تعاتبه وتلومه وتقول له فى علانية حين جاء : أما الكبير فيخدم ، وأما الصغير فيكرم ، وأما الوسط فيضيع! لم لا تتخذ لابنى حاضنا حتى أصابه ما ترى ؟! وأخذ عبد العزيز بن مروان يمسح الدم عن وجه ابنه عمر وهو يتميز غيظا من ابنه الأصبغ لما بلغه من ضحكه عند سقوط عمر ، وقال له : يسقط أخوك فتضحك سرورا منك بما أصابه؟ فقال الأصبغ : ليس ذلك يا أبى ، لم تضحكنى شماتة به ولا سرور بسقوطه ، ولكنى كنت أرى العلامات من أشج بنى أمية مجتمعة فيه إلا الشجة ، فلما سقط وشج سرنى ذلك لتكامل العلامات فيه ، فأضحكنى وهو والله أشج بنى أمية[1] . سكت عبد العزيز بن مروان عن ابنه الأصبغ ، وتأمل شجة عمر فمال إلى زوجته أم عاصم يقول لها فى دعابة :« ويحك إنه أشج بنى مروان ، وإنه لسعيد » وقيل لعمر منذ ذلك الحين : أشج بنى مروان ، وأشج بنى أمية ، وأشج قريش . وصار بهذه العلامة موضع الحسد من أمراء أمية وأولاد عبد الملك خاصة ، وقد قالوا : إنه لما سار عمر غلاما أدناه عبد الملك منه وجعل يؤثره ويرق له ، فإذا دخل عليه رفعه فوق ولده جميعا إلا الوليد بن عبد الملك ، فعاتبه أحد أبنائه على ذلك ، فقال له : أو ما تعلم لم فعلت ذلك ؟ قال : لا ، فقال عبد الملك : إنه سيلى الخلافة وهو أشج بنى مروان الذي يملأ الأرض عدلا بعد أن تملأ جورا وظلما ، فما لى لا أحبه إذن).

كانت أم عاصم ترقب هذا كله وتتذكر مقولة أمها لجدتها الهلالية يوم أن طلبت منها أن تمذق اللبن فى الماء: « والله ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء » نعم الذرية الصالحة ، ذرية بائعة اللبن فى بناتها وأحفادها.

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن الحكم ـ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٢٠.

أى الأعمال ... ؟

بر الولدين:

رغم أن حديثى عن بر المرأة المسلمة لوالديها يأتى على شكل وصية ، إلا أن هذا التشريع الإسلامى الخاص ببر الوالدين يعد من مميزات ديننا الحنيف ، ومما يريد الإسلام أن يميز المرأة المسلمة الحكيمة العاقلة بهذه الفضيلة العظيمة وهى بر الوالدين ، فالمرأة المسلمة التى تتلو القرآن تعرف قدر بر الوالدين فى كتاب الله فقد جاء: « بر الوالدين » فى المرتبة الثانية بعد مرضاة الله ﷻ عند قوله ﷻ : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦].

ويكرر القرآن الكريم هذا الترتيب وهذا التكريم فى قوله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٣، ٢٤] ومقصد القرآن- من الأمر بين الوالدين- ينحل إلى مقصدين:

الأول: نفسانى ، وهو تربية النفوس ، نفوس الأمة على الاعتراف بالجميل لصاحبه ، وهو الشكر تخلقا بأخلاق البارى تعالى فى اسمه الشكور ، فكما أمر بشكر الله على نعمة الخلق والرزق أمر بشكر الوالدين على نعمة الإيجاد الصورى ، ونعمة التربية والرحمة . وفى الأمر بشكر الفضائل تنويه بها ، وتنبيه على المنافسة فى إسدائها.

الثانى: عمرانى ، وهو أن تكون أواصر العائلة قوية العرى ، مشدودة الوثوق ، فأمر بما يحقق ذلك الوثوق بين أفراد العائلة ، وهو حسن المعاشرة ، ليربى فى نفوسهم التحاب والتواد ما يقوم مقام عاطفة الأمومة الغريزية فى

الأم ، ثم عاطفة الأبوة المنبعثة عن إحساس بعضه غريزى ضعيف ، وبعضه عقلى قوى ، حتى أن أثر ذلك الإحساس يساوى بمجموعه أثر عاطفة الأم الغريزية أو يفوقها فى حالة كبر الابن . ثم وزع الإسلام ما دعا إليه من ذلك بين بقية مراتب القرابة على حسب الدنو فى القرب النسبى بما شرعه من صلة الرحم ، وقد غرز الله قابلية الانسياق إلى تلك الشرعة فى النفوس(١).

ومن أبرز سمات المرأة المسلمة ومميزاتها التى تتميز بها برها بوالديها والإحسان إليهما ، ذلك أن الإسلام حض فى عديد من النصوص القاطعة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وكل مسلمة تطالع هذه النصوص لا يسعها إلا الالتزام بهديها ، والمسارعة إلى بر الوالدين ، مهما تكن ظروفها وأحوالها ، ومهما تكن العلاقة بين الفتاة ووالديها.

معرفة قدر الوالدين:

والمرأة المسلمة تعرف قدر والديها إذا استعرضت النصوص والآيات الكريمة التى تتحدث عن بر الوالدين فى مرتبة تالية بعد مرضاة الله سبحانه وتعالى كما يلى:

١) الإحسان إليهما رأس الفضائل بعد الإيمان بالله ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾[النساء: ٣٦] ؛ ولذلك فلا يتوقف بر الفتاة المسلمة لوالديها عند انتقالها إلى عش الزوجية ، ومحصن الأولاد ، بل يستمر برها بوالديها ماتنفس بها العمر وامتدت بها الأيام عملا بهدى القرآن الكريم الموصى بالوالدين حتى آخر الحياة .

٢) الإحسان إليهما بصفة خاصة عندما يدلفان إلى الشيخوخة ، ويصلان إلى مرحلة الضعف والهرم ، ويحتاجان إلى الخلق الراقى والبسمة الحانية ،

---

(١) التحرير والتنوير ـ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (١٥/ ٧٣ ، ٧٤).

والكلمة الودود- لقوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٣، ٢٤].

٣) والمرأة المسلمة التى حسن إسلامها لأنها استنارت بنور القرآن الكريم تتلقى دوما هذا الإيقاع الربانى الجميل ، كلما تلت آية من آيات القرآن الكريم التى توصى بالوالدين ، ازدادت برا بهما ، وإحسانا إليهما ، وإقبالا على خدمتهما ، وتفانيا فى التماس رضاهما ، ولو كان لها زوج وبيت وأولاد ومسئوليات- فتستعرض الآيات الكريمة فى قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨] ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان: ١٤] ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦].

٤- دعت الأحاديث الشريفة إلى بر الوالدين ، وأكدت فضل بر الوالدين ، محذرة من عقوقهما أو الإساءة إليهما مهما تكن الأسباب حتى لو كان الجهاد فى سبيل الله . فقد جاء رجل إلى رسول اللهﷺ يبايعه على الهجرة والجهاد ، يبتغى الأجر من الله تعالى ، فيتريث عليه السلام فى قبوله ويسأله: « فهل من والديك أحد حى؟ » فيقول الرجل : نعم ، بل كلاهما ، فيقول الرسول الكريم : « فتبتغى الأجر من الله تعالى؟ » فيجيبه الرجل: نعم ، فيقول الرسول البر الرحيم: فارجع إلى والديك ، فأحسن صحبتهما »[١]. وفى رواية للشيخين: جاء رجل فاستأذن الرسولﷺ فى الجهاد ، فقال: « أحيى والداك » قال: نعم ، قال: « ففيهما فجاهد »[٢]. ونجد فى هذه الأحاديث أن

(١) متفق عليه ، انظر رياض الصالحين : ٩١ باب بر الوالدين .

(٢) رواه الشيخان : رياض الصالحين ١٩١ باب بر الوالدين .

الرسول الكريم ، وهو قائد الجيش ، لم يتخل عن رأفته ورحمته بالمؤمنين فيذكر بقلبه الرقيق ضعف الوالدين ، وحاجتهما لابنهما ، فيرد هذا المتطوع للجهاد ، ويلفته برفق إلى العناية لوالديه وإنه لفى حاجة إلى كل ساعد يضرب بالسيف آنذاك ، تقديرا منه - صلوات الله عليه وسلامه - لخطورة هذا الأمر وهو البر بالوالدين وحسن القيام على شؤونهما فى منهج الإسلام الكامل المتوازن الفريد الذى رسمه الله لسعادة الإنسان.

سعد بن أبى وقاص وأمه :

أنكرت أم سعد بن أبى وقاص على ابنها سعد أحلامه ، وقالت له: إما أن ترجع عن إسلامك ، وإما أن أضرب عن الطعام حتى أموت فتكسب معرة العرب ، إذ يقولون : قاتل أمه ، أجابها سعد : تعلمين والله لو كان لك مائة نفس ، وخرجت نفسا نفسا ما رجعت عن إسلامى ، وصبرت أمه يوما فيومين ، وفى اليوم الثالث أجهدها الجوع فطعمت ، وأنزل الله تعالى قرآنا تلاه الرسول ﷺ على المسلمين فيه عتاب لسعد على شدته مع أمه فى جوابه لها: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِى مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ فَلَا تُطِعۡهُمَا وَصَاحِبۡهُمَا فِى ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفًا ﴾ [لقمان:١٥].

جريج العابد وبر الوالدين:

وجاء فى سياق الحديث النبوى الشريف عن بر الوالدين قصة جريج العابد ، وفيها عبرة بالغة فى أهمية بر الوالدين والمسارعة فى طاعتهما ، إذ نادته أمه وهو يصلى ، فقال: اللهم أمى وصلاتى ، واختار صلاته ونادته أمه ثانية ، فلم يجبها واستمر فى صلاته ، ونادته ثالثة ، فلما لم يجبها ، دعت عليه ألا يميته الله حتى يريه وجوه المومسات ، وزنت مومس براع فحملت منه ، فلما خشيت انفضاح أمرها قال لها الراعى: إن سئلت عن أبى المولود فقولى : جريج العابد ، فقالت: وهب الناس يخربون صومعة جريج ، واقتاده الحاكم للساحة ، بينما هو فى الطريق تذكر دعاء أمه فتبسم ، ولما قدم للعقاب

استمهل حتى يصلى ركعتين ، ثم طلب الغلام وهمس بأذنه : من أبوك؟ فقال الغلام : أبى فلان الراعى ، فهلل الناس وكبروا وقالوا : نعيد بناء صومعتك فضة وذهبا ، فقال: لا بل أعيدوها كما كانت من تراب وطين .

ويقول النبى ﷺ فى هذا الحديث الذى رواه البخارى: « لو كان جريج عالما لعلم أن إجابته أمه أولى من عبادة ربه»(١) . ومن هنا رأى الفقهاء أن المرء إذا كان فى صلاة النفل ، وناداه أحد والديه فعليه أن يقطع صلاته ويجيبه . وقد واجهت النساء والفتيات فى عصر النبى ﷺ مواقف فى بر الوالدين ، فسألن الرسول ﷺ فأجابهن بما شرع الله فى هذا الأمر الخطير ، ومن ذلك: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟قال: « نعم حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضية؟ اقضوا الله ، فالله أحق بالوفاء »(٢).

وفى رواية لمسلم: إنه كان عليها صوم شهر ، أفأصوم عنها؟ قال: « صومى عنها » ، قالت: إنها لم تحج قط ، أفأحج عنها ؟ قال:« حجى عنها »(٣).

٥- المرأة تبر والديها حتى ولو كانا على غير دين الإسلام: ولأن رسول الله ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإنه يقدم للوالدين برا غير مسبوق إذ يوصى عليه السلام ببر الوالدين والإحسان إليهما حتى ولو كانا على غير دين الإسلام ، وتقوم المرأة المسلمة بأداء هذا الدور الرفيع الخلق متمثلا فى أسماء بنت أبى بكر الصديق- رضى الله عنهما ، فقد قالت: قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: قدمت على أمى ، وهى راغبة(٤) أفأصل أمى؟ قال: « نعم صلى أمك ».

---

(١) انظر فتح البارى ٣/ ٧٨ كتاب العمل فى الصلاة ، باب إذا دعت الأم ولدها فى الصلاة .
(٢) الفتح ٤/ ٦٤ كتاب جزاء الصيد ، باب الحج والنذور.
(٣) رواه مسلم ٨/ ٢٥ كتاب الصيام ، باب قضاء الصوم عن الميت .
(٤) راغبة ما عندى .

٦) يجب على المرأة أن تتجنب عقوق والديها: إن المرأة المسلمة الواعية تخشى على نفسها من عقوق والديها ، فبقدر طاعتهما وبرهما بقدر ما تنال من رضى الله ﷻ وتنجو من عقابه ، فبر الوالدين من الفضائل العظيمة ، ومعصيتهما من كبائر الذنوب والمعاصى ، فقد قرن النبى ﷺ عقوق الوالدين بالشرك بالله ، بنفس الترتيب فى الطاعة فى قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ [النساء: ٣٦] ، فعبادة الله والإحسان إلى الوالدين ترتيب ثابت وعلاقة حميمة ، وبنفس الترتيب فى المعصية فكل عاقة بوالديها كانت مشركة بالله من كبائر الذنوب ، وفى ذلك يتحدث الرسول ﷺ عن أبى بكرة - نفيع بن الحارث - قال: قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ » ثلاثا. قلنا: بلى يا رسول الله ، قال: « الإشراك بالله وعقوق الوالدين »(١).

٧) والمرأة المسلمة تبر أمها وأباها : بر الوالدين لم يقتصر على الأم فقط ، بل إنه كما خص الأم خص الأب أيضا ، وأوصت أحاديث رسول الله ﷺ بوجوب التوازن عند الأبناء والثبات فى بر والديهم ، وألا يكون بر أحدهما على حساب الآخر ، فيما أكدت بعض النصوص وجوب تقديم بر الأم على الأب ، ونرى من ذلك فى حديث رسول الله ﷺ عندما جاءه رجل يسأل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ فأجابه الرسول الكرم : « أمك » قال : ثم من؟ قال: « أمك » قال: ثم من؟ قال: « أمك » قال: ثم من؟ قال: « أبوك »(٢).

وإذا نظر إلى الحديث السابق نجد أن الرسول الكريم ﷺ يؤكد على بر الأم قبل الأب ، وأن بر الأم مقدم على بر الأب ، وعلى نهجه ﷺ أكد الصحابة الكرام هذا النهج بعده ﷺ ، ومن ذلك ما أكده الصحابى الجليل عبد الله بن

---

(١) متفق عليه . انظر شرح السنة للبغوى ١٣/ ١٥ كتاب البر والصلة: باب تحريم العقوق .
(٢) متفق عليه . انظر شرح السنة ١٣/ ٤ كتاب البر والصلة ، باب بر الوالدين .

عباس حبر الأمة وفقيهها ، جعل بر الوالدة أقرب الأعمال إلى الله ﷻ ، فقد جاءه رجل فقال: إنى خطبت امرأة فأبت أن تنكحنى ، وخطبها غيرى فأحبت أن تنكحه ، فغرت عليها ، فقبلتها فهل لى من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا قال : تب إلى الله عز وجل ، وتقرب إليه ما استطعت.

قال عطاء بن يسار- راوى هذا الحديث- عن ابن عباس ، فذهبت ، فسألت ابن عباس : لم سألته عن حياة أمه؟ فقال: إنى لا أعلم عملا أقرب إلى الله ﷻ من بر الوالدة[1]. ويقدم الإمام البخارى وهو أشهر من كتب فى حديث الرسول ﷺ وجمع فى كتاب « الأدب المفرد » يقدم باب بر الأم على باب بر الأب متماشيا فى ذلك مع الهدى النبوى الشريف.

ويذكر القرآن المرأة ببر والديها عن طريق ما وضع الخالق من فطرة ومشاعر الأمومة . فجاءت الوصية تذكيرا بالحمل والرضاعة ومشقة الحمل والرضاعة ، وما فيهما من بذل وعطاء وسخاء وحب فيقول عز وجل فى كتابه الكريم: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ ﴾ [لقمان: ١٤] وهنا يأتى بر الوالدين على شكل شكر واجب- عندما يقول: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ فشكر الله ﷻ مقترن بشكر الوالدين ، والوالدان يشكران على ما قدما لابنهما أو ابنتهما من خير يأتى بعد شكر الله ﷻ ، وهذا الشكر يعد رأس الفضائل ، ورأس الأعمال الصالحة ، فأى مكانة تلك التى وضع الإسلام فيها الوالدين ، وأى منزلة رفيعة هى التى توهب للبار بوالديه وللبارة بوالديها، إنه الإسلام بسموه ورفعة تشريعه ولسخائه وعطائه ، وشمول تشريعاته العظيمة فى كل سبل الحياة.

وفى مشهد عظيم يراه عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما: إذ

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ١/ ٤٥ باب بر الأم .

يرى رجلا يمانيا يطوف بالبيت الحرام ، يحمل أمه ويقول : إنى لها بعيرها المذلل ، وقد حملتها أكثر مما حملتنى ، أترانى جزيتها يا ابن عمر ؟ فأجابه لا ولا بزفرة واحدة !![1] . أما عمر بن الخطاب- رضى الله عنه - فله شأن آخر فقد كان يسأل الجنود الفارين من اليمن كلما رآهم سؤالا واحدا هو : أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس ، فقال : أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم ، قال : من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم ، فقال عمر : فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟ قال: نعم قال : لك والدة؟ قال أويس: نعم ، فقال عمر ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن ، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة ، هو بر بها ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل » فاستغفر لى : فاستغفر له ، فقال عمر ﷺ : أين تريد؟ قال: الكوفة ، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون فى غبراء الناس أحب إلى[2] .

فأى مقام بلغه أويس القرنى ببر والدته- حتى أن رسول الله ﷺ أوصى صحابته أن يلتمسوا دعاءه! وما أجمل أن تبر المرأة المسلمة والديها حتى وإن كانت فى بيت زوجها راضية هانئة ، منصرفة إليه وإلى حقوقه ، مهتمة بذريتها وأطفالها الصغار ، فلا يشغلها كل هذا عن بر والديها ، ولا يقلل من اهتمامها بهما والإحسان إليهما فى كل شأن ، فتسارع إلى برهما ، وتتفقد أحوالهما بانتظام ، وتحسن إليهما مسرعة مهما كلفها ذلك من جهد ووقت ، بل وما استطاعت إليه سبيلا.

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ١/ ٦٢ باب جزاء الوالدين .

(٢) انظر : صحيح مسلم ١٦/ ٩٥ كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أويس القرنى ، وانظر كتابنا : الزهد والزهاد الثمانية فى سلسلة عصر التابعين .

أسباب الوصية بالبر والإحسان بالوالدين :

إن الوصية ببر الوالدين والإحسان إليهما وجعلهما فى منزلة تلى عبادة الله مباشرة ، كما جعل الله ﷻ منزلتهما بعد منزلة صلاة الفرض ، وقبل صلاة التطوع والجهاد فى سبيل الله ، كل هذا كانت له أسباب كثيرة أهمها:

١- أن الله ﷻ أنعم على الإنسان بنعمة الخلق والإيجاد فى هذه الحياة ، والأبوان هما مظهر هذه النعمة ، فإنهما من بين الوالدين نشأت ، ومنهما ابتدأت ، وعلى يديهما ظهرت.

٢- الأبوان قد بذلا جهدا جبارا من أجل الأبناء ، فالأم عانت من الآلام والعذاب ألوانا أثناء الحمل وعند الوضع ، وفى تربيتهم والحفاظ عليهم والقيام بشؤونهم ، وهم صغار ، والعطف عليهم وهم كبار ، والأب عانى الكثير من الكد والكدح والسعى للحصول على المال الذى به يستطيع أن يقوم بالواجب المنوط به تجاه أولاده وزوجته ، ورعايتهم ، والحفاظ عليهم ، والإنفاق عليهم وتعليمهم حتى يصيروا فى سن يعتمدون فيه على أنفسهم « فقد اهتم الآباء والأمهات إذا بأبنائهم اهتماما بالغا ، واعتنوا به عناية صادقة فى تربيتهم ، والقيام بشؤونهم ، أيام كانوا ضعافا عاجزين جاهلين ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ، ولا يقدرون أن يدفعوا عنها ضررا ، إذ كانوا يحوطانهم بالعناية والرعاية ، ويكفلانهم حتى يقدروا على الاستقلال والقيام بشئون أنفسهم »[1]، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض المصاعب والمشاق التى لاقاها الأبوان مع أولادهما فقال سبحانه: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ ﴾ [الأحقاف: ١٥] ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان:١٤] ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٤].

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (١/ ٣٦٦).

٣- أن إنعام الآباء والأمهات يشبه إنعام الله ﷻ من حيث إنهم لا يطلبون مقابلا لرعايتهم لأولادهم ، ولا ينتظرون ثناء ولا ثوابا ولا عطاء من أحد ، بل يفعلون ما يفعلونه مع أولادهم بدافع الفطرة والحنان التى أودعها الله ﷻ فى نفوسهم آمنين أن تثمر هذه الرعاية ، وتلك العطايا ثمارا نافعة لهؤلاء الأبناء فى حياتهم وبعد مماتهم.

٤- أن الله ﷻ لا يمل من إنعامه على عباده ، حتى وإن أتوا بأعظم الجرائم والمعاصى والآثام ، وكذلك بالنسبة للوالدين فهما يبذلان العطايا والرعاية والعطف والحنان للأبناء حتى ولو كانوا عاقين لهم ، غير بارين بهم.

٥- أن الله ﷻ يتقبل العمل الصالح من العبد حتى ولو كان هذا العمل فى منتهى الصغر ، ثم ينميه حتى يصير مثل جبل أحد، وكذلك الآباء يتصرفون فى مال أولادهم بالاسترياح والغبطة راجين من الله ﷻ لهم دائما الزيادة والنمو والبركة.

٦- أن الله سبحانه وتعالى يريد الخير دائما للعبد ، كما يريد له الفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة ، وكذلك الآباء فهم يتمنوا دائما لأولادهم الكمال فى كل شيء ، يرجون لهم المراتب المتقدمة والمنزلة العظيمة(١).

كيفية البر بالوالدين والإحسان إليهما :

إن البر والإحسان للوالدين له مجالات مختلفة ومظاهر متعددة منها :

أولا: لا يتأفف الإنسان منهما ولا ينهرهما : فمن مظاهر برك بوالديك والإحسان إليهما عدم التأفف منهما ، واجتناب نهرهما فى كل الأحوال ، وخاصة وقت كبرهما ، وفى ذلك يقول ﷻ : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

---

(١) البر بالوالدين : د/ أحمد الجمل .

[الإسراء:٢٣] وفى ذلك يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسيره لهذه الآية الكريمة[١]: « ثم يأخذ السياق فى تظليل السياق كله بأرق الظلال ، وفى استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ... ﴾ الآية والكبر له جلاله ، وضعف الكبر له إيحاؤه ».

وقد خص الله سبحانه وتعالى الكبر بالذكر والبيان لأنه فطنة انتفاء الإحسان بما يلقى الوالد من أبيه وأهله من مشقة القيام بشئونهما ومن سوء الخلق منهما[٢] ، ومن ثم فإن الأبناء يحتاجون إلى استجابة وجدانهم بقوة ، لتنعطف على الخلق وتتلفت إلى الآباء والأمهات ، فالوالدان يندفعان بالنظرة إلى رعاية الأولاد إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات ، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء فى الحية فإذا هى فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء فى البيضة فإذا هى قشر ، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق ، وكل عافية وكل جهد ، وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هما شيخوخة فانية ـ إن أمهلهما الأجل ـ وهما مع ذلك سعيدان! فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله . ومن ثم لا يحتاج الآباء توصية بالأبناء ، إنما يحتاج هؤلاء استجاشة وجدانهم بقوة ، ليتذكروا واجب الجيل الذى أنفث رحيقه كله حتى كبر وأدركه الجفاف[٣] .

ويقول أحد المفسرين لهذه الآية[٤]: « ووجه تعدد فاعل: ﴿ يبلغن ﴾ مظهرا دون جعله بضمير التثنية بأن يقال: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ ﴾ الاهتمام بتخصيص كل حالة من أحوال الوالدين بالذكر ، ولم يستغن بإحدى الحالتين

---

(١) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٢٢١) .
(٢) تفسير التحرير والتنوير . ابن عاشور ١٥/ ٦٩ .
(٣) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٢٢١) .
(٤) الطاهر عاشور فى التحرير والتنوير (١٥/ ٦٩).

عن الأخرى لأن لكل حالة بواعث على التفريط فى واجب الإحسان إليهما فقد تكون حالة اجتماعهما عند الابن تستوجب الاحتمال منهما ، لأجل مراعاة أحدهما الذى الابن أشد حبا له دون ما لو كان أحدهما منفردا عنده بدون الآخر الذى ميله إليه أشد ، فالاحتياج إلى ذكر أحدهما فى هذه الصورة للتنبيه على وجوب المحافظة على الإحسان له ، وقد تكون حالة انفراد أحد الأبوين عند الابن أخف كلفة عليه من حالة اجتماعهما ، فالاحتياج إلى: " أو كلاهما " فى هذه الصورة للتحذر من اعتذار الابن لنفسه عن التقصير بأن حالة اجتماع الأبوين أحرج عليه ، فلأجل ذلك ذكرت الحالتان ، وأجدى الحكم عليهما على السواء »[١].

وبعد أن استجاش الله وجدان الأبناء بمشاعر الحب والعطف والحنان نهاهم عن قول الأف للآباء ، كما نهاهم عن نهرهم ، فقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ وهى أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألا يصدر عن الوالد ما يدل على الضجر والضيق ، وما يسىء بالإهانة وسوء الأدب.

وليس المقصود من هذا النهى عن أن يقول الابن أو البنت للوالدين : "أف " خاصة ، وإنما المقصود النهى عن الأذى الذى أقله الأذى باللسان بأوجز كلمة ، وبأنها غير دالة على أكثر من حصول الضجر لقائها ، دون شتم أو ذم ، ففيهم منه النهى مما هو أشد أذى ، بطريق فحوى الخطاب الأولى ، ثم عطف سبحانه وتعالى عن نهى الابن عن أن يقول لوالديه : "أف" النهى عن نهرهما فقال : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ لئلا يحسب أن ذلك تأديب لصالحهما وليس بالأذى والنهر : الزجر ، يقال : نهره ، وانتهره . ثم أمر سبحانه وتعالى الأنبياء بإكرام القول للوالدين فقال: ﴿ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ وهى مرتبة أعلى إيجابية، أن يكون كلامه لهما يشى بالإكرام والاحترام ، والكريم

(١) المرجع نفسه .

من كل شيء الرفيع فى نوعه ، وبهذا الأمر انقطع العذر ، بحيث إذا رأى الولد أن ينصح لأحد أبويه أو أن يحذره مما قد يضر به أدى إليه ذلك بقول لين ، وحسن الوقع[(١)].

ثانيا : التواضع للوالدين ولين الجانب لهما : وتتعدد مظاهر البر والإحسان للوالدين ، فمن ذلك التواضع معهما وخفض الجناح لهما ، وفى ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ .

يقول الأستاذ سيد قطب: « وهنا يشف التعبير ويلطف ، ويبلغ شغاف القلب ، وحنايا الوجدان ، فهى الرحمة ترق وتلطف ، حتى لكأنها الذل الذى لا يرفع عينا ولا يرفض أمرا- وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام »[(٢)].

وهى الرحمة التى تزيل الوحشة من نفسيهما إن صارا فى حاجة إلى معونة الولد ؛ لأن الأبوين يبغيان أن يكونا النافعين لولدهما ، والقصد من ذلك التخلق بشكره على إنعامهما السابقة عليه[(٣)].

ثالثا : النفقة عليهما : ومن مظاهر البر والإحسان بالوالدين النفقة عليهما ؛ وذلك لأن الإنفاق عليهما أمر به سبحانه وتعالى بل وبين أنه من خير ما ينفقه الإنسان . قال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٥] يقول أحد المفسرين[(٤)] عن هذه النفقة المذكورة فى الآية السابقة: « والآية دالة على الأمر بالإنفاق على هؤلاء- أى المذكورين فى الآية الكريمة- والترغيب فيه ، وهى فى النفقة التى ليست من حق المال ،

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٧٠).
(٢) فى ظلال القرآن ٤/ ٢٢٢١.
(٣) التحرير والتنوير للطاهر عاشور (١٥/ ٧٠).
(٤) التحرير والتنوير (٢/ ٣١٨).

أعنى الزكاة ، ولا من حق الذات من حيث إنها ذات كالزوجة ، بل هى النفقة التى من حق المسلمين بعضهم على بعض ، لكفاية الحاجة وللتوسعة ، وأولى المسلمين بأن يقوم بها أشدهم قرابة بالمعوذين منهم ، فمنها واجبة كنفقة الأبوين الفقيرين والأولاد الصغار الذين لا مال لهم ، إلى أن يقدروا على التكسب أو ينتقل حق الإنفاق إلى غير الأبوين وذلك بحسب عادة أمثالهم»[(١)] .

ويقول ابن تيمية عن نفقة الابن على أبويه: « على الولد الموسر أن ينفق على أبيه وزوجة أبيه ، وعلى إخوته الصغار وإن لم يفعل ذلك كان عاقا لأبيه قاطعا لرحمه ، مستحقا لعقوبة الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، والله أعلم »[(٢)] .

وإذا كان الله ﷻ قد بين فى الآية السابقة أن خير النفقة ما كانت على الوالدين ، فإن الرسول ﷺ قد بين فى الأحاديث الشريفة أن الإنسان ماله لأبيه ، ومعنى ذلك أن الابن إذا أنفق من ماله الخاص على والديه فهو فى الحقيقة ينفق عليهما من أموالهما ، وليس له فى هذه الحالة أى فضل عليهما .

فعن جابر ﷺ أن رجلا قال: يا رسول الله إن لى مالا وولدا وإن أبى يريد أن يجتاح مالى - أى يبدده ، ويستولى عليه - قال: « أنت ومالك لأبيك»[(٣)] .

وقال ﷺ : « أفضل كسب الرجل ولده وكل بيع مبرور »[(٤)] .

وعن جابر- رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: « يا رسول الله : إن أبى يريد أن يأخذ مالى ، فقال ﷺ : « اذهب فأتنى بأبيك» . فنزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فقال: إن الله عز وجل يقرؤك السلام ويقول لك: إذا جاءك الشيخ فسله عن شيء قاله فى نفسه ما سمعته أذناه ، فلما جاء

(١) المصدر السابق .
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٤/ ١٠١) .
(٣) أخرجه أبو داود رقم (٣٥٣٠) ، وابن ماجة رقم (٢٢٩١، ٢٢٩٢) ، والإمام أحمد (٢/ ٢٠٤) ، والبيهقى فى السنن الكبرى (٧/ ٤٨٠، ٤٨١) .
(٤) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/ ١٥٤) .

الشيخ قال له النبى ﷺ : « ما بـال ابنـك يشـكوك؟ أتريـد أن تأخـذ مالـه ؟ » فقال : سله يا رسول الله ، أو على نفسى ؟ فقال له النبى ﷺ : « دعنا من هذا أخبرنى عن شيء قلته فى نفسك ما سمعتـه أذنـاك » فقـال الشـيخ : والله يـا رسول الله ، ما يزال الله يزيدنا بك يقينا ، لقد قلت شيئا فى نفسى مـا سمعتـه أذناى ، فقال : « قل أنا اسمع » ، فقلت:

غدوتك مولودا وعلتك يا فعا ... تعل بما أجنى عليك وتنهـــل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتملمـــل
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى فعينى تهمـــل
تخاف الردى نفسي عليك وإنما ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيها أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضـــل
فليتك إذا لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
فأوليتنى حق الجوار ولم تكن ... على بمال دون مالك تبـــخل

فحينئذ أخذ النبى ﷺ بتلابيب ابنه فقال: « أنت ومالك لأبيك »[١].

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن أولادكم هبة الله لكم ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الـذكور﴾ ، فهـم وأمـوالهم لكم إذا احتجتم إليها »[٢] .

وقال ابن قدامة: « فللأب أن يأخذ من مال ولده ما شاء ويمتلكـه ، بشـرط ألا يجحف بالابن ، ولا يضر به ، ولا يأخذ شيئا تعلقت به حاجته »[٣].

---

(١) ذكره السيوطى فى جمع الجوامع رقم (٣٧٨٠)، والهندى فى كنز العمال (٩٢٢٦) .
(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٨٤) والبيهقى فى السنن الكبرى (٧/ ٤٨٠) والسيوطى فى جمع الجوامع رقم (٦٣٤٤) والدر المنثور (٦/ ١٢) .
(٣) المغنى لابن قدامة (٦/ ٣٢٠) .

رابعا : الاستئذان عليهما : ومن مظاهر البر والإحسان بالوالدين فى حياتهما الاستئذان عليهما ، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٥٩] . وقال رجل للنبى ﷺ: أستأذن على أمى؟ قال: « نعم » قال : إنها لا تجد من يخدمها غيرى ؟ قال: « أتحب أن تراها عارية ؟ » قال : لا ، قال: « فاستأذن عليها » .

خامسا : القيام لهما عند قيامهما : ومن مظاهر البر والإجلال والإحسان والانخفاض والامتثال للوالدين القيام لهما عند قدومهما ، وعدم الجلوس إلا بعد قعودهما وهذا من جملة ودهما ، وماذا يفعل ذلك فى جنب كدهما ، وقد ربياه صغيرا وأشهرا أعينهما لحفظه سهرا كثيرا [١] .

وقد روت السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت : ما رأيت أحدا أشبه سمتا ولا هديا برسول الله ﷺ من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ورضى الله عنهما ـ كانت إذا دخلت على النبى ﷺ قام إليها وقبلها وأجلسها فى مجلسه ، وكان النبى ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته فى مجلسها.

سادسا : تجنب التقدم فى المشى عليهما ، أو الدخول أو الخروج أو الجلوس قبلهما ، أو تسميتهما باسمهما : وذلك بأن لا يتقدم الابن عليهما ، ولا يدخل ولا يخرج ، ولا يجلس قبلهما ، فعنى أبى هريرة ﷺ أنه رأى رجلين فقال لأحدهما : ما هذا منك؟ قال: أبى ، فقال : لا تسميه باسمه ، ولا تمشى أمامه ، ولا تجلس قبله.

وعن عبد الرحمن بن محمد بن عبد القارى ، قال: رآنى عمر بن عبد العزيز وأنا أمشى إلى جنب أبى ، فقال : لا تمش إلى جنب أبيك ، وإنما ينبغى لك أن تمشى وراءه ، قال: فإنى أتوكأ على يده ، قال: فهاه [٢] .

---

(١) بر الوالدين : أحمد عيسى عاشور ص ٢١ .
(٢) أخرجه عبد الرزاق فى المصنف رقم (٢٠١٣٤) ، (١٣٨/١١) .

سابعا : المحافظة على سمعتهما ، والحذر من التسبب فى شتمهما : عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه " قيل: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: " يستاب الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه »(١).

ثامنا : السلام عليهما عند الدخول والخروج من عندهما وروى البخارى: أن أبا هريرة كان إذا غدا من منزله لبس ثيابه ، ثم وقف على أمه ، فقال : السلام عليكم يا أمتاه ورحمة الله وبركاته ، جزاك الله عنى خيرا كما ربيتنى صغيرا ، فترد عليه : وأنت يا بنى فجزاك الله عنى خيرا كما بررتنى كبيرة ثم يخرج ، فإذا رجع قال مثل ذلك(٢).

تاسعا : تلبية ندائهما ، والمسارعة لقضاء حوائجهما ، وطاعة أمرهما وتجنب مقاطعتهما ، أو مجادلتهما أو معاندتهما ، أولومهما ، أو السخرية منها ، وتجنب الضحك والقهقهة بحضرتهما ، وتجنب الاعتراض على قولهما ، إلا إذا كان أمرا بمعصية ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِى مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِى ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفًاۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

عاشرا : إدخال السرور على قلبيهما بالإكثار من برهما ، وتقديم الهدايا لهما ، والتودد لهما بفعل كل ما يحبانه ويفرحان به .

حادى عشر : المحافظة على أموالهما وأمتعتهما . وعدم أخذ شيء منهما إلا بإذنهما.

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، باب: لا يسب الرجل والديه ، ومسلم فى الإيمان : بيان الكبائر وأكبرها ، والترمذى فى البر والصلة (١٩٠٢) وابن الجوزى فى البر والصلة ، ص ٥١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (١٢، ١٤) ، وابن الجوزى فى البر والصلة .

ثانى عشر : تفقد موضع راحتهما ، وتجنب إزعاجهما أثناء نومهما أو الدخول عليهما فى غرفتيهما إلا بإذنهما.

ثالث عشر : تجنب مد اليد إلى الطعام قبلهما أو الاستئثار بالطيبات دونهما ، وتجنب الاضطجاع أو مد الرجل أمامهما ، أو الجلوس فى مكان أعلى منهما.

رابع عشر : استشارتهما فى جميع الأمور ، والاستفادة من رأيهما وتجاربهما وقبول نصائحهما .

خامس عشر : الإكثار من الدعاء والاستغفار لهما ، والطلب من الله تعالى أن يجزيهما كل خير ، على فضلهما ، وإحسانهما ، وتربيتهما.

سادس عشر : تجنب الأمور المؤدية إلى العقوق ومنها:

* الغضب منهما ، الإعراض عنهما ، التأنف من قولهما أو فعلهما .
* والتضجر منهما ، ورفع الصوت عليهما ، وقرعهما بكلمات مؤذية أو جارحة.
* الاستعلاء عليهما ـ وجلب الإهانة لهما .
* الحياء من الانتساب لهما لفقرهما ، ونسيان فضلهما .
* وتفضيل غيرهما عليهما .
* ومصاحبة إنسان غير بار بوالديه .

هذه بعض مظاهر بر الوالدين ـ أهديها إليك عسى أن تعين ويعمل بها .

* * *

الوصية الرابعة

وصايا مع الزوج

أولا : أوصيك بحسن اختياره :

لقد كرمك الإسلام أيتها الأخت الفاضلة فأعطاك حق مهم جدا وهو حق اختيار زوجك فأحسني اختياره ؛ ولهذا الحق فى الاختيار نصوص وشواهد لا تنفى سماع النصح وإرشاد الوالدين ، وفى الوقت نفسه لا ترضى الشريعة السمحاء أن يسلب حق اختيارك للزوج لرغبة عند أبيها ، فلا تكره على زواج رجل لا تريده ، ومن ذلك ما جاء فى كتب السنة ، فقد روى البخارى عن الخنساء بنت خدام قالت: إن أبى زوجنى من ابن أخيه ، وأنا لذلك كارهة ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال لى: « أجيزى ما صنع أبوك؟» فقلت: مالى رغبة فيما صنع أبى ، فقال: « اذهبى فلا نكاح له . أنكحى من شئت » فقلت : قد أجزت ما صنع أبى ، ولكننى أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من أمور بناتهم شىء[(١)] .

لقد عرض عليها الرسول ﷺ أن ما صنع أبوها فى البداية ، لكنها عندما أبدت عدم رغبتها فيما صنع الأب ، أعطى لها الحق فى اختيار ما تريد وما ترغبه ؛ لأن الإسلام لا يريد أن يسلب المرأة حقها أو يشق عليها ، فلا تقبل أن تعيش المرأة مع رجل تكرهه ؛ لأن الإسلام يريد أن تكون الأسرة ناجحة مبنية على الكفاءة بين الزوجين ، ولو أن الحياة الزوجية افتقدت الود والحب فإنها ستثمر عقوقا قد يترتب عليها آثاما ومعصية ، وحتى بعد الزواج فإن المرأة إذا رأت أنها لا تستطيع أن تعطى زوجها الحب والمودة ، ويبادلها الزوج هذه المشاعر ، فلها الحق أن تطلب الطلاق ، وبنى ذلك على موقف أقره الرسول ﷺ بوضوح ، عندما جاءته امرأة ثابت بن قيس بن شماس ، جميلة

---

(١) فتح البارى ٩/ ١٩٤ كتاب النكاح : باب إكراه البنت على الزواج ، وابن ماجة ١/ ٦٠٢ كتاب النكاح : باب من زوج ابنته وهى كارهة ، والمبسوط ٥/ ٢ .

أخت عبد الله بن أبى ، فقالت: يارسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « أتردين عليه حديقته » وكان مهرها حديقة ، قالت : نعم . فأرسل رسول الله ﷺ إليه : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة »(١) .

وإذا نظرت كل امرأة ومسلمة فتاة أو أم أو أخت إلى هذا الموقف النبوى الشريف وجدت أن الإسلام قد صان إنسانيتها ، وأعطاها حق اختيار الزوج وحفظ كرامتها ، باحترامه لإرادتها فى هذا الاختيار ، وأن الإسلام لم يرخص لأحد مهما كان أمره أن يكره مسلمة على الزواج من رجل لا تريده ، ولذلك شرع المسلمون فى عصر النبى ﷺ لتطبيق هذا الحق فى اختيار الزوج وعدم إكراه المرأة المسلمة على الزواج من رجل لا تريده ، وهناك موقف رائد للسيدة عائشة - رضى الله عنها - فى هذا الشأن عندما أكره عتبة بن أبى لهب جارية له يقال لها : بريرة على الزواج من عبد اسمه مغيث ، وما كانت بريرة لترضاه زوجا لها ، لو كان أمرها بيدها ، فأشفقت عليها السيدة عائشة فاشترتها وأعتقتها حتى تعطيها حق الرفض والامتناع عما تكرهه . جاء ذلك فى حديث عن ابن عباس- رضى الله عنهما: أن زوج بريرة كان عبدا يقال له: مغيث ، كأنى أنظر إليه ، يطوف خلفها ويبكى ، ودموعه تسيل على لحيته فقال النبى ﷺ لعباس : « يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ، ومن بغض بريرة مغيثا ؟! » فقال النبى ﷺ لبريرة: « لو راجعته » قالت: يا رسول الله أتأمرنى؟ قال: « إنما أنا أشفع » قالت : لا حاجة لى فيه(٢).

لقد تحرك قلب رسول الله ﷺ لحب عميق من جانب الزوج وكره ونفور من جانب الزوجة ، فحاول الشفاعة بقوله لبريرة: « لو راجعته ». ولكنه لم يأمرها حتى أن بريرة سألت الرسول ﷺ إن كان يأمرها ، وهنا يجب عليها الطاعة ،

---

(١) انظر الفتح ٩/ ٣٩٥ كتاب الطلاق . باب الخلع .
(٢) فتح البارى ٩/ ٤٠٨ كتاب الطلاق : باب شفاعة النبى ﷺ فى زوج بريرة .

وفى الاتجاه الآخر وبعدل نبوى رفيع دقيق النظر يقول ﷺ حتى لا يكره بريرة : « إنما أنا أشفع » وهناك فرق بين الشفاعة والأمر .

وبذلك نتبين أن الإسلام يعطى للمرأة حق الاختيار ولا يكرهها على شيء ، ومع ذلك فقد وضع الإسلام ضوابط أمام عملية الاختيار ، وهذه الضوابط تنحصر أساسا فى الدين والخلق ، وتأتى بعد ذلك مسائل أخرى منها الثروة والمال ، وجمال المنظر وأناقة المظهر ورفعة المنصب والجاه .

هذه ضوابط أقرها الإسلام واتجه إليها المجتمع الإسلامى فى عصر النبى ﷺ لتطبيقها- وانحصرت فى قول النبى ﷺ : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »[1].

فعليك أيتها الفتاة ألا تعجبى وتختارى إلا شابا تجدين فيه الإيمان والجدية والعلم ، النقاء والطهر الحسن الدين والخلق والسيرة ، فأنت مسلمة مؤمنة إن شاء الله لا يليق بك إلا الشاب المسلم المؤمن حسن السيرة ، وقد حدد القرآن هذه العلاقة بوضوح شديد ، فى أن الطيب للطيب والخبيث للخبيث ، فتاة وشابا رجلا وامرأة فى قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ﴾ [النور: ٢٦].

ونعود للاختيار الصحيح فى الإسلام ، فنجد فى قصة أم سليم بنت ملحان وأبى طلحة الأنصارى مثلا عظيما لهذا الاختيار ، فالسيدة أم سليم امرأة من الأنصار أسرعت إلى الإسلام ، وكانت متزوجة من مالك بن النضر وأنجبت منه ابنها أنس خادم الرسول ﷺ ، ولما أسلمت امتعض زوجها مالك من إسلامها ، وتركها مغاضبا ، وأصرت هى على إسلامها ، وجاءها بعد ذلك خبر وفاته ، وكانت فى صباها وريعان شبابها ، فاحتسبت ذلك كله فى

---

(١) حديث حسن : رواه الترمذى ٢/ ٢٧٤ أبواب النكاح (٣) ، وابن ماجة ١/ ٦٣٣ كتاب النكاح : باب الكفاءة .

سبيل الله ، وانصرفت إلى ولدها أنس ، وكان عمره عشر سنوات ، فجعلته فى خدمة النبى ﷺ .

وتقدم للزواج منها شاب من خيرة شباب المدينة فتوة وثراء وقوة وهو أبو طلحة ، قبل أن يسلم ، وكان فتى أحلام كل بنات المدينة لفتوته وشبابه وكثرة ماله(١) .

وظن أبو طلحة أن أم سليم ستقبل عليه بلا تردد ، بل ستطير فرحا عندما يتقدم إليها ، وما إن تقدم إليها حتى سمع كلاما غير الذى كان متوقعا لم يحسب حسابه أبدا ، فقد قالت له: يا أبا طلحة ألست تعلم أن إلهك التى تعبد إنما هو شجرة مما تنبت الأرض ، وإنما نجرها حبشى بنى فلان؟ قال: بلى ، قالت: أما تستحى أن تسجد لخشبة تنبت من الأرض ، نجرها حبشى بنى فلان.

ولكن أبا طلحة كابر ، ولوح لها بالمهر الغالى والعيش الرغد ، ولكنها أصرت على موقفها ، وصارحته قائلة: والله يا أبا طلحة ما مثلك يرد ، ولكنك رجل كافر ، وأنا امرأة مسلمة ، ولا يحل لى أن أتزوجك ، فإن تسلم فذاك مهرى ، ولا أسألك غيره(٢) .

وكرر أبو طلحة محاولته فعاد يعرض عليها مهر أكبر ومال كثير يمنيها به إلا أن أم سلمة ثبتت على موقفها ، وتمسكت بشروط الاختيار الإسلامى رغم وسامة وثراء وفتوة أبى طلحة ، هذه الشروط هى دينه أولا ، وخلقه ثانيا.

وعلى الجانب الآخر فقد كان تمسك أم سليم بدينها وبشرطها يزيدها جمالا وجاذبية وحبا فى عين أبى طلحة ، فقد رأى أمامه امرأة ليست جميلة فحسب ولكنها رصينة حكيمة حصيفة الرأى والإرادة وكانت تعيد قولها موضحة ما هو فيه من جاهلية ، فتقول : أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم التى تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار؟ وأنكم لو أشعلتم فيها النار لاحترقت ؟ عندئذ

---

(١) انظر القصة فى كتابنا حياة الصحابيات . دار اليقين . مصر .

(٢) أخرجه النسائى بإسناد صحيح ٦/ ١١٤ كتاب النكاح : باب التزويج على الإسلام .

اهتزت مشاعر أبى طلحة وتحركت أحاسيسه ، وتحرك الماء الراكد فى فكره ، وحركته مناقشة أم سليم العقلانية ، بل الإيمانية ، فراح يسأل نفسه: هل يحترق الرب؟ حتى انطلق لسانه مرددا : أشهد أن لا إله إلا الله . وأن محمدا رسول الله.

والآن جاء دور أم سليم ، فقد حقق الرجل هدفها ، واستوفى شرطها ، فاستدعت ابنها أنس بن مالك ، وقد ملأت الفرحة قلبها ، وغشيت السعادة كيانها- وقالت لأنس ﷺ : قم يا أنس فزوج أبا طلحة . سعد أبو طلحة سعادة بلا حدود ، وأحضر أنس الشهود ، وتم زواج أم سليم بأبى طلحة - رضى الله عنهما.

وكان من سعادة أبى طلحة بهذا الزواج أنه أراد أن يعطى ثروته كلها بل يضعها بين يدى الزوجة المؤمنة أم سليم ، ولكنها ترى الإيمان أكبر من كل عرض الدنيا ، وأن الإسلام أنفس من كل دراهم الذهب والفضة ، فقالت لزوجها فى عفة نفس ، وعزة وكرامة : يا أبا طلحة ، إنى تزوجتك لله ، ولن آخذ صداقا غيره.

إن أم سليم على دراية برفعة ومكانة وسمو ما أخذته من مهر أبى طلحة فقد ظفرت بثواب الطاعة ؛ لأنها تعرف قيمة هداية رجل كأبى طلحة فى حديث رسول الله ﷺ : « لأن يهدى الله بك رجلا خير من أن يكون لك حمر النعم »[١] رضى الله عن أم سلمة ورضى الله عن أبى طلحة .

ثانيا : أوصيك بطاعة زوجك وبره :

ففى بداية الحديث عن طاعة الزوجة لزوجها نمسك بحديث رسول الله ﷺ منهاجا وقدوة والذى يقول فيه: « لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ولو لصلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها »[٢].

---

(١) الفتح ٧/ ٤٧٦ ، كتاب المغازى ، باب غزوة خيبر .

(٢) رواه أحمد والبزار ، ورجاله رجال الصحيح ، انظر مجمع الزوائد ٩/ ٤ باب حق الزوج على المرأة .

إلى هذا الحد من معنى الطاعة دعا الإسلام ورسوله الكريم ﷺ المرأة أن تكون مطيعة لزوجها ، فلكى تكون المرأة مسلمة بحق فعليها أن تكون تطيع زوجها دائما ولكن فى غير معصية ، وأن تبره وتحرص على إرضائه ، وإدخال السرور على نفسه ، ولو كان فقيرا معسرا لا تتزمر من ضيق ذات اليد ، ولا تضيق زرعا بأعمال البيت.

ولنذكر من نساء الصحابة السيدة أسماء بنت أبى بكر الصديق التى كانت تقوم بخدمة زوجها الزبير ، وكان لزوجها فرس ، تسوسها وتحتش لها وتعلفها وتصلح الدلو ، وتعجن ، وتنقل النوى على رأسها من مكان بعيد ، وقد تحدثت عن هذا كله فقالت: « تزوجنى الزبير وما له فى الأرض مال ولا مملوك ، ولا شيء غير فرسه ، قالت : فكنت أعلف فرسه ، وأكفيه مؤونته ، وأسوسه وأدق النوى لناضحه[1] واعلفه ، وأستقى الماء غربه[2] وأعجن ولم أكن أحسن أخبز ، وكان يخبز لى جارات من الأنصار ، وكن نسوة صدق . قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزبير الذى أقطعه رسول الله ﷺ على رأسى ، وهى على ثلثى فرسخ ، قالت : فجئت يوما ، والنوى على رأسى فلقيت رسول الله ﷺ ، ومعه نفر من أصحابه ، فدعانى ، ثم قال : إخ إخ ، ليحملنى خلفه . قالت: فاستحييت ، وعرفت غيرتك (أى غيرة زوجها الزبير) فقال: والله لحملك النوى على رأسك أشد من ركوبك معه ، فقالت : حتى أرسل إلى أبو بكر بعد ذلك بخادم ، فكفتنى سياسة الفرس ، فكأنما أعتقتنى[3] ».

وهنا نجد أن أسماء ضربت المثل وأعطت القدوة لنساء المسلمين فى طاعة الزوج.

---

(١) الناضح هو البعير .

(٢) غربه : دلوه .

(٣) فتح البارى ٩/ ٣١٩ كتاب النكاح ، باب الغيرة .

ونرى فى أسماء بنت أبى بكر- رضى الله عنها - المرأة المسلمة الراشدة المطيعة لزوجها دوما فى غير معصية ، بارة به ، حريصة إلى إرضائه وإدخال السرور على نفسه . ولو كان فقيرا معسرا ، لا تتذمر من ضيق ذات السيد ، ولا تضيق ذرعا بأعمال البيت.

وقد كانت كذلك فاطمة بنت رسول الله ﷺ مثالا للصبر والإحسان والمروءة والمعروف فى خدمة زوجها على بن أبى طالب ﷺ ، على ما كان فيه على بن أبى طالب من قلة دناقة وضنك عيش ، فقد كانت السيدة فاطمة رضى الله عنها تشكو ما تلقى فى يدها من الرحى ، فقال لها زوجها على بن أبى طالب يوما : لقد جاء أبوك بسبي ، فاذهبي إليه فالتمسى واحدة تخدمك ، وذهبت إلى أبيها ولكن الحياء منعها أن تسأل ما جاءت من أجله ، وذهب على فسأله خادما لابنته فاطمة - رضى الله عنها - والحبيبة إلى قلب محمد ﷺ ولكن الرسول العظيم لم يستطع أن يستجيب لأحب الناس إليه ، ويمنع فقراء المسلمين ، وجاء إلى ابنته وزوجها فقال : « ألا أعلمكما خيرا مما سألتمانى ؟ إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا الله ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين ، وكبرا أربعا وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم ». ثم ودعهما ﷺ ومضى ، فبعد أن أمدهما بمداد ربانى يمددهم بالسكينة والطمأنينة ، وينسيهم مصاعب الحياة ومتاعبها .

وظل على ﷺ يردد هذه الكلمات الطيبة التى علمها له رسول الله ﷺ ما عاش ، وقال: فوالله ما تركتهن منذ علمتهن ، وسأله رجل من أصحابه : ولا ليلة صفين؟ فقال : ولا ليلة صفين(١) .

وقد دعا الإسلام المرأة المسلمة المؤمنة لخدمة بيتها وزوجها ، وهذا حق لزوجها عليها ، وهو حق كبير بينه رسول الله ﷺ فقال : « لو كنت آمرا أحدا

---

(١) انظر : فتح البارى ٧/ ٧١ كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب على بن أبى طالب ، ومسلم كتاب الذكر والدعاء ١٧/ ٤٥ فى باب التسبيح أول النهار وعند النوم .

أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها »[(١)] . وسألت السيدة عائشة رسول الله ﷺ : أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال: « زوجها » قالت: فأى الناس أعظم حقا على الرجل ؟ قال: « أمه »[(٢)].

وجاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ لحاجة ، فلما فرغ من حاجتها ، قال : « أذات زوج أنت» قالت: «نعم . قال : فكيف أنت له ؟ » قالت : ما آلوه[(٣)] إلا ما أعجز عنه ، قال: « انظرى أين أنت منه ، فإنه جنتك ونارك »[(٤)]. إذن فالوصية الآن واضحة بينة ، فهل لك أيتها الأخت المسلمة وأنت تسمعين هذا الهدى النبوى الشريف أن تمتنعى أو حتى تتأففى من خدمة زوجك وبيتك ؟ إنك حرية بأن تنهضى بمسؤوليات بيتك ، وترعى حق زوجك عليك ، وأنت سعيدة مطمئنة بطاعة عظيمة كهذه.

وكان الصحابة ﷺ ينفذون هذا التوجيه النبوى الشريف وكذلك من جاء بعدهم . فكانوا يقدمون الهدى كنصيحة ، ومن ذلك ما أورده ابن الجوزى فى كتابة أحكام النساء من أن رجلا صالحا صواما قواما من رجال القرن الثانى الهجرى ، ويدعى شعيب بن حرب ، أراد أن يتزوج امرأة ، فقال لها تواضعا: إنى سيئ الخلق ، فقالت له بلباقة وفطنة وحسن خلق : أسوأ منك خلقا من أحوجك أن تكون سيئ الخلق ، فأدرك أنه أمام امرأة راشدة ذكية ناضجة ، فقال من فوره : إذا أنت امرأتي.

وإذا عرفت كل امرأة مسلمة أن طاعتها لزوجها مما يدخل الجنة ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ، وبين أن من أبرز وجوه طاعة المرأة لزوجها وبرها به استجابتها لرغباته الخاصة المشروعة التى فيها الاستمتاع بالحياة الزوجية

---

(١) حديث حسن صحيح : رواه الترمذى ٢/ ٢١٤ فى أبواب الرضاع : ١٠.
(٢) رواه البزار بإسناد حسن . انظر مجمع الزوائد ٤/ ٣٠٨ باب حق الزوج على المرأة .
(٣) أى : ما أقصر فى حقه .
(٤) رواه أحمد والنسائى بإسناد جيد ، ورواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، وانظر الترغيب والترهيب للمنذرى ٣/ ٥٢ كتاب النكاح .

على أكمل وجه وأتم صورة فى المعاشرة والزيارات والمأكل والملبس والحديث وما إلى ذلك من وجوه الحياة الزوجية ، وكلما كثرت استجابتها له فى مثل هذه الأشياء ازدادت حياتها سعادة وصفاء وهناءة ، وكانت أقرب إلى روح الإسلام وهديه.

وقد أخبر رسول الله ﷺ بهذا كله فى أحاديث عدة منها:

* قوله ﷺ : « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها وأطاعت زوجها ، وحفظت فرجها ، قيل لها : ادخلى الجنة من أى الأبواب شئت »[(١)].

* وعن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة »[(٢)].

* وقد وصف رسول الله ﷺ الزوجة الصالحة بأنها الودود والسمحة الحسنة الخلق ، فى قوله ﷺ : « ألا أخبركم بنسائكم فى الجنة ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله . قال: « ولود ودود ، إذا غضبت، أو أسيء إليها أو غضب زوجها ، قالت:هذه يدى فى يدك ، لا أكتحل بغمض حتى ترضى »[(٣)].

* ولتعلم المرأة المسلمة أنه كما وعدت بالجنة عند طاعة زوجها ، فإنها فى خطر المعصية - معصية الزوج- قد عرضت نفسها للسخط ولعنات الملائكة كما جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: « إذا دعا الرجل امراته إلى فراشه فلم تأته ، فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح »[(٤)].

---

(١) رواه أحمد والطبرانى ، ورواته ثقات . انظر مجمع الزوائد ٤/٣٠٦ باب حق الزوج على المرأة .

(٢) رواه ابن ماجة ١/ ٥٩٥ كتاب النكاح : باب حق الزوج على المرأة ، والحاكم ٤/ ١٧٣ كتاب البر والصلة ، وقال صحيح الإسناد .

(٣) رواه الطبرانى ورواته محتج بهم فى الصحيح . انظر مجمع الزوائد ٤/ ٣١٢ .

(٤) انظر الفتح ٩/ ٢٩٤ كتاب النكاح ، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ، وصحيح مسلم ١٠/ ٨ كتاب النكاح : باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها .

* وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: « والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه ، فتأبى عليه ، إلا الذى كان فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها»[١].

* وهنا نجد أن اللعنة قد حلت على امرأة نافرة ناشزة شرسة ، ولم تنج منها المتثاقلات المتباحثات عن أزواجهن المسوفات : « لعن الله المسوفات التى يدعوها زوجها إلى فراشه ، فتقول : سوف ، حتى تغلبه عيناه »[٢].

والدعوة إلى الفراش إحصان للرجل والمرأة ، فكيف لا تحصن النساء فروجهن من حلالها الذى أحله الله لها ، ولذلك فلزاما على المرأة أن تستجيب لرغبة زوجها إذا سألها نفسها لتروى ظمأه وظمأها ، ولا تتذرع بأسباب واهية ترهبا من هذه الدعوة.

وفى هذا الجانب وردت أحاديث كثيرة تحض على الاستجابة إذا لم يكن هناك مانع رئيسى كالحيض أو عذر قهرى لا سبيل إلى منعه ، وقد شددت السنة النبوية المشرفة على هذا الأمر لتحمى الأسرة المسلمة من الفتنة وتثبت فيها روح الطمأنينة والطهر والعفاف.

وقد تحدث الرسول ﷺ فى ذلك فقال ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلتجب ، وإن كانت على ظهر قتب »[٣].

وقال ﷺ : « إذا دعا الرجل زوجته لحاجته ، فلتأته وإن كان على التنور»[٤].

(١) صحيح مسلم ١٠/ ٧ كتاب النكاح : باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها .

(٢) حديث صحيح رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير . انظر مجمع الزوائد ٤/ ٢٩٦ باب فيمن يدعوها زوجها فتعتل .

(٣) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح ، انظر مجمع الزوائد ٤/ ٣١٢ .

(٤) حديث حسن صحيح : رواه الترمذى ٢/ ٣١٤ أبواب الرضاع (١٠) ، وابن حبان فى صحيحه ٩/ ٤٧٣ كتاب النكاح .

إن إحصان زوجك أيتها الأخت المسلمة هو مسؤولية مشتركة بينك وبين زوجك ، ففيه إبعاد عن الفتنة ، وهو يعد من أهم مسئوليات المرأة ، ففى إحصان زوجك إحصان لك نقاء وطهر وحماية من الفتنة والتطلع إلى اللذة الحرام ـ وقد تحسس الإسلام مشاعر المسلم والمسلمة وخفف عنهما ضغوط الفتنة ، واحترم بشريتهما فى حديث للرسول ﷺ قال: « إذا أحدكم أعجبته امرأة ، فوقعت فى قلبه ، فليعمد إلى امرأته فليواقعها ، فإن ذلك يرد ما فى نفسه »(١).

وإذا عرفت أيتها الأخت المسلمة أن المرأة الساخط عليها زوجها لا تقبل لها صلاة ، ولا ترتفع لها إلى السماء حسنة ، حتى يرضى عنها زوجها ، وذلك فى حديث رسول الله ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يقبل لهم صلاة ، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة : العبد الآبق حتى يرجع إلى مواليه ، فيضع يده فى أيديهم ، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى ، والسكران حتى يصحو »(٢).

ولا أعتقد أن يسخط الزوج على زوجته إلا إذا كان محقا فى هذا ، أما إذا كان جائرا أو ظالما فليس من حقه السخط على زوجته ، حتى وإن سخط وهو جائر أو ظالم فإن الله لا يضر المرأة ، بل يحتسب ، صبرها عند الله وتثاب على ذلك ، ولقد حدد الإسلام ورسوله الكريم ﷺ أمورا لا يحل للزوجة أن تأتى بها ويكرهها زوجها ، فقد قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن فى بيت زوجها وهو كاره ، ولا تخرج وهو كاره ، ولا تطيع فيه أحدا ، ولا تعزل فراشه ، ولا تضربه ، فإن كان هو أظلم فلتأته حتى ترضيه ، فإن قبل فبها ونعمت ، وقبل الله عذرها ، وأفلج حجتها ولا إثم عليها ، وإن هو لم يرض ، فقد أبلغت عند الله عذرها »(٣).

---

(١) صحيح مسلم ٩/ ١٧٨ كتاب النكاح ، باب ندب من رأى امرأة فوقعت فى نفسه إلى أن يأتى امرأته .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه ١٢/ ١٧٨ كتاب الأشربة ، (٢) فصل فى الأشربة .

(٣) رواه الحاكم ٢/ ١٩٠ كتاب النكاح ، وقال : صحيح الإسناد ، وقوله : " أفلج حجتها " بمعنى أظهرها وقواها .

والزوجة تطيع زوجها فى رعاية أولاده ، وقد كانت نساء قريش ، وهن من نساء العرب الكريمات اللائى ملأن الدنيا حنانا على والدهن ، وفى رعايتهن لأبنائهن رعاية وطاعة ، فشهد لهن بذلك رسول الله ﷺ ، ليدعو كل امرأة مسلمة بالاقتداء بهن فى حنوهن على أولادهن وفى رعايتهن لأزواجهن ، فقال ﷺ : « خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناء على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات اليد »(١).

وقد ذكرنا من نساء قريش اللائى اتصفن بهاتين الصفتين العظيمتين فاطمة بنت محمد- رضى الله عنها - القرشية الهاشمية ، وأسماء بنت أبى بكر التيمية ونذكر أيضا السيدة عائشة - رضى الله عنها - فقد كان فى رعايتها لزوجها الصادق الأمين ﷺ أسوة حسنة لنساء المسلمين جميعا فى رعايتها للنبى ، فقد كانت ترافقه فى حجه ﷺ ، وتحيطه بعنايتها ورعايتها ، فتطيبه قبل إحرامه ، وبعد إحلاله قبل أن يطوف طواف الإفاضة ، وذلك ما ذكرته رضوان الله عليها تقول :طيبت رسول الله ﷺ بيدى لحرمه حين أحرم ، ولحله حين أحل قبل أن يطوف بالبيت(٢).

وتقول أيضا إنها طيبت رسول الله ﷺ بأطيب ما وجدت من أنواع الطيب فعن عروة بن الزبير قال : سألت عائشة - رضى الله عنها : بأى شيء طيبت رسول الله ﷺ عند حرمه ؟ قالت : بأطيب الطيب (٣) .

وفى رواية لمسلم عن عائشة أيضا: طيبت رسول الله ﷺ لحرمه حين أحرم ولحله قبل أن يفيض بأطيب ما وجدت(٤) .

ومما تقتدى به نساء المسلمين فى رعاية الزوج من أم المؤمنين عائشة -

---

(١) صحيح مسلم ١٦/ ٨١ كتاب فضائل الصحابة ، باب نساء قريش .
(٢) صحيح مسلم ٨/ ٩٨ كتاب الحج ، باب استحباب الطيب قبل الإحرام .
(٣) رواه مسلم ٨/ ١٠٠ كتاب الحج ، باب استحباب الطيب قبل الإحرام .
(٤) المصدر السابق نفسه .

رضى الله عنها - أنه كان إذا اعتكف الرسول قرب رأسه ، فترجله السيدة عائشة وتغسله ، وذلك ما وردت رضوان الله عليها فقالت : كان الرسول ﷺ إذا اعتكف يدنى رأسه فأرجله ، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان[١] .

وقولها : كنت أغسل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض[٢] .

وتتوجه أم المؤمنين - رضوان الله عليها - بالحديث مباشرة لنساء المسلمين فتقول : يا معشر النساء لو تعلمن بحق أزواجكن عليكن لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمى زوجها بحر وجهها[٣] .

وقد أوصت نساء العرب الفصيحات الحكيمات بناتهن بوصايا عظيمة فى طاعة أزواجهن وكيفيتهما وهن فى جلوة العروس مقبلات على أزواجهن والحياة الزوجية ، ومن هؤلاء النساء : أمامة بنت الحارث الفصيحة البليغة صاحبة الرأى والعقل ، فقد وصت ابنتها وهى على أبواب الزواج وصية خالدة ، تتناقلها كتب السير ، فقال الراوى وهو عبد الملك بن عمير القرشى: لما زوج عوف بن محلم الشيبانى ، وكان سيدا مطاعا من أشراف العرب فى الجاهلية ، ابنته أم إياس من الحارث بن عمرو الكندى ، فجهزت وحضرت لتحمل إليه ، دخلت عليها أمها أمامة لتوصيها فقالت: « يا بنية ، إن الوصية لو تركت لفضل فى الأدب ، أو مكرمة فى الحسب لتركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل . أى بنية ، لو استغنت المرأة عن زوجها بغنى أبيها وشدة حاجتها إليه ، لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء خلقن للرجال ، كما لهن خلق الرجال . أى بنية ، إنك قد فارقت الجو الذى منه خرجت والعش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ،

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ٢٠٨ كتاب الحيض : باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله .

(٢) فتح البارى ١/ ٤٠٣ كتاب الحيض : باب مباشرة الحائض ، وصحيح مسلم ٣/ ٢٠٩ كتاب الحيض . باب جواز غسل الحائض رأس زوجها .

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه والبزار بإسناد جيد .

فأصبح بملكه عليك مليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبدا . احملى عنى خصالا عشرا ، تكن لك ذخرا وذكرا:

أما الأولى والثانية: فالصحبة له بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، فإن القناعة راحة القلب ، وفى حسن السمع والطاعة رضا الرب .

أما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع أنفه ، والتعهد لموضع عينه ، فلا تقع عينه منك على شيء قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، وإن الكحل أحسن الحسن الموجود ، والماء أطيب الطيب المفقود .

أما الخامسة والسادسة: فالتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة.

أما السابعة والثامنة: فالإرعاء على حشمه وعياله ، والاحتفاظ بماله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على الحشم والعيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تفشى له سرا ، ولا تعصى له أمرا ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، فإن عصيت أمره أوغرت صدره .

ثم اتقى يا بنية الفرح لديه إذا كان ترحا ، والاكتئاب إذا كان فرحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير .

وكونى أشد ما تكونين له إعظاما ، يكن أشد ما يكون لك إكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة.

واعلمي يا بنية أنك لن تصلى إلى ما تحبين منه حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت ، والله يخير لك ويحفظك(١) .

ويوصيك الإسلام يا أختاه فى طاعة زوجك أنك إن كنت ميسورة الحال

---

(١) انظر جمهرة خطب العرب ١/ ١٤٥ .

غنية المال فعليك بعطاء زوجك ، وإن كان معسرا ، فيكون بذلك أجران عند الله أجر القرابة وأجر الصدقة ، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ فى حديث امرأة[١] عبد الله بن مسعود - رضى الله عنهما - قالت : قال رسول الله ﷺ : « تصدقن يا معشر النساء ، ولو من حليكن » قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود ، فقلت : إنك رجل خفيف ذات اليد وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فائته ، فاسأله ، فإن كان ذلك يجزى عنى ، وإلا صرفتها إلى غيركم ، فقال عبد الله : بل ائته أنت ، فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ مثل حاجتها حاجتى ، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة ، فخرج علينا بلال ﷺ فقلنا له : ائت رسول الله ﷺ ، فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك : أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام فى حجورهما ؟ ولا تخبره من نحن قالت : فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله فقال له رسول الله ﷺ : « من هما » ، فقال : امرأة من الأنصار وزينب ، فقال رسول الله ﷺ : « أى الزيانب » قال: امرأة عبد الله بن مسعود فقال رسول الله ﷺ : « لهما أجران أجر القرابة وأجر الصدقة »[٢].

وفى رواية للبخارى: « زوجك وولدك أحق من تصدقك به عليهم »[٣].

والزوجة المسلمة وفية لزوجها تعترف بفضله وتذكر شمائله دائما ولا تكون مثل ناكرات العشير ، ففى الحديث الذى رواه الشيخان عن ابن - عباس رضى الله عنهما- أن النبى ﷺ قال: « يا معشر النساء تصدقن ، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ، فقلن: وبم ذاك يارسول الله ، قال: « تكثرن اللعن

---

(١) وهى زينب الثقفية . انظر فتح البارى ٣/ ٣٢٨ ، كتاب الزكاة ، وصحيح مسلم ٧/ ٨٦ كتاب الزكاة . باب الزكاة على الأقارب .

(٢) انظر الفتح : ٣/ ٣٢٨ كتاب الزكاة ، باب الزكاة على الزوج والأيتام فى الحجر، ومسلم ٧/ ٨٦ كتاب الزكاة ، باب الزكاة على الأقارب .

(٣) انظر الفتح : ٣/ ٣٢٥ كتاب الزكاة ، باب الزكاة على الأقارب.

وتكفرن العشير »[١]، وفى رواية للبخارى أيضا : « يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، ولو أحسنت إلى أحدهن الدهر ، ثم رأت منك شيئا ، قالت : ما رأيت منك خيرا قط »[٢].

وفى رواية للإمام أحمد : قال رجل : يا رسول الله أولسن أمهاتنا وأخواتنا وأزواجنا ؟ قال:« بلى ولكنهن إذا أعطين لم يشكرن وإذا ابتلين لم يصبرن»[٣] .

وقد ضربت أسماء بنت عميس - رضى الله عنها - المثل فى الوفاء وعدم نكران عشرتها مع أزواجها ، فأسماء من السابقات إلى الإسلام تزوجت جعفر بن أبى طالب ، فلما استشهد فى مؤتة ، تزوجها أبو بكر الصديق من بعده ، ثم خلفهما على- رضى الله عنهم أجمعين- فتفاخر مرة ولداها محمد ابن جعفر ومحمد بن أبى بكر ، كل يقول : أنا أكرم منك ، وأبى خير من أبيك فقال لها على ﷺ : اقضى بينهما يا أسماء ، فقالت : ما رأيت شابا من العرب خير من جعفر ولا رأيت كهلا خيرا من أبى بكر . فقال على ما تركت لنا شيئا ولو قلت غير الذى قلت لمقتك! فقالت أسماء: إن ثلاثة أنت أقلهم لخيار[٤].

فكان وفاء أسماء عظيما لزوجها جعفر ولزوجها أبى بكر ولم تنس عليا ﷺ ، فكانت مثلا يقتدى به وأسوة حسنة تتبع فى وفائها لزوجها .

والوصية هنا أن عشرة الزوج لابد وأن يكون فيها أياما سعيدة ذاق الرجل من عسيلة زوجته وكذلك المرأة ، فلا يجوز أن تنكر المرأة فضل زوجها ولا أن تخفى شمائله ، بل تنوه بفضائله وتنشر محاسنه ، وفى ذلك طاعة مثلها مثل ذكر الله ﷻ .

---

(١) الفتح ٣/ ٣٢٥ كتاب الزكاة .

(٢) الفتح ١/ ٨٣ باب كفران العشير .

(٣) رواه أحمد ٣/ ٤٢٨ ، ورجاله رجال الصحيح .

(٤) طبقات ابن سعد ٧/ ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

والمرأة المسلمة وفية لزوجها ولأولادها ولأيامها التى عاشتها مع زوجها وللبيت التى جمعهما تحت سقف واحد ، وها نسمع أسماء زوجة أفضل الرجال وأشجع الرجال وهم خيرة المسلمين تمدح جعفر الشهيد وتثنى على أبى بكر الصديق ، وعلى الإمام البليغ صحابة رسول الله وأقاربه وأصهاره - رضى الله عنهم.



توددى لزوجك واحرصى على رضاه

ضربت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها- مثلا عظيما فى التودد إلى زوجها ، وكان ذلك عندما اعتزل النبى ﷺ نساءه شهرا ، ففى يوم من الأيام خرج عمر بن الخطاب إلى المسجد فوجد أن النبى ﷺ لم يخرج يومها للصلاة ، فاستأذن عمر على الرسول ﷺ ، يسأل عن سبب عدم خروجه ليصلى بالناس كعادته ، وكان أبو بكر قد استأذن على النبى ﷺ من قبله ، فلما أذن لعمر ، دخل فوجد أبا بكر عنده ، ووجد النبى ﷺ جالسا ، ساكتا ، واجما ، ومن حوله نساؤه . وأدرك عمر حجم المصيبة ، وأدرك ما بين الرسول ﷺ وزوجاته من خلاف ، وكبر عليه أن تتسبب زوجات الرسول ﷺ ومنهن حفصة ابنته فى إغضابه فقال محاولا إضحاك الرسول ﷺ ، والتسرية عنه : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة (يعنى زوجته) تسألنى النفقة ، فقمت إليها فوجأت عنقها !![1] فضحك النبى ﷺ ، وقال مشيرا إلى زوجاته : « هن حولى يسألننى النفقة »، وكان الرسول ﷺ قد قال : « ما أنا بداخل عليهن شهرا» من شدة غضبه وموجدته عليهن . فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها وكلاهما يقول : تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟! فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئا ليس عنده.

ثم كان من عمر ﷺ وأبى بكر بعد ذلك أن قصد كل منهما إلى ابنته يقول لها: قد علمت أن رسول الله ﷺ لا يدخر عنكن شيئا فلا تسألنه مالا يجدى ، انظرى حاجتك فاطلبيها إلى.

لقد رغب الرجلان - رضوان الله عليهما - فى إرضاء النبى ﷺ وأبديا استعدادهما لتلبية متطلبات كل واحدة منهن حتى لا يسألن رسول الله ﷺ ، وقد سعى عمر وأبو بكر بمثل ذلك عند سائر أزواج النبى ﷺ حتى سارا بمثل

---

(١) انظر أزواج النبى ـ عبد المنعم الهاشمى ص ٢٩١ ط مكتبة ابن كثير ـ الكويت .

ذلك إلى أم سلمة فقالت لهما: ما لكما ولما هاهنا! رسول الله أعلى بأمرنا عينا ولو أراد أن ينهانا لنهانا ، فمن نسأل إذا لم نسأل رسول الله؟! . هل يدخل بينكما وبين أهليكما أحد؟! فما تكلفكما هذا ؟! .

ومن أجل هذا الذى كان من زوجات النبى ﷺ بسبب النفقة ، ومن أجل أسباب أخرى كثيرة منها: إفشاء حفصة لسره وعدم كتمانها له ، من أجل هذا كله غضب الرسول ﷺ على نسائه غضبا شديدا ، وأبى أن يأخذهن بالحزم ، ويعاملهن بالشدة وأن يترك اللين جانبا ، ومن ذلك قرر أن يهجرهن شهرا ، فإما عدن إلى رشدهن وتبن إلى عقولهن ، وإلا متعهن وسرحهن سراحا جميلا ، واعتزل الرسول ﷺ نساءه فى خزانة له ذات مشربة ، يرقى إليها على جذع من جذوع النخل ، ويجلس على عتبتها غلام رسول الله ﷺ رباح ، كلما كان محمدا ﷺ بها.

وسرت بين الناس إشاعة تقول : إن رسول الله ﷺ طلق نساءه ، وبلغت الإشاعة عمر فقام من فوره حتى دخل على ابنته حفصة ، فوجدها تبكى ، فسألها بحدة وغضب : لعل رسول الله قد طلقك ؟ ! قالت: لا أدرى . قال : إن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدا . وغادر عمر رضي الله عنه ابنته حفصة تبكى هجر زوج حبيب رفيق بها ، وبسائر نسائه ، بالمؤمنين رءوف رحيم .

ومرت الأيام والنبى معتزل نساءه، قاضى أكثر وقته فى خزانته التى يقف على بابها خادمه « رباح » ونساؤه نادمات على إغضابهن لزوجهن الحبيب الرفيق الكريم ، والناس فى هم وغم وكمد لغضب رسول الله على نسائه ، مشفقين جزعين على مصير أمهات المؤمنين ، وكانوا يجتمعون فى المسجد فيجلسون مطرقين ينكتون الحصى ويقولون : طلق رسول الله ﷺ نساءه . ومضت تسع وعشرون يوما ، وهى المدة التى قرر النبى ﷺ أن يهجرهن فيها ، وكبر الناس ، وابتهجت قلوبهم وعمت نفوسهم الفرحة والسرور ، وبدت عليها بشائر السعادة ومشاعر الفرح ، وتجلى كل ذلك فى تكبيرهم ، وسمعت

أمهات المؤمنين تكبير عمر ، وتكبير المسلمين فعرفن السبب ، وكان أن انشرحت قلوبهن ، وأثلجت صدورهن ، واطمأنت نفوسهن التى كادت أن تذهب خشية ، وأن تتشعب فرقا وخوفا.

واستعدت زوجات الرسول ﷺ لاستقبال زوجهن ، وقد مرت العدة التى قرر النبى ﷺ أن يهجرهن فيها ، وجاء النبى ﷺ إلى زوجاته بما أنزل الله عليه ، لقد أنزل الله عليه بعد هذا الموقف قرآنا عظيما يخير نساءه فيه بين الدنيا وبين الله ورسوله والدار الآخرة فقال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

وتخيرت زوجات الرسول ﷺ جميعا الله ورسوله والدار الآخرة واستبشرن بما أعد الله لهن من أجر عظيم إن شاء الله(١).

كان قد مضى على هذا الأمر تسعة وعشرون يوما بعدها دخل رسول الله ﷺ على عائشة- رضى الله عنها . وكان الرسول ﷺ قد قال: « ما أنا بداخل عليهن شهرا » من شدة موجدته عليهن.

فلما مضى تسع وعشرون دخل على عائشة - رضى الله عنها - وبدأ بها ، فقالت: إنك أقسمت ألا تدخل علينا شهرا ، وإنا أصبحنا بتسع وعشرين ليلة أعدها عدا . فقال النبى ﷺ : « الشهر تسع وعشرون ليلة » وكان ذلك الشهر تسعا وعشرين(٢).

ونجد فى قول أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها: إنا أصبحنا بتسع وعشرين ليلة ، أعدها عدا ، تعبير موح بتعلق قلب الزوجة المحبة الودود

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٦ .

(٢) انظر الفتح ١١٦/٥ .

بزوجها ، وترقب عودته إليها ليلة ليلة وساعة ساعة وفيه تودد وتحبب واستمالة لقلب الزوج المحب المشتاق ، إذ بدأ بها قبل غيرها من نسائه.

وقد كان تودد المرأة وحبها لزوجها يأتى أحيانا مع أول أيام الزواج إذ كانت حريصة على التودد والحب لهذا الزوج.

فقد روى عن شريح القاضى[١] الفقيه أنه تزوج امرأة من بنى حنظلة وفى ليلة الزواج صلى كل من الزوجين ركعتين ، وسألا الله لهما الخير ، ثم أقبلت الزوجة على شريح قائلة : إنى امرأة غريبة ، لا علم لى بأخلاقك ، فبين لى ما تحب فآتيه ، وما تكره فأبتعد عنه...؟ . ويقول شريح : مكثت معى عشرين سنة ، لم أعتب عليها فى شيء ، إلا مرة واحدة كنت لها ظالما . نعم هذه المرأة الودود البرة بزوجها والتى أوصيك أن تكونى على نهجها ، فأنت تحرصين على أن تكونى أول من يسمعه الكلام الطيب المفرح ، وتمسكين عن الكلام الجارح المؤذى الذى يكدر صفوه ، وتزجين له الأنباء السارة وتخفين أو تمنعين عنه الأخبار المحزنة ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا أو تؤجلينها إلى وقت يناسب يخف فيها وقعه عليه ، وإذا لم تجدى مناصا من إخباره بما يزعجه ويكدر نفسه من أنباء فإنك تتلمسين السبل والأساليب المناسبة للدخول بها على نفسه ، والتمهيد لها ، كيلا يكون وقعها على نفسه شديدا وهذا من حسن التأنى ورجاحة العقل وذكاء التصرف الذى تتحلى به المرأة النابهة الرشيدة.



(١) انظر ترجمته فى كتابنا مشاهير القضاة وسلسلة عصر التابعين دار ابن كثير.

الوصية الثلاثية

أوصيك بثلاث: لا تفشى له سرا ، وشجعيه على الإنفاق فى سبيل الله ، وأعينيه على طاعة الله .

أولا : لا تفشى له سرا :

لو قمت أيتها الأخت الفاضلة بهذه الخصال الثلاث فسترضين ربك قبل إرضاء زوجك ، وفى هذا بناء للأسرة المسلمة ، فالمرأة التقية المؤمنة لا تنشر سر زوجها ، ولا تتحدث على أحد مهما كانت قرابته لها بما يكون بينها وبينه من أعمال وأسرار ، وإذا عرفت أن من يتصف بصفة إفشاء السر هم أشر الناس أو شر الناس لا أظن أنك ستفشين لزوجك سرا لقول رسول الله ﷺ : « إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه »[1].

ولقد حدثت فى بيت النبوة الكريم أن الرسول ﷺ أسر إلى حفصة رضى الله عنها سرا ، فنقلته إلى عائشة ، وأفشى السر ، مما أدى إلى حدوث تآمر ومكائد فى بيت النبى ﷺ حتى اعتزل النبى ﷺ نساءه شهرا من شدة موجدته عليهن ، وفى ذلك يقول رب العزة جل شأنه : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [التحريم: ٣] .

ثم يواجه القرآن الكريم حفصة وعائشة ويدعوهما إلى التوبة ، لتعود قلوبهما إلى الله ، بعد أن خالفت ما نهى عنه رسول الله ﷺ من إفشاء السر ، وإلا فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة فى قوله عز وجل :

---

(١) صحيح مسلم ١٠/٨ كتاب النكاح ، باب تحريم إفشاء سر المرأة ، الترغيب والترهيب ، ٨٦/٣ كتاب النكاح باب الترهيب من إفشاء السر بين الزوجين .

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم: ٤].

ثم يبلغهن عقابه وتهديده لهن إن أصررن على أخطائهن فيقول ﷻ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [التحريم: ٥].

ونجد فى هذا الموقف قيمة عظيمة لخلق حفظ المرأة سر زوجها وأثر هذا الخلق الطيب فى استقرار الأسرة المسلمة ولكى تكون سيرة الرسول ﷺ قدوة وأسوة للمسلمين فقد جعلت فى متناول المسلمين كتابا مفتوحا .

ثانيا : شجعيه على الإنفاق فى سبيل الله :

وإذا أردنا أن نضرب لك المثل أيتها الأخت المسلمة فإننا نستعرض حديث أبى الدحداح الذى حدث به رسول الله ﷺ ، فقال: « كم من عذق رداح لأبى الدحداح فى الجنة . قالها مرارا »[(١)].

وقصة أبى الدحداح تتلخص فى تشجيع زوجته - رضى الله عنها - فقد جاء زوجها أبو الدحداح وقال : يا أم الدحداح لقد تصدقتى بالبستان الذى تسكنيه أنت دعيا لها طمعا فى عذق فى الجنة ـ والعذق من التمر كالعنقود من العنب ـ فكان جوابها : ربح البيع ربح البيع .

فقد وقفت أم الدحداح إلى جانب زوجها تشجعه وتعينه على النفقة فى سبيل الله ، وذلك تشجيع على البذل والعطاء والصدقة والإحسان فى سبيل الله ، ولم تشجعه على التبذير والإسراف وبعثرة المال فى وجوه الترف والسفاهة والخيلاء ، كما تفعل بعض النساء اللاتى يبتعدن عن طاعة الله

---

(١) رواه أحمد والطبرانى ، ورجالهما رجال الصحيح ، وانظر مجمع الزوائد ٩/ ٣٢٤، كتاب المناقب ، باب ما جاء فى أبى الدحداح .

وهدى رسول الله ﷺ ، ولكن المرأة المسلمة حقا المؤمنة صدقا التى تحب لزوجها ولبيتها الخير والبر والفلاح دائما ما تشجع زوجها على الإنفاق فى وجوه البر يقينا بأن هذا الإنفاق يوفى إليهم وهم لا يظلمون ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [البقرة :٢٧٢] .

ثالثا : أعينيه على طاعة الله ﷻ :

قال رسول الله ﷺ : « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ، وأيقظ امرأته فصلت ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت فصلت ، وأيقظت زوجها فصلى فإن أبى نضحت فى وجهه الماء »[1] .

إن من أهم الوصايا التى ننصحك بها أيتها الأخت المسلمة الواعية لدورك المحبة لدينك ، أن تعينى زوجك على الطاعة فى كل أمور الحياة ومن أجل الطاعات التى تضفى دفئا وحبا على الأسرة المسلمة هى قيام الليل،فأنت تقدمى لزوجك عملا عظيما،يكون تقديره لهذا العمل كبيرا ، فأنت إذ تذكريه إذا أغفل وأصابه كسل أو فتور ، وتصورى بحسب ما جاء فى الحديث الشريف أن تكونى سببا فى دخوله وإياك فى رحمة الله ﷻ .

وقد جاء الحديث النبوى الشريف الذى أوردنا سابقا بسلوك رائع رسمه رسول الله ﷺ للزوجة مع زوجها وهو التعاون على الطاعة والتكافل فى تبادل الخير ، وهو السعى إلى الدخول فى رحمة الله سويا . والسعى إلى طاعة الله ، والحرص على أن يكون بيتك وأسرتك مزينا بطاعة الله ، فتنال أسرتك الخير الكثير.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أبو داود ٢/ ٤٥ فى كتاب الصلاة : باب قيام الليل ، والحاكم ١/ ٣٠٩ كتاب صلاة التطوع ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

كونى إلى جواره بالرأى والمشورة

لقد من الله عليك أيتها الأخت المسلمة أن تشاركى زوجك فى عمارة هذا الكون ، فأنت شريكة لزوجك فى تصريف أمور الحياة ، فلا غنى للرجل عنك ، ولا أنت تستغنين عن الرجل ، وقد شرع لكما الإسلام هذا التعاون فجعل لكل منكما دورا مهما وكان رسول الله ﷺ قدوة للمسلمين فى بيته ، فكان عليه السلام يتعاون مع أهله فى شؤون بيته حتى يخرج إلى الصلاة .

وفى ذلك كان رسول الله ﷺ يخيط ثوبه ويخصف نعله ، ويقوم بكل عمل يستطيع أن يعين به أهل بيته حتى يخرج إلى الصلاة وتقول السيدة عائشة –رضى الله عنها: « كان رسول الله ﷺ طرا فى مهنة أهله حتى يخرج إلى الصلاة» (١) .

وقد وعى التاريخ نساء المسلمين وهن واقفات إلى جانب أزواجهن فى الغزوات والمعارك مثل أم عمارة - رضى الله عنها - ووعى التاريخ منهن اللاتى تروى العطاش ، وتأسوا الجراح وترق الدم ، وتثير الحمية كالخنساء أم الشهداء الأربعة والتى جادت بهم أجمعين وقالت : الحمد لله الذى شرفنى بشهادتهم أجمعين (٢) .

ولم تكن المشاركة فى المعارك فقط ، بل كانت المرأة صاحبة رأى ومشورة ، تساند الزوج ، وتشد أزره وليس أدل على ذلك من موقف للسيدة خديجة - رضى الله عنها - والسيدة أم سلمة - رضوان الله عليها - فلكل منهما دور عظيم فى المشورة والرأى السديد فهذه خديجة- رضى الله عنها - تقول لمحمد ﷺ يوم بدأ نزول الوحى: « أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا » ، وهذه أم سلمة تقول لمحمد ﷺ يوم صلح الحديبية: يا رسول الله: اخرج لا تكلم أحدا منهم حتى تنحر بدنك وتحلق.

---

(١) الفتح ٢/ ١٦٢ كتاب الأذان ، باب من كان فى حاجة أهله .

(٢) انظر الخنساء أم الشهداء . عبد المنعم الهاشمى . سلسلة الأمهات ـ دار ومكتبة الهلال ـ بيروت .

وكان لهذه الكلمات النسائية دور عظيم للرأى والمشورة فى تاريخ الإسلام نستقر منه لنتبين موقف كل منهما وأولهما موقف خديجة - رضى الله عنها - فقد جاء واضحا بينا فى رواية الشيخان (البخارى ومسلم) وروته عائشة - رضى الله عنها- فقالت: « كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه وهو التعبد ، الليالى أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى مجيئه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ قلت : « ما أنا بقارئ » ، قال: « فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال: اقرأ ، فقلت: ما أنا بقارئ ، فأخذ يغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ » فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة ، فقال: « زملونى زملونى»[1] ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، ثم قال لخديجة : أى خديجة مالى؟ وأخبرها الخبر ، قال: خشيت على نفسى ، قالت خديجة : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدا ، والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل[2] وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وهون ابن عم خديجة ، أخى أبيها ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية.

وكان يكتب الكتاب العربى ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة: أى عم اسمع من ابن أخيك ، قال ورقة بن نوفل: يا ابن أخى ، ماذا ترى؟ فاخبره رسول الله ﷺ

---

(١) أى غطونى بالثياب ولفوني بها .

(٢) الكل : أى تحمل ثقل الإنفاق على المحتاجين .

خبر ما رآه ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى عليه السلام ، ياليتنى فيها جذعا[١] ، ياليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك ، قال رسول الله ﷺ : « أو مخرجى هم؟ » قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا[٢]. انظرى إلى رجاحة عقل خديجة وصدق تآزرها ، ووفائها وحسن مشورتها ، وجزالة رأيها ، فقد أخذت شمائل الرسول ﷺ واصل الرحم ، وحامل المؤونة للمحتاج ، ومكرم الضيف جعلتها سببا لصدق حجته وسلامة ما جاء به ، وصدق ما حدث به ، وذلك يدل على صاحبة رأى عظيمة ، فقيهة ذكية ، بعيدة النظر ، فطنة زكية ، أدركت بفطنته.

إن وراء هذه الأحداث الصغيرة أمرا سيكون لها شأن عظيم ، ومكانة سامية رفيعة على امتداد الأرض كلها ، فراحت تعضده عليه السلام بالمشورة وتزرع فى نفسه الثقة وتشيع حوله طوقا رقيقا من الأمن والهدوء واليقين ، كانت كلماتها منتقاة ، فأول ما قالت: أبشر- فبشرت ولم تنفره ثم أضافت كلمات حانية استخدمت فيها سلاح العاطفة والدم عندما نادته بلقب: «يا ابن عم » ثم نصحته قائلة : وأثبتت ثلاث كلمات عظيمة منها: البشرى لزرع الثقة والطمأنينة فى« أبشر » ومنها: القربى ومكانتها العظيمة فى « يا بن عم » ، ومنها : الدعوة إلى الثبات والقوة وشد الأزر والتعضيد فى قولها « واثبت ».

نعم ثلاث كلمات قالتها خديجة تدل على رجاحة عقلها وحسن مشورتها فاستهلت جديتها بها وهى: أبشر يا ابن عم ، واثبت . ثم تؤكد صدق يقينها

---

(١) جذعا : شابا قويا .

(٢) انظر الفتح ١/ ٢٣ بدء الوحى ، باب حديث عائشة أول ما بدئ الوحى ، صحيح مسلم ٢/ ١٩٧ كتاب الإيمان : باب بدء الوحى .

فتقول: فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة[١] أى جمال فى الرأى ، وأى صدق هذا التى تتحلى به أم المؤمنين خديجة - بنت خويلد رضوان الله عليها ، وهل هناك قدوة أجل وأرفع درجة من قدوة أمهات المؤمنين ، ومنهن خديجة التى وقفت إلى زوجها محمد ﷺ تسانده ، وتنصره ، وتشد أزره بكل ما تملك بالزواج والصحبة ، وبالمال ، وبرجاحة الرأى ، وبتحمل المشقة والتعب من أجل دعوته . فلقد آمنت خديجة بنت خويلد ، وصدقت بما جاء محمد من الله ، ووازرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله ورسوله ، وصدق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن نبيه ، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بخديجة إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس ، رحمها الله تعالى[٢] .

وانظر فما جزاء هذا كله ، وما الأجر التى تلقته خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها- نظير طاعتها لزوجها والوقوف إلى جواره ، والسهر على راحته وإجزال أحسن النصح والمشورة وتطييب النفس ، لقد كان الجزاء فى حديث متفق عليه رواه أبو هريرة ﷺ فقال : أتى جبريل النبى ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتتك ، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب[٣] .

ذلك هو أجر المرأة المسلمة العاقلة ، الحكيمة ، التى تشير على زوجها فى أوقات صعبة ومواقف يحتاج فيها كل رأى ، فتسدى رأيها على زوجها صائبا فتثاب من الله عز وجل وتبث فى ربوع أسرتها الأمن والطمأنينة.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٤ .

(٢) السيرة ١/ ٢٥٧.

(٣) متفق عليه، انظر شرح السنة ١٤/ ١٥٥ كتاب فضائل الصحابة باب مناقب خديجة .

أما المثل الثانى ، فقد ضربته امرأة عاقلة حكيمة ، إنها واحدة من أمهات المؤمنين التى اتصفت برجاحة العقل وكمال الرأى إنها أم المؤمنين أم سلمة -رضى الله عنها - فقد أبدت فى هذا الموقف رجاحة عقل ورصانة وحكمة ورأى رشيد ، نسوقه كما يلى:

فقد كانت أم سلمة فى صحبة الرسول ﷺ فى العام السادس من الهجرة ، وقد خرج إلى مكة معتمرا ، وقد صدت قريش الرسول وصحبه عن دخول البيت الحرام ، وتم فيها صلح الحديبية بين الرسول ﷺ وقريش ، وفى هذا الصلح نصت شروطه على أن تضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أن من أتى محمدا بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا من المسلمين لم يردوه عليه ، وعلى أن يرجع المسلمون عامهم هذا فلا يدخلون مكة .

وقد كان الرسول ﷺ بنفاذ بصيرته وهداية ربه يعرف أن هذا الصلح رغم ما فيه من شروط مجحفة إلا أنه سيكون فاتحة خير ونصر للإسلام والمسلمين.

أما الصحابة فقد نظروا إلى الإجحاف فى شروط هذا الصلح ، وأن الكثير من شروط هذا الصلح أمليت وكأن قريشا منتصرة عليهم وهم على يقين بنصر الله لهم ، فمنهم من عقب واشتكى وهو عمر بن الخطاب ﷺ الذى جاء أبى بكر الصديق ﷺ متسائلا: أليس برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى ، قال: أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ فحذره أبو بكر قائلا : يا عمر: الزم غرزه (أى الزم أمر رسول الله ﷺ) ، فإنى أشهد أنه رسول الله . قال عمر: وإنى أشهد أنه رسول الله.

ثم مضى عمر بن الخطاب ﷺ فأتى رسول الله ﷺ فسأله مثل ما سأل أبا بكر ، حتى إذا بلغ قوله : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ أجابه الرسول ﷺ :

« أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى »[١]، وهنا أدرك عمر ابن الخطاب ﷺ مدى خطئه عندما اندفع ولم يترو وعارض رسول الله ﷺ حتى أنه كان يقول فيما بعد: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيرا[٢] .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من إبرام عهد الصلح أمر أصحابه أن يقوموا فينحروا ، ثم يحلقوا ، فما قام منهم رجل ، فعل ذلك ثلاث مرات وما منهم من يجيب..!!

فدخل رسول الله ﷺ على زوجته السيدة أم سلمة - رضى الله عنها - فذكر لها ما لقى من الناس . عندئذ بدت حكمة أم سلمة ، ورجاحة عقل أم سلمة ، وجزالة نصحها ، وحسن رأيها فقالت - رضوان الله عليها : يارسول الله ، اخرج لا تكلم أحدا منهم ، حتى تنحر بدنك وتحلق . وقد كان ، فقد أخذ رسول الله ﷺ بمشورتها ، فحلق ونحر ، فلما رأى أصحابه الكرام ذلك هبوا مسرعين متدافعين ، فنحروا وجعل بعضهم يحلق رؤوس بعض ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما وندما [٣] .

وأدرك المسلمون بعد نظر رسول الله ﷺ فى عقد الصلح ، وثابوا على رشدهم ، عندما دخل الناس فى دين الله أفواجا بعد صلح الحديبية ، والذى كان بمثابة فتح عظيم ، إذ دخل فى الدين بعد هذا الصلح عدد كبير من الناس يفوق عدد الذين دخلوا قبل هذا الصلح ، وتشير إلى ذلك سورة الفتح وقد نزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ

---

(١) السيرة ٣/ ٣٣١.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٣١ .
(٣) زاد المعاد ٣/ ٢٩٥ ، وتاريخ الطبرى ١٣٤ .

وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح: ١-٤].

وقد جاء في صحيح مسلم أنه نزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾، وكان الفتح هو صلح الحديبية، فأرسل الرسول ﷺ إلى عمر بن الخطاب ﷺ فأقرأه إياه. فقال عمر: يا رسول الله أوفتح هو؟ قال ﷺ: «نعم». فطابت نفسه ورجع[1].

نعم طابت نفس عمر وتاب عما صدر منه عندما ظن أننا نعطى الدنية في ديننا، فقد كان رسول الله ﷺ بنظره الثاقب يعلم بيقينه أن في هذا الصلح خير عظيم للإسلام والمسلمين.

* * *

---

(١) صحيح مسلم ١٢/ ١٤١ كتاب الجهاد والسير: باب صلح الحديبية.

قبل الوصايا العشرين نموذج وقدوة - زينب بنت محمد وزوجها-

كانت زينب بنت محمد ﷺ وكبرى بناته هى اختيارنا للمثل والقدوة ، قبل الوصايا العشرين الذين سنوصيك بهم كى يحبك زوجك وتحبينه . فانظرى فى سيرة زينب بنت رسول الله ﷺ الوفاء ، وفاء الزوج ، ووفاء الزوجة . الزوج هو أبو العاص بن الربيع ابن خالة زينب ـ فخالتها هالة بنت خويلد هى أم أبى العاص ، زوجها الحبيب وأخت خديجة بنت خويلد الأم العزيزة .

انظرى كيف وقفت خلفه فى محنته . بعد أن كاد إسلامها وشركه يفرقان بينهما فضمته على كتائب المسلمين وآجرته وحمته حينما لجأ إليها فى جنح الظلام ، وكان رد الزوج هو الوفاء لزوجته والحرص عليها والتمسك بها حتى قال عنه صهره رسول الله ﷺ : « حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى ، والله ما زممناه صهرا »[١] . والآن إلى سيرة الزوجة القدوة :

زينب بنت رسول الله ﷺ . بطاقة صغيرة :

قال الذهبى[٢] فى ترجمة زينب بنت رسول الله ﷺ : هى زينب بنت رسول الله ﷺ وأكبر أخواتها من المهاجرات السيدات[٣] ، تزوجها فى حياة أمها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، فولدت له على بن أبى العاص الذى يقال: إن رسول الله ﷺ ردفه وراءه يوم الفتح ، وأظنه مات صبيا[٤] . لم تكن زينب بنت رسول الله ﷺ قد جاوزت العاشرة من عمرها حين رنت إليها عيون الهاشميين وتنافست بيوتات مكة على الظفر بها عروسا لمن يختاره لها أبوها من كرام

---

(١) انظر كتاب أصهار الرسول ﷺ ، ط دار الهجرة دمشق .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٤٦ ترجمة (٢٨) .

(٣) المستدرك ٤/ ٢٤ ، ومجمع الزوائد ٩/ ٢١٢ .

(٤) مجمع الزوائد ٩/ ٢١٢ ، وأسد الغابة ٧/ ١٣٠.

الفتية القرشيين . ولكن واحدا منهم لم يكن له من الأمل فى الزواج من زينب مثل ما لابن خالتها أبى العاص بن الربيع أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا(١) ، وكانت مكانة زينب - رضى الله عنها - فى بيت رسول الله ﷺ ، وهى كبرى بناته ، قد أسرع بها على النضج قبل الأوان ، بما ألقى عليها عبء المشاركة فى حضانة أخواتها مع خديجة الأم الطيبة الطاهرة سيدة نساء العالمين رضوان الله عليهم أجمعين . ولربما كان أبو العاص يراها كلما ألم ببيت خالته خديجة فيؤخذ ببهاء مرآها وعذوبة حنانها وذكاء ملامحها ولطف طباعها.

وكبرت زينب - رضى الله عنها- وأعلن أبو العاص عن رغبته فى الزواج من زينب- رضى الله عنها - ربما أعلن ذلك لأمه هالة بنت خويلد - رضى الله عنها .

وإذ هى الأمور تجرى فى أعنتها فيما يخص اقتران زينب - رضى الله عنها - بأبى العاص ، كانت بنتا رسول الله رقية وأم كلثوم على لسان خاطبين جديرين هما عتبة وعتيبة ابنا أبى لهب ، فكما كانت زينب مطلبا لأبى العاص ابن الربيع كانت أيضا رقية وأم كلثوم مطمعا لبنى عبد المطلب وفى أبناء أبى لهب ، كيف تم هذا ؟ . ذلك ما سنعرضه من تصفحنا لسيرة بنات النبى ﷺ فى هذه الصفحات ، وعقد لرقية بنت النبى ﷺ على عتبة بن أبى لهب ، وكذلك أم كلثوم لعتيبة بنى أبى لهب أبناء عم النبى ﷺ ، وبقيت فاطمة الزهراء الصغيرة ، وسترى أنها ادخرت فيما بعد لعلى بن أبى طالب - كرم الله وجهه - كل هذا تم فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام وجهر محمد ﷺ بالدعوة ، وأظهرت بناته إسلامهن ، غضب أبى لهب غضبا شديدا وأمر ولديه عتبة وعتيبة أن يردا ابنتى محمد عليه ، وقيل: إن ولداه لم يدخلا بهما بعد ، وتردد عتيبة فى تنفيذ هذا الأمر حتى تكاثر عليه قومه عارضين عليه الزواج

---

(١) د. عائشة عبد الرحمن بنات النبى ﷺ .

ممن يختارها من فتيات قريش الرائعات الجمال ، أو ممن يتخير من بنات قومه بدلا من رقية ، فتحير بنت سعيد بن العاص وطلق هو وأخوه ابنتى محمد ﷺ ورداهما إليه بعد أن تهكما بهما وبأبيهما.

الزواج المبارك :

مضت الأيام ومرت السنون وكبرت زينب بنت محمد ﷺ واستقام عودها ، بعد أن وجدت رعاية أب حنون وأم رؤوم ربياها على الفضيلة والأخلاق الكريم ، ومن المعروف أن البيت المحمدى هو مهد الخلاق الكريمة فمحمد ﷺ وصفه ربه بقوله ﷻ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم: ٤] وقالت عنه عائشة حينما سئلت: كان خلقه القرآن .

أما الأم فهى خديجة بنت خويلد الطيبة الطاهرة - رضوان الله عليها- وحينما استقام عود الفتاة وبلغت - رضوان الله عليها - مبلغ النساء ، جاءت خالتها هالة بنت خويلد زائرة على أختها خديجة فرحبت خديجة كعادتها بأختها أجمل ترحيب ، عندئذ أفضت هالة بسر من أسرارها عندما قالت لأختها بأن ابنها أبا العاص بن الربيع القرشى العبشمى يرغب فى الزواج من ابنتها زينب بنت محمد - رضى الله عنها .

من هو ابن العاص؟

« حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى ، والله ما زممناه صهرا » الرسول عن أبى العاص .

كان أبو العاص بن الربيع أحد فتيان قريش الأقوياء ، فقد وصفه رسول الله ﷺ فيما بعد بالوفاء ، وكان حقا رجلا وفيا ، وذلك ما ستثبته لنا الأحداث .

كان من فتيان قريش الذين عرفت عنهم محاسن الأخلاق ، فعرف فى مكة

بالمروءة والشهامة ، واشتهر بين أقرانه بالشهامة والنجدة ، وكان غنيا وافر الثراء ، ذا مال كثير وتجارة طيبة واسعة.

وكان أبو العاص بن الربيع أخا لرسول الله ﷺ مضيافا له ، وكان يقال لأبى العاص : الأمين ، وكان رسول الله ﷺ يكثر غشيان أبى العاص فى منزل أمه هالة بنت خويلد(١).

رحب البيت المحمدى الطاهر بالصهر الأمين ، فأقبلت خديجة مسرورة ، فابن أختها خير شاب تهديه فتاتها البكر ، وتودعه فلذة كبدها وقرة عينها زينب بنت محمد ، وكان أبو العاص يقبل على خالته خديجة كلما سنحت له الفرصة بذلك أو كلما قدم بتجارة ، ولذلك ما إن جاء محمد إلى داره حتى أفضت خديجة بسر هالة بنت خويلد ، فسعد رسول الله ﷺ بمصاهرة أبى العاص بن الربيع ، ووافق من فوره على خطبة زينب لأبى العاص بن الربيع وفى يوم بهيج من أيام مكة قبل الإسلام زفت زينب إلى زوجها الفتى القرشى أبو العاص بن الربيع ، وقد رضى عن ذلك رسول الله ﷺ وزوجته أم المؤمنين خديجة- رضى الله عنها- التى نظرت لابنتها نظرة الأم الحانية لابنتها وهى فى جلوة العروس ، ثم أهدتها قلادة كانت أثيرة لديها فهى من جذع ظفار ، فقبلت العروس الهدية وقبلت الأم الحنون ، ومضت على بيت الزوجية حيث حياتها الجديدة فى رعاية الزوج الحبيب.

مضت حياة زينب مع أبى العاص بن الربيع ترفل بالسعادة ، مضت هادئة مطمئنة ، ولم تمض شهور حتى أفضت لزوجها وهى تشعر بالحياء الممزوج بالفرحة والدهشة ، أفضت إليه بنبأ سار فهى حامل ، ففرح الزوج الكريم وأنجبت له طفلة جميلة بجمال بنى هاشم بن عبد مناف الأخاذ ، اسمتها « أمامة هذه أمامة الصغيرة كان يحملها رسول الله ﷺ بين يديه ويداعبها ، كبرت

---

(١) الحافظ ابن عساكر فى كتاب مختصر تاريخ دمشق .

وترعرعت ، وسيأتى يوم يتزوجها على بن أبى طالب بعد وفاة خالتها فاطمة بنت محمد ﷺ . ثم ولدت زينب لأبى العاص طفلا جميلا وغلاما نبيلا هو على بن أبى العاص الذى يقول عنه مؤرخو السيرة : إن جده رسول الله ﷺ أردفه وراءه يوم الفتح ، ومات صبيا[١] . وكان رسول الله ﷺ يزور ابنته زينب فى دارها فيسعد برؤيتها ورؤية أبنائها ، والحديث مع زوجها المشهور بالأمانة .

أبو العاص والإسلام :

تزوج أبو العاص بن الربيع زينب بنت محمد قبل مبعث الرسول ﷺ ولما جاء الإسلام ، ونزل الوحى على محمد ﷺ وهو فى سن الأربعين وأمره ربه بأن يبلغ رسالته وينذر عشيرته الأقربين ، امتثل لأمر الله ، وبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، فكانت خديجة - رضى الله عنها - طليعة السابقين المؤمنين فأسلمت خديجة ، وقالت له مع نسمات الوحى الأولى : الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيدى ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق[٢] .

ولم تقل له خديجة هذا الحديث الطيب إلا بعد أن سمعت ورقة بن نوفل يقول : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت[٣] .

---

(١) أسد الغابة ٧/ ١٣٠ ، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٤٦ .

(٢) الروض الأنف ١/ ٢٧٠ .

(٣) انظر السيرة الهشامية ١/ ٢٥٤، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٠٦ ، والحديث مخرج فى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها .

أمـا زينـب وأخواتهـا رقيـة وأم كلثـوم وفاطمـة فكلـهن أدركـن الإسـلام وأسلمن كما أسلمت أمهن خديجة - رضى الله عنها.

بدأ الإسلام إشراقاته على مكة ، وهبت نسائمه العطرة علـى كـل البيـوت وعرف أبو العاص بن الربيع ما اشتهر به صـهره الكـريم رسـول الله ﷺ مـن مكارم الأخلاق معرفة الصهر المخالط لأسرة صهره ، فهو بزواجه زينب أحد أفراد الأسرة النبوية الكريمة .

ولما بعث رسول الله ﷺ عرف أبو العاص بن الربيع ما كان يدعو إليه النبى ﷺ عن توحيد الله والإيمان به وترك الشرك والوثنية وعبادة الأصـنام ، ولكـن أبا العاص كان فى شغل عن الاستجابة إلى دعوة الرسول ، فى حين أن زينب آمنت وأسلمت ، وشهد أبو العاص تنامى دعوة الرسول ﷺ واشتداد ساعدها وشهد أيضا عداوة قريش لمحمد ودعوته ، وإيذاء الكفار لمحمد ﷺ وأصـحابه . لكن لم يذكر فى تاريخ دعوة محمد ﷺ موقفا عدائيا من أبى العاص يقاوم فيـه دعوة محمد ، وقد كف هذا الرجل يده ولسانه عن أصحاب رسـول الله ﷺ ، وشغله ماله وتجارته وكان أبو العاص - رضى الله عنه - مصاحبا لرسـول الله ﷺ مصافيا له .

حاولت زينب أن تدعو زوجها للإسلام ، وبذلت الجهد جهد القلب المحب وجهد العاطفة التواقة لكى ترى الحبيب وقد أسلم وانضم على قافلة الإيمان ، ولم يتسرب إلى نفسـها ملـل أو كلـل ، بـل ظلـت تحـاول المـرة تلـو الأخـرى وبالحسنى ، ولكنه كان يعرض عن ذلك ، وينقاد لمواريث الجاهلية ، إلا أنـه لم يكن خصيما حادا ، بل كان من الذين يؤثرون الرأى والحكمـة ومثـل هـؤلاء سينضمون إلى قافلة الإيمان يوما ما .

ودعا رسول الله أبا العاص بن الربيع فلم يرفض ولم يقبل بـل كـان خلوقـا حييا يتكلم كلمات نادرة ويصمت صمت الدهر ولم يشك أبو العاص فى يوم

من الأيام أن دعوة محمد حق ، وكان يقول لزينب - رضى الله عنها : والله ما كان أبوك متهم عندى ولكن أكره لك أن يقال : إن زوجك خذل قومه وكفر بآبائه إرضاء لزوجته.

كان حديثه يفيض ودا ، وتفوح منه رائحة الحكمة والعقل والتروى ، وينضح منه دفء رائع وصدق واضح ، ويبدى ما فى نفسه من عصبية ويخفى ودا وحبا لدعوة محمد ﷺ .

عرفت زينب - رضى الله عنها - زوجها جيدا ، وخبرت ما فى نفسه واختبرت صدق حديثه ، وتأكدت من مجيئه يوما لينضم إلى دعوة محمد ﷺ .

سرى الإسلام فى مكة سريان الريح ، بل هب عليها هبوب النسيم ، فلم يترك بيتا إلا ووجد له فيه مكانا كبيرا أو صغيرا امرأة أو رجلا ، وتقاطر الناس على محمد ﷺ يدخلون فى دين الله أفواجا .

لكن أعداء الإسلام لم يكلوا أو يملوا بل واصلوا هجومهم وعدائهم وأرادوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ فى نفسه وأهله وبناته فمشى سادتهم ودعاتهم إلى أبى العاص بن الربيع وقد ظنوا أنه معاد لدعوة محمد ﷺ وقالوا له ناصحين: فارق صاحبتك بنت محمد ، ونحن نزوجك أى امرأة شئت من قريش . كان بالإمكان لو أن رجلا غير أبى العاص فى هذه الظروف كان بالإمكان تغيير مجرى حياته وبسهولة ، فمحمد على دين غير دين آبائه وأجداده ، ولم يبلغ بدعوته من القوة التى تطمئن جمهرة القوم فى مكة .

ولكن أبا العاص كان وفيا ، وفيا لزوجه زينب ، وصادقا ومخلصا لصهره محمد ﷺ وخالته خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - فجاء رده على هذه الدعوة الماكرة حاسما مفاجئا لهؤلاء الذين ظنوا به الظنون ، فقال لهم : لاها الله إذا ، لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش[١] .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٤٢ .

انتهى الأمر فقد قطع الرجل خط الرجعة على هؤلاء الذين جاؤوا ليهزوا أركان بيته الذى بات مطمئنا فى ظل مصاهرة محمد ﷺ ، واطمأنت زينب أكثر الاطمئنان بعد مرور هذه العاصفة على بيتها وبيت الزوج أبى العاص ، اطمئنان إلى رسوخ حبها فى قلبه وإلى إمكانية صمود زوجها أمام كل هذه العواصف الهوجاء التى تهب بين الحين والحين على بيتها .

فى وداع خديجة :

اشتد إيذاء قريش لمحمد ﷺ وأتباع دينه الأجلاء بل مدت يد الأذى إلى بنى هاشم وبنى عبد المطلب ؛ لأنهم أبوا أن يسلموا محمدا إلى أعدائه المشركين ، فكانت المقاطعة الرهيبة التى سجلت فى صحيفة علقت بالكعبة . وخرج الهاشميون إلى شعب أبى طالب بظاهر مكة ، حيث أقاموا هنالك فى حصار طويل منهك امتد ثلاث سنين[(١)] . وبالطبع لم تكن زينب فيمن خرج إلى الشعب مع بنى هاشم ، ولكن أخبار الحصار كانت تأتيها مقلقة فكانت تسمع بما يكابده المحاصرين فوالدها النبى ﷺ يكابد وأمها خديجة تنفق كل مالها فى هذا الحصار ، وتضعف صحتها ، وتشعر بوهن شديد ، ولما انجلت محنة الحصار ، مات أبو طالب ، ففقد النبى ﷺ سندا له على قريش ، وبعده بثلاثة أيام توفيت خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها .

وكان فقد خديجة - رضى الله عنها - صدمة كبيرة لمحمد ﷺ وبناته على رأسهم زينب - رضوان الله عليها .

واستغلت هذه المحنة التى مرت بالبيت المحمدى الطاهر ، وشددت فى اضطهاد وإيذاء المسلمين ، وأصبح أتباع محمد ﷺ يلاقون مشقة شديدة فأمرهم عليه السلام بالهجرة تباعا إلى الحبشة وإلى المدينة ، وقريش تتميز غيظا كلما

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٥ ، وعيون الأثر ١/ ١٢٦ .

اختفى عن أعينها بعض أتباع محمد ﷺ ، فكانت تلاحقهم وتلحق الأذى الشديد بمن يقع فى أيديهم مهاجرا بدينه .

وبلغت معركة الإيذاء بالتفكير فى قتل محمد ﷺ وإيذائه بلغت ذروتها ، ولذلك كان الأمر بالهجرة فهاجر ﷺ بصحبة أبى بكر الصديق رضي الله عنه إلى المدينة .

ولما توارت أنباء الهجرة ومطاردة النبى ﷺ أصاب زينب قلق شديد ، فأصبحت تتلفت خائفة وهى تصغى لأنباء المطاردة لأبيها فى الطرقات ، حتى جاءت الأنباء مطمئنة تقول : إن الرسول ﷺ استقر مطمئنا بالمدينة بصحبه وأصحابه وأنصاره هناك وأصبحت زينب - رضى الله عنها - وحيدة فى مكة وقد هاجرت أخواتها رقية وأم كلثوم وفاطمة ولحقن بالأب الحنون فى المدينة . وشعرت زينب بوحشة شديدة لا تجد لها تفريجا إلا من خلال كلمات حانية من الزوج الحنون أبى العاص بن الربيع.

الأسير الصادق :

استيقظت زينب يوما من نومها على صوت يسمعه أهل مكة كلها صوت رجل يقول : يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة .. أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها .. الغوث الغوث[1] .

ولما تساءلت زينب - رضى الله عنها - عن الصوت علمت أنه صوت ضمضم بن عمرو الغفارى ، وكان مسافرا مع أبى سفيان وأرسله أبو سفيان يطلب الغوث ، واجتمعت قريش وأعدت عدتها وخرج الناس من المشركين لقتال محمد ﷺ ، خرجت قريش لقتاله فى بدر واضطر أبو العاص للخروج معهم اضطرارا . إذ لم تكن لديه رغبة فى قتال المسلمين ولا أرب فى النيل منهم ، ولكن منزلته فى قومه حملته على مسايرتهم حملا ، وقد انجلت بدر عن

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٦٣ .

هزيمة منكرة لقريش أذلت أنوف الشرك ، وقصمت ظهور طواغيته ، ففريق قتل ، وفريق أسر ، وفريق نجاه الفرار .

وكان فى زمرة الأسرى أبو العاص زوج زينب بنت محمد ﷺ فى هذا الوقت كانت زينب - رضى الله عنها - فى مكة قلقة بشأن زوجها ، فكانت تضم طفليها على صدرها وتستعبر باكية خائفة ، لكن البشرى جاءت تقول : إن أبا العاص لم يقتل ، بل وقع فى أسر صهره الكريم ﷺ .

وجاءت فلول الجيش المهزوم إلى مكة ، بعد أن صرع أشرافهم حول ماء بدر وأذاعوا أسماء الأسرى ، فبعث ذويهم بالفداء ، وكان النبى ﷺ قد فرض على الأسرى فدية يفتدون بها أنفسهم من الأسر ، وجعلها تتراوح بين الألف درهم وأربعة آلاف حسب منزلة الأسير فى قومه وغناه .

وطفقت الرسل تروح وتغدوا بين مكة والمدينة ، حاملة من الأموال ما تفتدى بها أسراها .

وقد سبق أسرى بدر فى أعقاب الفئة المنتصرة المظفرة ، فلما رآهم الرسول ﷺ قال لأصحابها : « استوصوا بالأسارى خيرا » فبعثت زينب عمرو بن الربيع أخا أبى العاص ، وهو رسولها إلى المدينة يحمل فدية زوجها أبى العاص .

وبقى أبو العاص ينتظر عند النبى ﷺ ، حتى جاءت رسل قريش فى نداء أسراها ، وغالوا فى الفداء ، حتى أن المرأة لتسأل عن أغلى ما فدى به قرشى فيقال لها: أربعة آلاف درهم ، فتبعث بمثلها فى فداء ابنها(١) .

وبعثت زينب - رضى الله عنها - رسولها إلى المدينة يحمل فدية زوجها أبى

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢/ ١١، والسيرة لابن هشام ج ٢، والطبرى حوادث السنة الثانية للهجرة .

العاص ، وجعلت فيها قلادة كانت أهدتها لها أمها خديجة بنت خويلد يوم زفتها إليه .

وتقدم عمرو بن الربيع أخو أبى العاص ، فقال للنبى: بعثتنى زينب بنت محمد ، بهذا ، فى فداء زوجها - أخى أبى العاص بن الربيع[١] .

وأخرج من ثيابه صرة قدمها إلى رسول الله ﷺ ، فإذا فيها قلادة ، فلما رأى الرسول ﷺ القلادة غشيت وجهه الكريم غلالة شفافة من الحزن العميق ، ورق لابنته أشد الرقة ، ثم التفت إلى أصحابه وقال: «إن زينب بعثت بهذا المال لافتداء أبى العاص ، فإن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا » . فقالوا جميعا فى صوت واحد : نعم ونعمة عين رسول الله ﷺ ، عندئذ أدنى محمد ﷺ إلى صهره الذى غلبه التأثر لهيبة الموقف ، فأسر إليه حديثا لم يعلم ما هو ، فحنى أبو العاص رأسه موافقا ، ثم حيا ومضى ، فلما أخذ طريقه بعيدا ، أثنى عليه الرسول خيرا وقال :« والله ما ذممناه صهرا»[٢] .

وعلم فيما بعد أن النبى ﷺ اشترط على أبى العاص قبل إطلاق سراحه أن يسير إليه ابنته زينب من غير إبطاء ، فما كاد أبو العاص يبلغ مكة حتى بادر إلى الوفاء بعهده مع رسول الله ﷺ ، فأمر زوجته زينب - رضى الله عنها - بالاستعداد للرحيل ، وأخبرها أن رسل أبيها ينتظرونها غير بعيد من مكة ، وأعد راحلتها وندب أخاه عمرو بن الربيع لمصاحبتها وتسليمها لمرافقيها يدا بيد .

تنكب عمرو بن الربيع قوسه ، وحمل كنانته وهى مكتظة بالسهام . وجعل زينب فى هودجها وخرج بها من مكة جهارا نهارا على مرأى من قريش فهاج القوم وماجوا ، ولحقوا بهما حتى أدركوهما غير بعيد ، وروعوا زينب وأفزعوها ، وكان ممن أفزعها هبار بن الأسود الأسدى الذى روعها بالرمح

---

(١) المسند للإمام أحمد ٦/ ٢٧٦ .

(٢) من حديث مسلم - عن المسوربن مخرمة ٤/ ١٩٠٢ حديث رقم (٢٤٤٩) .

وقد جن حزنه على أخوة له ثلاثة ، صرعوا جميعا فى بدر بأيدى أصحاب محمد ﷺ[١] .

ونخس البعير فألقى براكبته على صخرة هناك ، وإذ ذاك برك « كنانة » دونها ونثر كنانته وهو يزأر : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما . فتراجع المطاردون الجبناء ووقف « أبو سفيان » بعيدا يقول لكنانة : كف عنا نبلك حتى نكلمك ، فكف كنانة .

وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال:

إنك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا ، وإن ذلك منا ضعف ووهن ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلها سرا فألحقها بأبيها[٢] .

فرضى عمرو بذلك وأعاد زينب إلى مكة.. ثم ما لبث أن أخرجها منها ليلا بعد أيام معدودات ، وأسلمها إلى رسل أبيها يدا بيد كما أوصاه أخوه .

ولم يتبعها فى هذه المرة أحد من مكة ، وشعر هبار ومن كان معه بالخزى والعار أن طارد ابنة رسول الله ﷺ فقد عيرتهم هند بنت عتبة وسخرت منهم وقالت:

أفى السلم أعيار ، جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك

أما عمرو بن الربيع[٣] فقد عاد يفخر بإنجاز وعده إلى أخيه فأنشد يقول :

---

(١) السيرة ٢/ ٢٦٦ ، والروض الأنف ، وعيون الأثر .

(٢) السيرة ٢/ ٣٠٩ .

(٣) ذكرته بعض المصادر باسم « كنانة بن الربيع » .

عجبت لهبار وأوباش قومـــه يريدون إخفارى بنت محمــد
ولست أبالى ما أصبت عديدهم وما استجمعت قبضا يدى بالمهند

حدثنى فصدقنى:

صدق أبو العاص وعده رسول الله ﷺ ، واستقبلت المدينة بنت رسـول الله ﷺ باحتفال مهيب ، وحفاوة بالغة ، شابت فرحة اللقاء فيه علامات الغضـب لما أصاب العقيلة الكريمة أول خروجها من مكة .

وتحدث الناس بغضب رسول الله ﷺ لابنته ، حتـى لقـد أمـر أصـحابه أن يحرقوا الرجلين الأثيمين ـ هبار وزميله ـ وكان ممن خرج مـع أصـحاب النبـى ﷺ فى هذه المهمة هو أبو هريرة ﷺ ، فحدث عن ذلك وقـال : بعـث رسـول الله ﷺ سرية أنا فيها ، فقال لنا: « إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخـر الذى سيق معه إلى زينب - فحرقوهما بالنار » فلما كان الغد بعث إلينا فقال: «إنى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذ تموهما ، ثـم رأيـت أنـه لا ينبغى لأحد أن يعذب بالنار إلا الله ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما »[(١)].

وظلت زينب فى المدينة فى حمى أبيها ، على أمل أن يعود إليها أبو العاص مسلما ، أما أبو العاص فقد أقام فى مكة بعد فراق زوجتـه زمانـا ، حتـى إذا كان قبيل فتح مكة بقليل خرج إلى الشام فى تجارة له ، فلما قفل راجعـا علـى مكة ومعه عيره التى بلغت مائة بعير ، ورجاله الذين على مائة وسبعين رجـلا برزت له سرية من سرايا الرسول ﷺ قريبا من المدينة ، فأخذت العير وأسرت الرجال ، لكن أبا العاص أفلت منها فلم يظفر به.

فلما أرخى الليل سدوله استتر أبو العاص بجنح الظـلام ، ودخـل المدينـة خائفا يترقب ، ومضى حتى وصل على زينب واستجار بها فأجارته .

---

(١) السيرة ٢/ ٤١٢ .

ولما خرج الرسول ﷺ لصلاة الفجر ، واستوى قائما فى المحراب ، وكبر للإحرام وكبر الناس بتكبيره ، صرخت زينب بنت رسول الله ﷺ من صفة النساء.

وقالت: أيها الناس ، أنا زينب بنت محمد ، وقد أجرت أبا العاص بن الربيع فأجيروه[1] .

فلما سلم النبى ﷺ من الصلاة ، التفت إلى الناس وقال : « هل سمعتم ما سمعت ؟! قالوا : نعم يارسول الله ، قال: « والذى نفسى بيده ما علمت شيئا من ذلك حتى سمعت ما سمعتموه ، وإنه يجير من المسلمين أدناهم » ، ثم انصرف ﷺ إلى بيته وقال لابنته : « أكرمى مثوى أبى العاص ، واعلمى أنك لا تحلين له » ، ثم دعا رجال السرية التى أخذت العير وأسرت الرجال وقال لهم : « إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أخذتم ماله ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، كان ما نحب ، وأن أبيتم فهو فيء الله الذى أفاء عليكم وأنتم به أحق ، فقالوا : بل نرد عليه ماله يا رسول الله.

فلما جاء لأخذه قالوا له: يا أبا العاص إنك فى شرف من قريش ، وأنت ابن عم رسول الله وصهره فهل لك أن تسلم ، ونحن ننزل لك عن هذا المال كله فتنعم بما معك من أموال أهل مكة وتبقى معنا فى المدينة؟ فقال : بئس ما دعوتمونى أن أبدأ دينى الجديد بغدرة.

فمضى أبو العاص بالعير وما عليها إلى مكة فلما بلغها أدى لكل ذى حق حقه ، قم قال: يا معشر قريش ، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا وجزاك الله عنا خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما ، قال : أما وإنى قد وفيت لكم حقوقكم ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والله

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٣ ، وسيرة ابن هشام ج ٢ ، والاستيعاب ٤/ ٧٠٢ ، والإصابة ٨/ ٩١ .

ما منعنى من الإسلام عند محمد بالمدينة إلا خوفى أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت[1] .

وخلف القوم ساهمين واجمين مما أصابهم من مفاجأة ، وانطلق إلى المدينة قاصدا دار الحبيب محمد ﷺ وزوجته زينب - رضى الله عنها . وفى هلال المحرم دخل أبو العاص المدينة وتوجه من فوره إلى مسجد رسول الله ﷺ ، فاستقبله المسلمون بالتهليل والتكبير ، وأثنى عليه الرسول خيرا فقال : « حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى ، والله ما ذممناه صهرا » ورد عليه زينب على النكاح الأول وقيل : ردها عليه بنكاح جديد .

واجتمع الشمل الممزق ، وتلاقى الزوجان الحبيبان زينب بنت محمد ﷺ وأبو العاص بن الربيع - رضى الله عنهما - والذى ما زال يذكر قولها : أيها الناس إنى أجرت أبا العاص بن الربيع فأجيروه .

النظر واللمس بين الرجل والمرأة :

للنظر واللمس بين الرجل والمرأة تشريع أخلاقى عظيم مقاصده الطهر والطهارة والعفة والعفاف ، وإذا كنا سنتحدث عن الخطر والإباحة فى النظر بين الرجل والمرأة ، فلابد لنا من معرفة العورة التى يلزم سترها وعدم رؤيتها.

العورة :

العورة كل ما يستحيا منه إذا ظهر ، وأصلها من العار ، كأنه يلحق بظهوره عار أو مذمة[2] .

وقال بعضهم: العورة من العور ، وهو القبيح بقبح كشفها لأنفسها ، والمرأة عورة لتوقع الفساد من رؤيتها أو سماع كلامها . وهذا لا يكون دقيقا إلا إذا كانت الرؤية أو السماع أو الكلام المسموع على خلاف المشروع .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام . إسلام أبى العاص بن الربيع ج ٢ ، والاستيعاب ٤/ ١٧٠٣ .
(٢) انظر بصائر ذوى التمييز للفيروزآبادى ٤/ ١١٣ .

النظر واللمس بين الرجل وزوجته :

اعلمى أيتها الأخت المسلمة أنه يحل للرجل النظر إلى جميع بدن زوجته ولمسه ، سواء كان ذلك بشهوة أو غير شهوة ؛ لأنه يحل له وطؤها ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ ﴾[1] والجماع فوق النظر واللمس ، فكان لإحلال الجماع إحلال النظر واللمس من باب أولى .

وقد كانت عائشة - رضى الله عنها - زوج النبى ﷺ تغتسل مع رسول الله ﷺ من إناء واحد ، ولم يكن النظر مباحا لكل منهما الآخر ؛ لأنهما زوجان ، لما تجرد كل منهما لصاحبه .

وفى « جامع الترمذى » عن بهز بن حكيم قال : حدثنى أبى عن جدى قال: قلت: يا رسول الله : عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك »[2].

ولم يقف المالكية عند القول بإباحة نظر الزوج إلى بدن زوجته ، وإنما قالوا : « يجب على المرأة أن تبدى لزوجها كل ما يدعوه إليها ، ويزيدها فى مودته وتصطاد به قلبه »[3] ، وهذا القول مقبول ومرغوب فيه شرعا ؛ لأن الشرع يرغب فى دوام المودة والألفة بين الزوجين .

وكذلك يحل للزوجة النظر إلى جميع بدن زوجها أو مسه بشهوة وبدون شهوة ؛ لأنه أبيح لها ما هو أكثر من ذلك وهو تمكينه من وطئها ، فالنظر إليه ومسه أولى بالإحلال من وطئها ؛ لذلك يحق للزوجة النظر واللمس لزوجها .

---

(١) المؤمنون : ٥-٧ .

(٢) جامع الترمذى ٨/ ٥٣ ، وقوله : عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ، يعنى : أى عورة نسترها وأى عورة نترك سترها .

(٣) التاج والإكليل لمختصر خليل المواق ١/ ٥٠١ .

النظر إلى الفرج:

ويجوز لكل من الزوجين النظر إلى فرج الآخر لما قيل عن حل الجماع بينهما ، وبهذا صرح المالكية فقد قالوا : « وحل لهما نظر الفرج »[١].

أما الحنفية فقد قالوا : الأولى عدم نظر الزوج لفرج زوجته وبالعكس ، وهو مذهب الحنابلة والشافعية ، ولكنهم استعملوا لفظ الكراهة فقالوا: « يكره النظر إلى الفرج ، أى يكره نظر كل من الزوجين إلى فرج الآخر» [٢] .

ويؤيد كراهة النظر إلى الفرج ما رواه ابن ماجه فى سننه عن عائشة - رضى الله عنها- وزوج رسول الله ﷺ أنها قالت : ما نظرت أو ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط [٣]. وعن عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :« إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ولا يتجردان تجرد العيرين »[٤] . والمعنى: إذا أراد أحدكم جماع زوجته فليستتر ـ أى: فليتغط هو وزوجته بثوب يسترهما ، وهذا الأمر بالاستتار على وجه الندب والاستحباب . ولا يتجردان أى : ينزعان الثياب عن عورتيهما فبصيرا متجردين عما يسترهما تجرد العيرين[٥].

النظر واللمس بين المرأة وبين الملحقين من محارمها :

قال تعالى:

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

---

(١) التاج والإكليل ٣/ ٤٠٥، ٤٠٦ .

(٢) المبسوط ١٠/ ١٤٨ ، والبدائع ٥/ ١١٨ ، والمغنى ٦/ ٥٥٧ ، ونهاية المحتاج ٦/ ١٩٥ .

(٣) سنن ابن ماجة ١/ ٢١٧ .

(٤) السنن الكبرى للبيهقى ٧/ ١٩٣ .

(٥) فيض القدير للمناوى ١/ ٢٧٩ .

إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النور: ٣١].

والآية الكريمة التى ذكرناها هى أصل وصيتنا لكل أخت مسلمة حريصة على دينها فى الإباحة والتحريم ، فهى تشير إلى وجود ثلاثة أصناف يباح للمرأة زينتها لهم ، كما يباح لها إبداء زينتها إلى الأزواج وبقية المحارم التى ذكرت فى الآيات الكريمة .

وهناك ثلاثة أصناف يباح للمرأة إبداء زينتها لهم ، وهذه الأصناف الثلاثة هى:

أولا: ما ملكت أيمانهن .

ثانيا: التابعون غير أولى الإربة من الرجال.

ثالثا: الطفل الذى لم يظهروا على عورات النساء.

أولا: ما ملكت أيمانهن: وقبل أن نتحدث عن ما ملكت أيمانهن ، لابد أن نذكر أن القرآن الكريم أشار على مشروعية الرق ، ودلت السنة الشريفة على هذه المشروعية وأجمع المسلمون على ذلك ، وأن درجة المشروعية له هى الإباحة والأخذ بهذه الإباحة متروك للإمام ـ رئيس الدولة الإسلامية ـ أو من يخوله ، ومصدر الرق الحرب الشرعية الإسلامية بشروطها المقررة فى الشريعة الإسلامية ـ ومن صور هذه الحرب دفع الكفار عن بلاد المسلمين ، أو دفاعا عن الإسلام ، أو لتمكينه من أرض الله ، فإذا وقع من جيش العدو الكافر أسرى بيد المسلمين ورأى الإمام استرقاقهم ولم ير مفاداتهم ولا المن عليهم ، كان له ما رأى وقسمهم على المجاهدين من الجيش الإسلامى باعتبار هؤلاء الأسرى المسترقين غنيمة من غنائم الحرب ، وهؤلاء الأسرى بتقسيمهم على المجاهدين يصيرون أرقاء مملوكين للمجاهدين ، يباعون ويورثون ، وقد تنتقل

ملكيتهم إلى النساء المسلمات فيكونون من ما ملكت أيمانهن ، وقد يكون فيهم رجال ونساء ، أما حكم مشروعية الرق فسأبينه فيما بعد ـ إن شاء الله تعالى عند الكلام عن الجهاد فى سبيل الله[(١)].

المقصود بـ « ما ملكت أيمانهن » كما سبق وكما هو معروف فإنه يجوز للنساء المسلمات أن يمتلكن الرقيق ذكورا وإناثا ـ أى عبيدا وإماء ، فيكون معنى « أو ما ملكت أيمانهن » ما يملكنه من رقيق سواء كانوا رجالا أو نساء صغارا أو كبارا ؛ لأن النساء المسلمات يجوز لهن أن يملكن الرقيق الذكور منهم والإناث كما ذكرنا ، لأن وحيث إن آية : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾ أو﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ أفادت إباحة إبداء النساء لبعولتهن ولمحارمهن المذكورين فى الآية ، وعطفت عليهن: « أو ما ملكت أيمانهن » ، فهل يجوز للنساء المسلمات أن يبدين زينتهن لعبيدهن وإمائهن ، وأن ينظر هؤلاء العبيد إلى ما يجوز أن ينظر إليه محارم النساء من النسب بحجة أن عبيدها يشملهم قوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ أم أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ ، الإماء اللاتى تملكهن النساء المسلمات ، فلا يشمل ما يملكنه من عبيد ، وبالتالى لا يجوز إبداء الزينة لهم ، ولا يجوز النظر إلى ما ينظر إليه من بدن المرأة محارمها من النسب؟

وللجواب على ذلك نستعرض خلاصة أقوال المفسرين كالآتى:

تتلخص أقوال المفسرين والفقهاء فيما يلى:

أولا: القول الأول: إن عبد المرأة داخل فى المقصود والمراد من قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ وعلى هذا فحكمه حكم المحرم بالنسب من المرأة ، فتبدى له من زينتها ما تبدى له من زينتها ما تبدى به للمحرم من النسب منها وينظر منها ما ينظر من بدنها المحرم النسبى.

---

(١) المفصل د/ عبد الكريم زيدان ٣/ ١٦٥ .

وبكلمة مختصرة: إن المقصود من قوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ الإماء والعبيد ، وبالتالى يعتبر العبد بمنزلة محارمها من النسب وما يترتب على ذلك[(١)].

أدلة هذا القول القول الأول: عبد المرأة بمنزلة المحرم منها بالنسب:

١) الدليل الأول ظاهر آية: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ يدل على أن المراد منها الإماء والعبيد ؛ لعموم كلمة « ما » فيكون عبد المرأة بمنزلة المحرم منها بالنسب[(٢)].

٢) الدليل الثاني: الحديث الذى رواه أبو داود فى « سننه » والبيهقى فى « سننه » عن أنس ﷺ قال: إن النبى ﷺ أتى فاطمة - رضى الله عنها - بعبد قد وهبه لها : وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت - أى غطت - به رأسها لم يبلغ رجليها . وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما تلقى قال: « إنه ليس عليك بأس ، وإنما هو أبوك وغلامك »[(٣)] ومن هذا الحديث دليل على أنه يجوز للعبد النظر إلى سيدته ، وأن يعتبر بمنزلة المحرم منها يخلو بها ، ويسافر معها ، وينظر منها ما ينظر إليه منها المحرم منها[(٤)].

٣) الدليل الثالث: روى أبو داود فى « سننه » عن نبهان ، قال : سمعت أم سلمة زوج رسول الله ﷺ تقول: قال رسول الله ﷺ : « إذا كان لإحداكن مكاتب فكان عنده ما يورى ، فتحتجب منه » والمعنى : إذا صار للعبد الذى كاتبته سيدته ما يمكن أن يؤديه لها حتى يعتق ، فلتحتجب منه ،

---

(١) المفصل ٣/ ١٧١ .
(٢) تفسير الآلوسى ١٨/ ١٤٤ .
(٣) سنن أبى داود وشرحها عون المعبود ١١/ ١٦٤ ، والسنن الكبرى للبيهقى ٧/ ٩٥ .
(٤) نيل الأوطار للشوكانى ص : ١١٤، ١١٥ .

فإن ملكها عليه قريب الزوال ، وما قارب الشيء أخذ حكمه ، كما دل الحديث بمفهومه أنه يجوز لعبد المرأة النظر إليها ما لم يكاتبها على عتقه ، ويحصل عنده من المال بقدر ما أنفق عليه معها فى المكاتبة ، وهذا المفهوم من الحديث دل عليه منطوق الآية : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ (١) .

٤) الدليل الرابع: إن هذا القول هو مذهب عائشة ، وأم سلمة وابن عباس - رضى الله عنهم(٢) .

القول الثانى: المقصود من قوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ الإماء فقط فلا يدخل فى المراد منه العبيد ، وبالتالى فهم أجانب عنها ، وإن كانوا مملوكين لها ، فلا يباح لهم منها من جهة النظر ، إلا ما يباح للأجنبى من المرأة الأجنبية أى النظر إلى وجهها وكفيها فقط(٣) .

أدلة القول الثانى: عبد المرأة أجنبى عنها:

١) الدليل الأول: إن العبد والحر فى التحريم سواء من جهة النظر إلى مالكة العبد إذا لم يكونا محرمين للمرأة ، وعبد المرأة ليس بمحرم لها ، وتحريم نكاحه من مالكته وهو مملوك لها تحريم مؤقت لا يمنع من اعتباره كالأجنبى منه فى حق النظر وإبداء الزينة لها ، كما هو الحال بالنسبة للزوج من أخت وزوجة(٤) .

ومما يدل على أن تحريم نكاحها منه هو تحريم مؤقت ، صحة نكاحها منه بعد عتقه وصيرورته حرا (٥) .

---

(١) عون المعبود ١٠/ ٤٣٦-٤٣٧ .
(٢) المفصل ٣/ ١٧٢ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣١٨ .
(٥) سبل السلام ٤/ ٢٠٠ .

٢) الدليل الثانى: فى الحديث الشريف: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا فوق ثلاث إلا مع ذى محرم » والعبد ليس بمحرم لها ، فلا يجوز أن يسافر معها كالأجنبى ، ولا ينظر منها إلا مثل ما ينظر الأجنبى منها[(١)].

٣) الدليل الثالث: العبيد فحول ليسوا أزواجا ولا محارم ، والشهوة متحققة فيهم ، والخوف من الفتنة بهم أشد من غيرهم لدخولهم على سيدتهم ، وهذا يقتضى تنزيلهم منزلة الأجانب فى إبداء الزينة والنظر إليها[(٢)].

٤) الدليل الرابع: وإذا قيل: إن الإماء دخلن فى معنى قوله: ﴿ أو نسائهن ﴾ الواردة فى آية النور ، وهى قوله تعالى:

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ...﴾ الآية.

فالإماء دخلن فى قوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ فأى معنى لقصر معنى ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ على الإماء دون العبيد؟ .

والجواب: إن المراد من ﴿ أو نسائهن ﴾ الحرائر ، مثل قوله تعالى: ﴿ شهيدين من رجالكم ﴾ أى الأحرار لإضافتهم إلينا ، ثم عطف على ﴿ أو نسائهن ﴾ ومعناها : الحرائر كما قلنا ، الإماء فى قوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ فأباح لهن مثل ما أباح للحرائر »[(٣)].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣١٨ ، وتفسير الرازى ٢٣/ ٢٠٧، ٢٠٨ .
(٢) تفسير الآلوسى ٢٨/ ١٤٤.
(٣) سبل السلام للصنعانى ٤/ ٢٠٠ .

وعلى هذا يكون تخصيص الإماء بالذكر فى قوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ دفعا لتوهم مغايرين للحرائر فى قوله تعالى: ﴿ أو نسائهن ﴾ ، إذ الإماء لسن نساءنا .

٥) الدليل الخامس : أما حديث أنس بخصوص العبد الذى أهداه النبى ﷺ إلى فاطمة ...إلخ ، فلا حجة فيه لأصحاب القول الأول ؛ لأنه جاء فيه : « ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك » . ولفظ الغلام حقيقة فى الصبى ، والصبى يباح له من النظر إلى المرأة ما لا يباح للأجنبى البالغ[١] .

القول الراجح فى النظر وإبداء الزينة :

يقول الدكتور/ عبد الكريم زيدان فى المفصل[٢]: والراجح كما يبدو القول الثانى ، وهو أن آية : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ لا تشمل العبيد ؛ لأنها مقصورة على الإماء ، فيكون عبد المرأة بمنزلة الأجنبى ، فلا يحل لها أن تبدى زينتها له كما تفعل بالنسبة لمحارمها من الرجال من النسب ، ولا يحل له من النظر إليها إلا ما يحل للأجنبى من ذلك ، وهو النظر إلى وجهها وكفيها فقط .

ثم يضيف[٣]: ولكن مع هذا الترجيح بين القولين أضيف على ما رجحته أن عبد المرأة يجوز له على وجه الضرورة أن ينظر منها إلى الوجه والكفين ، فينظر إلى رأسها وشعرها وربما ذراعيها على أن لا تعتمد المرأة مالكة العبد إظهار زينتها له ، وحجتى فى هذا القول: أن للعبد منزلة خاصة ليست للأجنبى ، واعتبار خاص ليس للأجنبى ، يدل على هذه الخصوصية له أن

---

(١) تفسير الآلوسى ١٨/ ١٤٤ .
(٣) المفصل ٣/ ١٧٤ .
(٣) المصدر السابق .

العبيد معفوون من الاستئذان للدخول فى بيوت مالكيهم ، كما يعفى الطفل من الاستئذان عند الدخول إلى البيت ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النور: ٥٨].

وقد جاء فى تفسيرها بصدد استئذان العبيد عند الدخول إلى البيوت ، ثم عذرهم فى ترك الاستئذان وراء هذه المرات ، وبين وجه العذر فى قوله تعالى: ﴿ طوافون عليكم ﴾ يعنى: أن لكم ولهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة : يطوفون عليكم للخدمة ، وتطوفون عليهم للاستخدام ، فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأدى إلى الحرج[1].

فعبد المرأة ، إذن ، يدخل إلى بيت مالكته فى غير الأوقات الثلاثة بدون استئذان ؛ للعلة التى ذكرها المفسرون وأشارت إليها الآية الكريمة ، ومعلوم أن العبد إذا دخل بغير استئذان ، فقد يرى من سيدته وهى فى ثياب المهنة ـ أى ثياب الخدمة فى البيت ـ أكثر من وجهها وكفيها ، فقد تكون حاسرة الرأس أو مشمرة عن ساعديها ، ولا يمكنها التحرز من عدم كشف ما يظهر منها عادة وهى فى بيتها ، إلا أن هذا المكشوف لا يتجاوز غالبا وعادة الوجه والكفين والرأس وشيئا من الذراع ، وهذا الكشف أو الانكشاف مما تدعو إليه الحاجة ، ويباح للعبد رؤيته من طوله بلا استئذان ، إلا أنه لا يجوز للمرأة مالكة العبد أن تتعمد إبداء زينتها لعبدها أو تتعمد كشف ما يباح لها كشفه لمحارمها من النسب . والله أعلم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٣ ، تفسير الزمخشرى ٣/ ٢٥٣ .

الخلاصة :

وخلاصة هذا كله ما يلى:

١- أن المراد من الآية الكريمة ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ النساء غير المسلمات ، فلا يدخل فى مفهومها العبيد الكبار ، وبالتالى فهم أجانب عن المرأة مالكتهم فيحل لهم من النظر إليها.

٢- ولكن لكونهم يدخلون إلى بيت مالكهم بلا استئذان كما دلت على ذلك آية الاستئذان التى ذكرتها وما قاله المفسرون فيها ، فإنى أرجح جواز وقوع نظر العبد إلى أكثر من وجه وكفى سيدته ، فيباح له ما ينكشف من المرأة وهى فى ثياب خدمة البيت مثل رأسها وشىء من ذراعها وساقيها.

٣- لا يجوز للمرأة أن تتعمد إبداء زينتها إلى عبدها.

* * *

عشرون وصية كى يحبك زوجك

١- البشر والبشاشة :

فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال : « لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق »[١] .

من أكثر ما أوصيك به يا أختاه هو البشر والبشاشة ، فمهما تزينت لزوجك وخلت الزينة من البشر والبشاشة ، فإن زينتك لا قيمة لها مع وجه عبوس لا يحمل ابتسامه .

ولقد كان من هدى رسول الله ﷺ البشر والبشاشة ، وهوأن يبش الإنسان المسلم فى وجه أخيه ، وكان صلوات الله وسلامه عليه لا يلقى أحدا من أصحابه إلا وهو يبتسم ، باش الوجه ، وقد جاء ذلك فى الحديث الشريف الذى رواه الشيخان عن الصحابى الجليل جرير بن عبد الله أنه قال : ما حجبنى رسول الله ﷺ منذ أسلمت ، ولا رآنى إلا تبسم فى وجهى[٢] .

ومما تتجمل به المرأة أيتها الأخت الكريمة لزوجها : المرح والسعادة والبشر والبشاشة ، فتملأ حياته كلها بالبهجة والسعادة والأنس .

فتلقاه عندما يعود إلى بيته ، كالا من عمل يده أو مجهدا من إعمال فكره ، بوجه طليق ، وابتسامة مشرقة ، وكلمة طيبة ، تطوى همومها . عندما تلقاه ، لتنسيه همومه ، وتبدى كل ما تستطيعه من بهجة ومرح وظرف وبشر ، فيجد نفسه مفتوحة مشروحة على الحب والسعادة والعيش والهناءة . إنك يا أختاه كلما انبسطت أساريرك ، وافتر ثغرك لتدخلين البهجة على قلب زوجك ، كلما وقعت عيناه عليك ازددت لديه محبة ومعزة وإكراما .

---

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة ١٦/ ١٧٧، باب استحباب طلاقة الوجه .

(٢) الفتح ١٠/ ٥٠٤ كتاب الأدب : باب التبسم والضحك ، وصحيح مسلم ١٦/ ٣٥ كتاب فضائل الصحابة . باب فضائل جرير بن عبد الله .

فما من شيء يشيع المرح والمودة والتعاطف والتحابب والألفة فى مجتمعنا مثل الوجه الهاش الباش ، والنفس السعيدة الراضية المنشرحة المفتوحة .

فأنت تشاركين زوجك أفراحه وأتراحه ، فمما تدخل به المرأة قلب زوجها وتملأ نفسه: مشاركتها إياه فى أفراحه وأتراحه وسعادته وفى همومه ومسراته.

وقد ضرب البيت النبوى المثل فى مشاركة الزوجة زوجها فى هواياته وأعماله اليومية ، كالرياضة والاستمتاع بكل ما هو شرعى ومفيد ، بحيث يشعر الزوج أنه ليس وحده فى استمتاعة بطيبات الحياة وإنما تبادله زوجته كؤوس السعادة والمرح لوفائها وذكائها وحصافتها وحبها لإرضائه ، ورغبتها فى وده وسعادته ونجد ذلك المثل يضرب عندما يتسابق الرسول ﷺ مع السيدة عائشة -رضى الله عنها - وهذا دليل على دعوة الإسلام للزوجين كليهما على مشاركة كل منهما صاحبه مسرات الحياة ومباهجها ومتعتها ، لما لتلك المشاركة من أثر عظيم فى إثراء العلاقة الزوجية وإرواء ظمئها ، وتوثيق روابطها ، وتوطيد عراها .

وكذلك كما شاركت زوجك أفراحه ومسراته فعليك أن تشاركيه همومه وأحزانه وأتراحه ، فتكونى إلى جواره بالكلمة الطيبة والتآلف المؤنس والمواساة المرضية ، وليكن رأيك السديد سلاحك تنصحى ولا تيأسى ، وليكن قلبك صادقا متعاطفا ، فيه صدق يلمسه زوجك ، وفيه صوت دقاته تستجيب لكل حركة وهمسة يهمسها زوجك .

فأنت أيتها الأخت المسلمة سكن لزوجك تهدأ عندك خواطره وتسكن عندك رعشاته وثورته ، ويتسع صدرك ليحتوى كل غضبه ، وينبض حنانك عليه فيض المحبين ، فتأخذيه إلى عالم البشاشة والرضا ، بابتسامة رقيقة ، وكلمة هامسة ولمسة حانية فيها حنان أمه وشوق زوجته ، وحب أهله وأسرته .

٢ - خفيفة الظل :

ولكى تكونى محببة إلى زوجك ، يجب أن تكونى خفيفة الظل رقيقة المعشر، عذبة الحديث ، لا تأنف من ممازحة زوجها فى أوقات يحسن المزاح ، وتلطف المداعبة ، ويستحب الترفيه عن النفوس . على أن مزاحك كمسلمة مؤمنة لابد أن يتميز بالصبغة الإسلامية ؛ لأنك لبنات فى الأسرة المسلمة ، فمزاحك مع زوجك لا يهبط إلى مستوى التفاهة والسخف .

ولقد كان رسول الله ﷺ يداعب ويمازح ، ولكنه لا يخرج فى مزاحه ومداعبته عن دائرة الحق ، وقد أثر عن الصحابة - رضوان الله عليهم - أنهم قالوا للرسول ﷺ : إنك تداعبنا ، فقال : « إنى لا أقول إلا حقا »(١) .

وكذلك كان للصحابة الكرام ممازحة ومداعبة ، وفى ذلك أخبار طريفة ، كانت تجرى بينهم وبين الرسول ﷺ . ومن هذه الأخبار ما جاء فى كثير من السير والحديث من أن رسول الله ﷺ كان يمازح طفلا من أبناء الصحابة يكنى أبا عمير ، له طائر يلعب فيه ، وفى ذات يوم رآه حزينا ، فقال : « مالى أرى أبا عمير حزينا ؟ » قالوا : مات نغره الذى كان يلعب به يا رسول الله ؛ فجعل النبى ﷺ يقول مداعبا الطفل : « أبا عمير ، ما فعل النغير » (٢)، (٣) .

وجاء رجل إلى النبى ﷺ يستحمله ، فقال له النبى ﷺ ممازحا: « أنا حاملك على ولد ناقة » . فقال: يا رسول الله ، ما أصنع بولد ناقة؟ فقال الرسول ﷺ : « وهل يلد الإبل إلا النوق ؟ »(٤) .

وقد أخرج الإمام أحمد - رحمه الله - عن أنس ﷺ أن رجلا من أهل

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ١/ ٣٦٥ باب المزاح .
(٢) تصغير النغر ، وهو طائر يشبه العصفور.
(٣) انظر حياة الصحابة ٣/ ١٤٩ .
(٤) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ١/ ٣٦٦ باب المزاح .

البادية كان اسمه زاهر ، وكان يهدى النبى ﷺ الهدية من البادية ، فيجهزه النبى ﷺ إذا أراد أن يخرج ، فقال رسول الله ﷺ : « إن زاهرا باديتنا ونحن حاضروه » . وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وكان رجلا دميما ، فأتاه النبى ﷺ وهو يبيع متاعه ، فاحتضنه من خلفه ، ولا يبصره الرجل ، فقال : « أرسلنى! من هذا ؟ » فالتفت فعرف النبى ﷺ حين عرفه ، وجعل رسول الله ﷺ يقول : « من يشترى العبد ؟ » فقال : يا رسول الله . إذن والله تجدنى كاسد ، فقال رسول الله ﷺ : « لكن عند الله لست بكاسد » أو قال: « لكن عند الله أنت غال » [1].

وأتت عجوز النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلنى الجنة . فقال ﷺ مداعبا: « يا أم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز ، إن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾»[الواقعة: ٣٥، ٣٦] [2].

ومن الأحاديث التى تدل على خفة ظل رسول الله ﷺ ونفسيته المرحة المحبة للمداعبة والمزاح ما أخرجه الإمام أحمد عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : خرجت مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره ، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن ، فقال للناس : « تقدموا » ، فتقدموا ، ثم قال لى : « تعالى حتى أسابقك » ، فسابقته فسبقته ، فسكت عنى حتى إذا حملت اللحم وبدنت ، ونسيت ، خرجت معه فى بعض أسفاره فقال للناس: « تقدموا » فتقدموا ثم قال: « تعالى حتى أسابقك » فسابقته فسبقنى ، فجعل يضحك ويقول: « هذه بتلك »[3].

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، انظر مجمع الزوائد ٩/ ٣٦٨ باب ما جاء فى زاهر بن خرام .

(٢) رواه الترمذى فى الشمائل : ١١١ وهو حسن بشواهده .

(٣) حديث صحيح رواه أحمد٦/ ٢٦٤،وأبو داود٣/ ٤١ كتاب الجهاد: باب السبق على الرجل .

لقد كان رسول الله ﷺ ، وهو إمام المسلمين وقائدهم ومعلمهم يمزح أحيانا ويمرح أحيانا أخرى ، رغم ما كانت تشغله من الأعباء القيادية الكبيرة التى يقوم بها لنشر رسالته وإنشاء أمته ، وإقامة دولته ، وتوجيه كتائب الجهاد ، وغير ذلك من الأعمال الجليلة ، ما كان يشغله هذا كله عن المداعبة اللطيفة والممازحة الممتعة ، يدخل بها السرور على نفوس أصحابه أحيانا ، وعلى نفوس زوجاته أحيانا أخرى .

ومن ذلك ما روته السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت : أتيت النبى ﷺ بحريرة قد طبختها له ، فقالت لسودة - رضى الله عنها - والنبى ﷺ بينى وبينها: كلى فأبت ، فقلت : لتأكلين ، أو لألطخن وجهك ، فأبت فوضعت يدى الحريرة ، فطليت وجهها ، فضحك النبى ﷺ ، فوضع بيده لها ، وقال لها : « الطخى وجهها ... » وفى رواية: فخفض لها ركبته لتستقيد منى ، فتناولت من الصحفة شيئا ، فمسحت به وجهى ، ورسول الله ﷺ يضحك[1] .

كل هذه الشواهد أيتها الأخت المؤمنة تدعوك إلى أن تكونى خفيفة الظل ، وهى دليل واضح بين على سماحة الإسلام وأهله ، وعلى ما يريده الإسلام لأبنائه وبناته من خفة ظل ، ومرح نفس ، وعذوبة روح.

واسألى نفسك ستجدين أن هذه الصفة وهى « خفة الظل » من الصفات المحببة إلى نفسك وإلى المرأة المسلمة المعاصرة ، فأنت إذا أردت أن تضيئين على شخصيتك مزيدا من الجاذبية والجمال والتأثير . ولعلك توافقين على أن كل زوجة محبة لزوجها مطيعة له مستعدة أن تفعل كل ما يرضى هذا الحبيب الذى حمل أبنائك اسمه ، وعشت فى كنفه تحمليه أجمل الذكريات ، تشعرين بدفء

---

(١) رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح ، خلا محمد بن عمرو بن علقمة ، وحديثه حسن انظر مجمع الزوائد ٤/ ٣١٦ .

قلبه ، ورقة حديثه ، وحبه الفياض لك ولأبنائك ، فهو يجد ويجتهد كى يسعد نصفه الحلو - كما يقولون - وهو أنت ومعك أطفالك فلذة أكبادك ، ألا يستحق هذا الحبيب منك أن تكونى خفيفة الظل مثل النسمة الخفيفة الرقيقة .

٣- شريكة أفراحه وهمومه :

أوصيك أن تكونى وزوجك على توافق تام ، فإذا جاء فرحا سعيدا كنت أول الذين يبادلونه هذا الشعور الطيب ؛ لأن مما تدخل به المرأة قلب زوجها فيحبها ملء عينيه وملء نفسه ، مشاركتها إياه فى أفراحه وأتراحه ، وفى همومه ومسراته .

إنها تشاركه بعض هواياته وأعماله اليومية . حبه للقراءة فتقبل على القراءة والاطلاع ومناقشته فيما يقرأ ، وحبه للرياضة حبها أيضا للرياضة ، تشاركه لعبته وتهنئ فوزه وتقدره أحسن التقدير ، فتستمع إلى حديثه فى هذه الرياضة استماعا جيدا مهتمة بما يقول .

كل هذه المشاركة فى الأفراح والأتراح تجعل زوجك يشعر بأنه عنصر مهم فى أسرة تهتم به وترعاه ، وأنه ليس وحده فى استمتاعه بالحياة الطيبة وبطيبات الحياة . فتبادله الزوجة هذه السعادة فتضفى مرحا وودا يملأ البيت والعين والقلب ، ولا تنسى أن تستمد كل هذا من بيت النبى الذى يسابق عائشة - رضى الله عنها - فتتطلع إلى حبه شغوفة قلقة من فتور هذا الحب ، فتسأله ملحة كلما شعرت بهذا الفتور حتى أنه ﷺ يقول له: « حبى لك يا عائشة كالعروة الوثقى » فتطمئن وترضى ، وكم تساءلت مع مضى الأيام وقالت للنبى ﷺ : أما زالت العروة الوثقى يا رسول الله فيرد صلوات الله وسلامه عليه بالإيجاب والتبسم لهذا الشعور بالحب والألفة بينه وبينها .

فهل لك أيتها الأخت المسلمة فى أن تحققى ما حققته عائشة - رضى الله

عنها- فجعلت حب الزوج الكريم محمد ﷺ كالعروة الوثقى أو الرباط القوى لا ينفرط عقده أبدا .

وكذلك نتساءل أيتها الأخت المسلمة هل عرفت عظمة مشاركة خديجة بنت خويلد بمالها لترضيه وبرأيها يوم بدء الوحى لتشجعه وتقويه فتقول : أبشر يا بن العم ، ودليلها على ذلك شمائل وخلق الرسول ﷺ ، ومنها أنه يقرى الضيف ويعين المحتاج ، وتذهب إلى ابن عمها ورقة لتستوثق منه ، وتعود مطمئنة إلى أن زوجها الحبيب هو صاحب الرسالة ونبى هذه الأمة التى سعدت بدعوته السمحة واستقامت بشريعته المحكمة.

٤- تتزين بالحياء وعفة النفس:

إذا كان الرسول ﷺ يقول: « الحياء لا يأتى إلا بخير » (١) ، وإذا كان عليه السلام يقول : «الحياء كله خير» أو قال : « الحياء خير كله » (٢) ،إذا كان النبى ﷺ يقول قوله الكريم هذا . فكيف لا تكون المرأة متصفة بالحياء .

ومن البديهى أن من طبيعة المرأة الحياء ، والحياء هو الخلق النبيل الباعث دوما على ترك القبيح ، والابتعاد عن التقصير فى حق أصحاب الحقوق ، وقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى الحياء ، كما وصفه الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى فقال - رضوان الله عليه : كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها ، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه فى وجهه (٣) .

وقد أشاد النبى ﷺ بخلق الحياء فى عدد من الأحاديث الشريفة مبينا أن الحياء خير فى كل الأحوال على صاحبه . كما ذكرنا فى بداية حديثه عن الحياء قوله ﷺ : « الحياء لا يأتى إلا بخير » ، « الحياء خير كله » ، « الحياء كله خير » .

---

(١) متفق عليه : رياض الصالحين : ٣٦٣ كتاب الأدب : باب فى الحياء وفضله .
(٢) صحيح مسلم ٢/ ٧ كتاب الإيمان : باب الحياء شعبة من الإيمان .
(٣) متفق عليه : رياض الصالحين : ٣٦٤ كتاب الأدب : باب فى الحياء وفضله .

وإذا عرفت أيتها الأخت المسلمة أن الحياء يقربك من الإيمان ، وبالتالى تكونين حب زوجك واحترامه وملء عينيه ، فلتسمعين حديث رسول الله ﷺ الثانى : عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « الإيمان بضع وسبعون شعبة - أو بضع وستون شعبة : فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[1] .

وعهد الناس بك أيتها الأخت المؤمنة كامرأة تدين دين الإسلام أنك صادقة تقية ، حيية مهذبة دمثة الخلق مرهفة الشعور رقيقة المشاعر ، لا يصدر عنها قول أو فعل يؤذى أحد من الناس ، أو يخدش كراماتهم . هذا الفعل العظيم والحياء الكريم يجعلك فى نظر زوجك حبيبة إلى نفسه ، قريبة إلى قلبه وإذا اتصف بهذا كله ستجدين حتما عرشا تجلسين عليه فى قلب زوجك ، وأنت تعرفين أن خلق الحياء المتأصل فى نفسك وطبيعتك ، والمعزز بمفهوم إسلامى يحجبك عن كل مخالفة شرعية ، ويدفع عنك كل انحراف فى معاملتك للناس ، لا حياء ولا خجلا منهم فحسب ، وإنما حياء من الله ﷻ ، وتحرجا أن تلبسى إيمانك بظلم ، إذ أن حياءك شعبة من شعب الإيمان ، وهذا أفضل وأجمل ما وصلت إليه المرأة التى تتخلق بخلق الحياء ، فتميزت أنت وأخواتك المسلمات المتصفات بالحياء عن المرأة فى بلاد الغرب الذى يدعى التحضر فخلعت كل براقع الحياء .

وإذا كنت بهذا الحياء ، فقد ارتويت من هدى دينك ـ وأصبحت صاحبة عفة وعزة نفس ، فالعفيفة عزيزة النفس ، مسلمة قوية الإيمان ، فإذا ما ألم بها ضيق ، ودهمتها فاقة ، تحلت بالصبر وتسلحت به ، واعتصمت بالعزة وعفة النفس ، وبذلت كل الجهد من أزمة الفاقة التى تعانين منها . وعزة النفس والعفة تدعوك ألا تفكرى إطلاقا فى موقف سؤال أحد أو الاستجداء من

---

(١) متفق عليه : رياض الصالحين : ٣٦٣ كتاب الأدب ، باب ٣٦٣ .

أحد ، ومن هنا يكمن سر حب زوجك لك ؛ لأنه سيرى فيك إسلاما صافيا إن شاء الله ، ذلك أن إسلامك يربا بك وبكل المسلمات الصادقات أن يضعن أنفسهن فى هذا الموقف ! ويهيب بك وبهن أن تستعفى وتستغنى وتصبرى ، وكذلك كل المسلمات ، وسيعينكن الله ويثبتكن جزاء صبركن وعفافكن ، وفى ذلك قول رسول الله ﷺ : « من يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر »[(١)].

أنك يا أختاه مستنيرة بتشريع دينك وبحديث رسولك ﷺ ووصاياه وهديه ؛ ولذلك فأنت تعلمين أن الإسلام الذى جعل فى أموال المسلمين الأغنياء حق للفقراء يقول تعالى : ﴿ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝ ﴾ [الذاريات: ١٩] يتقاضون هذا المال بغير منة ولا أذى ولا غضاضة ، وفى أمر الحاجة إلى المال دعا ديننا إلى عفة النفس التى يجب أن تكون مفخرة الزوج بزوجته عفيفة النفس ، وذلك لأن الرسول ﷺ عندما تحدث عن الصدقة والتعفف قال: « إن اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليا هى المنفقة والسفلى هى السائلة»[(٢)].

٥- غضى الطرف عن غيره :

كما تحبين زوجك فإنه يحبك ، وكما تغارين عليه يغار عليك ، والأنثى غيرى بفطرتها ، والرجل غيور أيضا ، وتصورى نفسك لو كنت فى مكان أو مجلس ووجدت عينا زوجك تذهب إلى أخرى والعياذ بالله ، فماذا يتحرك بداخلك ، لذلك فأنت ربما تدعى زوجك إلى غض الطرف عن غيرك من النساء حفاظا عليه وعلى أسرتك.

---

(١) متفق عليه : انظر رياض الصالحين : ٣٥ باب الصبر .
(٢) صحيح مسلم ٧/ ١٢٤ كتاب الزكاة ، باب أن اليد العليا خير من السفلى .

والمرأة المسلمة المؤمنة تغض الطرف عن غير زوجها ، فلا تحد النظر إلى الرجال من غير المحارم ، عملا بقول الله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ [النور:٣١] ، وهنا أوجه إليك سؤالا هاما يقول: هل تحبين أن يصفك الناس بصفات نساء أهل الجنة؟ بالطبع ستقولين: نعم ، وتسرعين فى الإجابة - وهنا ربما تقولين : وكيف يكون ذلك الشرف؟ وأجيبك بأن المؤمنة المسلمة التى تلتزم بغض بصرها عن غير زوجها تكون قاصرات الطرف ، وهى الصفة المحببة إلى الرجال فى المرأة ؛ لأنها تدل على نظافة الشعور وعفته وسلامة النظر وأمانته ، بل دعينى أقول لك : إنها من أجمل صفات المرأة الطاهرة المسلمة العفيفة التى تحصن نفسها ؛ ولذلك نوه بها القرآن الكريم فى سياق الحديث عن نساء الجنة وصفاتهن المحببة للرجال ، ومنها صفة غض الطرف فيقول ﷻ : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝ ﴾ [الرحمن:٥٦].

٦- لا تصفى له امرأة غيرك :

الوصية السادسة هامة وضرورية ؛ لأنها قد تقع فيها أخواتنا دون أن تدرى خطورة هذا الأمر على علاقتها بزوجها ، هذه الوصية تقول محذرة ومنبهة : احترسى من وصف امرأة لزوجك.

ولم تأت وصيتنا هذه الهامة من فراغ فقد تحدث عنها الهدى النبوى منهى عنها فى الإسلام لقول رسول الله ﷺ : « لا تباشر المرأة المرأة ، فتنعتها لزوجها ، كأنه ينظر إليها »[١].

وأنت كامرأة مسلمة وكفتاة مؤمنة تتميزين بتفكير ناضج وفكر مستنير بهدى دينك ، قوية الشخصية ، وجادة فى سلوكك فعليك أن تنتبهى لكل ما

---

(١) انظر الفتح ٩/ ٣٣٨ كتاب النكاح : باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها .

ينفر زوجك منك أو يبعده عنك ، لكل هذا عليك ألا تصفى امرأة لزوجك ؛ ذلك لأن الإسلام يريد للضمائر أن تقر ، وللقلوب أن تهدأ ، وللأفكار والخواطر والتخيلات المثيرة أن تحد ، لينطلق الإنسان فى حياته سويا مطمئنا هانئ البال ، ميسرا لما خلق له من تكاليف وأعمال ، ولا ينشغل فكره فى مقارنات تافهة بين الواصفة والموصوفة ، ولا يطيش صوابه لما يزينه له خياله من تلك المقارنات ، ولا تضطرب نفسه وتتعطل مواهبه وأعماله بسبب لغو من القول ، وفضول من الكلام ، قد يؤدى إلى الفتنة والضلال ، فاحترسى يا أختاه.

٧- تبر أم زوجها وتكرم أهله :

إن من أكثر ما تتقربين لزوجك هو برك بأم زوجك ، ولو نظرت إلى مردود هذا البر ستجديه مضاعفا فجزاءه عند الله أولا ثم عند الزوج بعد ذلك ، وكانت نساء الصحابة تبر أمهات أزواجهن وتثنى عليهن ثناء عظيما ، وفى حديث أم زرع الذى روته عائشة - رضى الله عنها[(١)] تقول أم زرع عن حماتها (أم زوجها أبو زرع) وأهله وأبنائه : قالت أم زرع : أم أبى زرع فما أم أبى زرع؟ عكومها رداح- بمعنى أوانى طعامها واسعة كبيرة دليل على كرمها - وبيتها فساح . ثم أضافت أم زرع : ابن أبى زرع ، فما ابن أبى زرع ؟ مضجعه كمسل شطبه (كالسيف سل غمده) ويشبعه ذراع الحفرة بمعنى أنه قليل الأكل . بنت أبى زرع فما بنت أبى زرع ؟ طوع أبيها وطوع أمها ، وملء كسائها (ممتلئة الجسم سمينة) وغيط جارتها[(٢)] حتى الجارية ... جارية أبى زرع فما جارية أبى زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثا - بمعنى أنها تكتم سرنا

---

(١) رواه مسلم وهو بكامله فى مسند عائشة وشرحه النووى فى الجزء ١٥ من شرحه ص ٢١٢ ، وانظر كتابنا حكايات أم زرع . ط دار ابن كثير دمشق .

(٢) غيط جارتها : غيط ضربتها مما ترى من حسن وجمال ، وعفة وأدب .

ولا تظهره - ولا تنفث ميرتنا تنقيثا[١] ولا تملأ بيتنا تعشيشا[٢] .

هكذا وصفت أم زرع بيت أبى زرع وأسرته : أمه وبناته وأبنائه وحتى جاريته وهذا يدل على برها بأمه وأهله .

ومن بر المرأة المسلمة الحصيفة وحسن معاشرتها زوجها . إكرام أمه واحترامها وتقديرها ، ذلك أن المرأة المسلمة الواعية تهتدى بشريعة دينها وتدرك تمام الإدراك أن أعظم الناس رضى الله عنها الذين يبرون آبائهن وأمهاتهن ، فبرك بأمه مشاركة وتيسير له على البر بأمه ، ومن ثم رضاه عن نفسه ورضاه عنك ؛ ولذلك فهو يكن لك حبا ما بعده حب وودا ما بعده ود . فإذا أبرت الزوجة أم زوجها ، فهى تعينه على إكرام أمه وبرها وبإكرامها هى أيضا لأمه وبرها ، فهى بذلك محسنة لنفسها ومحسنة لزوجها ، ومعينة على البر والتقوى والعمل الصالح الذى أمر به القرآن الكريم ، وفى الوقت نفسه تكون محل تقدير واحترام عند زوجها ، فهو يقدر برها وإكرامها لأهله جميعا وأمه على وجه الخصوص.

وما من شيء أحب إلى قلب الرجل الكريم الملتزم من أن يرى زوجته تكن ودا واحتراما وتقديرا متصلا ومتواصلا من زوجة لأمه وأهله.

وما من شيء أبغض إلى الرجل من أن يرى العلاقة بين أمه وزوجة علاقة متفككة متقطعة ، ففى ذلك استحكام للشر داخل الأسرة ، وطريق للحقد والضغينة والكيد بين زوجه وأهله ، ولكن النساء المؤمنات العارفات لدينهن حق المعرفة ، لا يجد الشيطان له طريقا بينهن.

---

(١) ولا تنقث ميرتنا تنقيثا : الميرة الطعام المحلوب ومعناه لا تفسده ولا تذهب به ، ومعناه وصفها بالأمانة .

(٢) ولا تملأ بيتنا تعشيشا : نظيفة لا تنثر القمامة ، انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٥/ ٢٢٠ .

ولتكن المرأة المسلمة الواعية الحكيمة على استعداد للتعامل مع حماتها (وهى أم زوجها) وأحمائها (وهم أهل زوجها) حتى وإن كانوا على خلق الإسلام ، فعليها بالحكمة والتلطف ، اللباقة والمجاملة والكياسة ، وتقديم الحسن وسعة الصدر ، والحرص على تحقيق التوازن فى علاقاتها بهم وبهن جميعا.

ولا بد للزوج أن يستقبل هذا الموقف الإيجابى لزوجته ، بالتقدير والاحترام وإلا لو أنه أساء العشرة ، وقصر فى واجباته الزوجية فهذا شيء آخر .

فالكل يعلم أن شريعتنا السمحاء وديننا الإسلامى العظيم قد نظم العلاقة الزوجية ، فجعل لكل من الزوج والزوجة حقوقا ، وبالمقابل جعل عليها واجبات- فواجبات الزوجة هى طاعة الزوج وإكرامه ورعايته والبر بأمه وأهله .

وفى المقابل فإن لها حقوق ، من ذلك : صون كرامتها ، وحفظ شخصيتها من كل عبث أو إهمال أو امتهان أو ظلم ، وبالتالى فإن حقوقها جميعا تعد من واجبات الزوج ، فعليه أن يعطيها هذه الحقوق كاملة.

ومن واجبات الزوج المسلم : أن يحسن القوامة على زوجته ، ولا يتحقق له هذا الإحسان إلا إذا كان رجلا ناجحا فى قيادته لبيته وأسرته . بما اتصف به من صفات رجولية محببة للمرأة ، مثل لين الجانب من غير ضعف ، وقوة شخصية من غير عنف ، وخلق عال دمث ، وسماحة ورقة ، وكذلك عليه أن يتفاضى عن كل هفوة يراها ولا يجعل منها موقفا متأزما .

وعلى الزوج أن يقود دفة سفينة أسرته قيادة بحار ماهر . وعليه أن يتصف بالبذل والسخاء فى غير سرف ولا تبذير . وعليه أن يحترم مشاعر زوجته احتراما يشعرها بالحب والتقدير لهذا الزوج.

وإذا وضع الزوج نصب عينيه إرضاء زوجته ، فإنه يشعرها بالمسئولية معه فى تدبير شئون البيت ، وتربية الأطفال والتعاون على بناء الأسرة المسلمة التى نظم أركانها الإسلام بشرائعه العظيمة .

نعود إلى وصيتنا هذه والتى تحدثنا فيها عن علاقة الزوجة بحماتها وأم زوجها وكذلك أهله ، ونجد لها أهمية خطيرة تجعلنا نؤكد على أن هذه العلاقة لو اكتملت على أسس من الحب والتقدير والاحترام المتبادل بين الطرفين ، واهتمام من الزوجة ، فإن أسرة كهذه لا بد وأن يسودها الحب ، ويتحرك لها القلب ، وخاصة قلب زوجك ، الذى لابد أن تحرصى على أن تكونى ملء هذا القلب لتصبحى ملء عينى زوجك وحبه المتجدد على مر العمر والعشرة .

٨- تزينى لزوجك:

أختى المسلمة ، الإسلام دين الفطرة ، فليس فى أحكامه شيء قط يخالف الفطرة ، فكل أحكامه وتشريعاته تلائم الفطرة السليمة وتناسبها ، بل وإنها تستدعى هذه التشريعات ، فإباحة الزينة للمرأة تلبية لفطرتها ، فكل أنثى مولعة بأن تكون جميلة وأن تبدو جميلة ، والزينة تختلف من عصر إلى عصر ، ولكن أساسها فى الفطرة واحد وهو : الرغبة فى تحصيل الجمال أو استكماله . والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية ، ولكن ينظمها ويضبطها ويجعلها تتبلور فى الاتجاه بها إلى رجل واحد هو شريك الحياة ، أى زوجها ، يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه[١] .

مشروعية الزينة: الزينة فى الأصل مباحة بجميع أنواعها إلا ما خصه الدليل ، وأخرجه عن درجة الإباحة ، فقد جاء فى « تفسير الرازى » أن جميع

(١) فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ١٨/ ٩٥ .

أنواع الزينة مباح مأذون إلا ما خصه الدليل ، أي: منعه ونهى عنه[١]. وفي فتح البيان[٢] ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التى لها مدخل في الزينة ، ولم يمنع منها مانع شرعى[٣].

وهذه الإباحة فى الزينة تشمل الرجل والمرأة فيتزين كل منهما بما هو مباح له : الرجل بما هو مباح له من الزينة ويناسبه كرجل ، والمرأة بما يباح لها من الزينة ويناسبها كامرأة .

والزينة تأتى اصطلاحا شرعيا أو فى الاصطلاح الشرعى ـ فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ [الأعراف: ٣٢] . قال الزمخشرى والآلوسى: المراد بالزينة فى الآية الكريمة: اللباس وكل ما يتجمل به[٤].

وأوصيك أيتها الأخت المسلمة بأن تتزيني لزوجك بكل ضروب الزينة والحلى ، بحيث تبدين جميلة أنيقة فاتنة رائعة الجمال ، تسرى عين زوجك ، وتدخلى السرور على قلبه ، وتترعى نفسه بالسعادة والحبور .

والزينة مستحبة للمرأة ذات الزوج الحاضر معها وليس الغائب عنها ، يدل على ذلك الحديث الشريف الذى أخرجه الإمام أحمد ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: كانت امرأة عثمان بن مظعون تخضب وتتطيب فتركته فدخلت على فقلت : أمشهد أم مغيب؟ فقالت : مشهد ، عثمان لا يريد الدنيا ولا يريد النساء . قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فدخل على رسول الله

---

(١) تفسير الرازى ١٤/ ٦٣ .
(٢) فتح البيان فى مقاصد القرآن ، لصديق حسن خان ٣/ ٣١١ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) تفسير الزمخشرى ٢/ ١٠١ وتفسير الآلوسى ٨/ ١١١ .

ﷺ فأخبرته بذلك ، فلقى عثمان ، فقال « يا عثمان تؤمن بما نؤمن به ؟ » قال : نعم يا رسول الله . قال : « فأسوة مالك بنا »(١).

وقولها: (أمشهد أم مغيب) أى : أزوجك شاهد أم غائب . والمراد من هذا القول : أن ترك الخضاب والطيب إن كان لأجل غيبة الزوج فذاك ، وإن كان لأمر آخر مع حضوره فما هو ؟ فأخبرتها أن زوجها لا حاجة له بالنساء فهى فى حكم من لا زوج لها ، واستنكار عائشة ، عليها ترك الخضاب والطيب يشعر بأن ذوات الأزواج يحسن منهن التزين للأزواج بذلك ، أى بالخضاب والطيب (٢) .

حكمة استحباب الزينة للزوجة: وحكمة استحباب الزينة للزوجة هو لأجل أن تحلو فى عين زوجها ، وتشعر بأنها تحبه وتتزين له ، وبهذا ونحوه وغيره تدوم المودة والمحبة بين الزوجين ، ودوام المودة والمحبة بينهما من مقاصد الشرع الإسلامى ، والمسلمة الفاهمة لمقاصد الإسلام لا تغفل عن هذا المقصد فهى تتزين لزوجها فى البيت ، لا أن تترك التزين له فى البيت ، وتفعله إذا خرجت من البيت ، كما تفعله الزوجة الجاهلة: تترك التزين لزوجها فى البيت ، فإذا خرجت تزينت وتطيبت ، فكأنها تفعل ذلك للأجانب ولا سيما إذا أخذت برخصة كشف الوجه واليدين(٣).

وقد كانت نساء السلف الصالحات ، العاكفات على عبادة ربهن وتلاوة كتابه ، وعلى رأسهن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وغيرها ، فقد كن يرتدين الثياب الفاخرة ، ويتخذن الحلى فى الحضر والسفر ، تجملا لأزواجهن.

---

(١) نيل الأوطار للشوكانى ٦/ ١٩٣ .
(٢) المصدر السابق ص : ١٩٣، ١٩٤ .
(٣) المفصل د/ عبد الكريم زيدان ٣/ ٣٤٨ .

وقد دخلت - بكرة بنت عقبة على أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - فسألتها عن الحناء ، فقالت : شجرة طيبة وماء طهور . وسألتها عن الحفاف (أى إزالة الشعر) فقالت لها : إن كان لك زوج ، فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيها أحسن مما هما فافعلى(١) .

ومن مظاهر الزينة: الحلى والكحل والطيب والخضاب (صبغ الشعر) وغيرها وسوف نناقش شرعية كل مظاهر الزينة وأدواتها من حيث الإباحة والنهى حسبما ورد فى كتب الفقه ؛ لأن الإسلام جعل لكل شيء ضوابط فى الإباحة والتحريم بما يتناسب وفطرة الإنسان سواء أكان رجلا أم امرأة:

١- الحلى:

التزين بالحلى: الحلى ما يتزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة ، والجمع حلى ، قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف:٣١] وعن أبى موسى الأشعرى ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : « حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتى وأحل لإناثهم »(٢) رواه الترمذى ، وجاء فى شرحه : المراد بالذهب حليه ، وكذا حلى الفضة مختص بالنساء ، إلا ما استثنى للرجال كالخاتم من الفضة ونحوه(٣) .

والفضة وإن لم يرد ذكرها فى الحديث إلا أن العلماء قالوا بحل الحلى من الفضة للمرأة ، فقد قال الإمام النووى رحمه الله: « وأما النساء فيباح لهن لبس الحرير وجميع أنواعه ، وخواتيم الذهب وسائر الحلى منه ، ومن الفضة سواء الزوجة وغيرها والشابة والعجوز ، والغنية ، والفقيرة »(٤) ، بل إن حلى

---

(١) أحكام النساء لابن الجوزى : ٣٤٣ .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ٥/ ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، وأخرجه أبو داود فى سننه ١١/ ١٠٧ ، وابن ماجة فى سننه ٢/ ١١٨٩ .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووى : ١٤/ ٣٢ .

الفضة كان مستعملا من قبل النساء فى زمن النبى ﷺ ، فقد جاء فى صحيح البخارى » عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : خرج النبى ﷺ يوم عيد فصلى ركعتين لم يصل قبلها ولا بعدها ، ثم أتى النساء فأمرهن بالصدقة ، فجعلت المرأة تتصدق بخرسها وسخابها » (١) .

ويباح للنساء من حلى الذهب والفضة كل ما جرت عادتهن بلبسه مثل : السوار والخلخال والقرط والخاتم ، وما يلبسنه على وجوههن وفى أعناقهن وأيديهن وأرجلهن وآذانهن وغيرها ، فأما ما لم تجر عادتهن بلبسه كالمنطقة وشبهها من حلى الرجال فهو محرم عليهن(٢) . وفى زمن النبى ﷺ كانت نساء الصحابة يلبسن مختلف أنواع الحلى ، وقد روى المحدثون ذلك ، فمنه ما جاء فى صحيح البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما- قال : « شهدت العيدين مع النبى ﷺ فصلى قبل الخطبة ، فأتى النبى ﷺ النساء فأمرهن بالصدقة ، فجعل يلقين الفتخ والخواتيم فى ثوب بلال ، والفتخ - بفتح الفاء - جمع فتخة وهى الخواتيم التى تلبسها النساء فى أصابع الرجلين ، وقيل : الخواتيم التى لا فصوص لها ، وقيل : الخواتيم الكبار ، ويباح لها لبس الخاتم ، فقد روى البخارى عن القاسم بن محمد قال : رأيت - والله - عائشة - رضى الله عنها - تلبس المعصفر وتلبس خواتيم الذهب(٣) .

وفى رواية عن ابن عباس أخرجهما البخارى ، وفيها: ... ثم أتى النبى ﷺ فأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تصدق بخرصها وسخابها ، والخرص ، بضم الخاء وسكون الراء وهى الحلقة الصغيرة من ذهب أو فضة ، وسخابها هو قلادة من عنبر أو قرنفل أو غيره ، ولا يكون فيه خرز ، وقيل : هو خيط فيه

---

(١) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١٠/ ٣٣٠ .
(٢) المغنى ٣/ ٤٣ ، ٤٤ ، المجموع ٤/ ٣٣٣ ، ٦/ ٣٦، ٣٧ .
(٣) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ٢/ ٤٥٤ .

خرز وسمى سخابا لصوت خرزه عند الحركة مأخوذ من السخب وهو اختلاط الأصوات (يلفظ بالصاد والسين)[١] .

وفى رواية أخرى لهذا الحديث : أن النبى ﷺ صلى يوم العيد ثم أتى النساء ومعه بلال ، فأمرهن بالصدقة ، فجعلت المرأة تلقى قرطها ، والقرط مما يوضع فى أذن المرأة مما يجوز لها التحلى به[٢] .

وفى صحيح البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : هلكت قلادة لأسماء فبعث النبى ﷺ فى طلبها رجالا ...[٣] .

وإذا عدنا إلى ضرورة تزين المرأة لزوجها وتأملنا قول أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها : « إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيها أحسن مما هما فافعلى »[٤] .

فإننا نتوجه بهذا القول للأخوات اللاتى يهملن زينتهن لأزواجهن ، ويأتين هذه الزينة لرفيقاتهن وصويحباتهن ، ونقول : إن التقصير فى التزين للزوج هو إثم وذنب ؛ لأنهن يخالفن شرع الله ، ويخللن بواجب كبير من واجبات الزوجية ، وقد يكن بإهمالهن هذا سببا فى انحراف أزواجهن عنهن والنظر إلى غيرهن من النِسَاء ، فإذا وقع بصر زوجك منك على شعر أشعث منقوش ووجه أصفر شاحب ، وثوب قميء مهلهل ، فأنت زوجة عاقة ، والأدهى أنه قد تتزينين حين تستقبلين ضيوفا ، أو حين تذهبين لحفل يجتمع فيه نساء ، فى الوقت الذى تهملين فيه زينتك لزوجك .

فإذا كنت زوجة مستنيرة بهدى دينك وعارفة بواجباتك الشرعية الصحيحة فلا أعتقد أنك ستهملين زينتك لزوجك ؛ لأنك بارة بزوجك ، محبة له.

---

(١) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١٠/ ٣٣٠ .
(٢) المصدر السابق ١٠/ ٣٣١ .
(٣) المصدر السابق ١٠/ ٣٣٠، ٣٣١ .
(٤) أحكام النساء لابن الجوزى ص ٣٤٣ .

واعلمى يا أختاه أنه من هدى هذا الدين القيم الذى تدينين به أن تتزينى لزوجك وتتجملى ، بحيث لا يرى منك إلا ما يحب ؛ ولذلك حرم على المرأة المسلمة أن تظهر فى ملابس الحداد القاتمة فوق ثلاثة أيام ، إلا على زوجها ، فقد أذن لها بالحداد عليه أربعة أشهر وعشرا ، ونجد ذلك فى حديث الرسول الكريم ﷺ الذى رواه البخارى عن زينب بنت أم سلمة ، قالت : دخلت على زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ حين توفى أخوها فدعت بطيب فمست ، ثم قالت : ما لى بالطيب من حاجة ، غير أنى سمعت الرسول ﷺ على المنبر يقول : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا »(١).

الكحل والخضاب والطيب :

الكحل والخضاب والطيب من الزينة للمرأة ، وقد يباح بعضها للرجل كالطيب ، وسوف نعرض رأى المشرع فى كل منهما:

أولا : الكحل والخضاب :

الكحل مسحوق ناعم جدا يوضع فى العين فيعطيها سوادا ، والكحل ما وضع فى العين يستشفى به(٢).

أما الخضاب فهو يختضب به من حناء وكتم ونحوه ، وكل ما غير لونه فهو مخضوب وخضيب .

وعلى هذا يعرف الخضاب بأنه كل ما يصبغ به ويتغير به لون الشيء المصبوغ .

هل الكحل مباح؟ وللإجابة على هذا السؤال نورد الحديث الذى أخرجه

---

(١) فتح البارى ٩/ ٤٨٤ كتب الطلاق : باب إحداد المتوفى عنها زوجها.

(٢) انظر لسان العرب ١٤/ ١٠٣ .

الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس قال : كانت عند النبى ﷺ مكحلة يكتحل منها ثلاثا فى كل عين .

وعن ابن عباس أيضا قال : خير إكحالكم الإثمد يجلو البصر وينبت الشعر[١] .

وأخرج ابن ماجة فى سننه عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: « من اكتحل فليوتر، ومن فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج »[٢].

ويفهم من هذه الأحاديث الشريفة إباحة استعمال الكحل للرجال والنساء أما إباحته للرجال فظاهر من هذه الأحاديث ، وأما للنساء ، فلأنه من أنواع الزينة المباحة ؛ ولأن الحديث الثالث: « من اكتحل فليوتر » عموم يشمل الرجال والنساء.

وقد قرر الفقهاء إباحة الاكتحال للرجال والنساء ، وتكلموا عن مدى إباحته فى الإحرام للرجل والمرأة ، فقد جاء فى المغنى لابن قدامة الحنبلى: « الكحل بالإثمد فى الإحرام مكروه للمرأة والرجل » وقال مجاهد : هو زينة وروى عن ابن عمر أنه قال : يكتحل المحرم بكل كحل ليس فيه طيب ، وروى عن عائشة أنها قالت لامرأة : اكتحلى بأى كحل شئت غير الإثمد والأسود ، وروت شميسة عن عائشة قالت : اشتكيت عينى وأنا محرمة ، فسألت عائشة فقالت : اكتحلى بأى كحل شئت غير الإثمد ، أما إنه ليس بحرام ولكنه زينة فنحن نكرهه ، فأما الكحل بغير الإثمد فلا كراهة فيه ، ما لم يكن فيه طيب[٣] .

---

(١) جامع الترمذى ٥/ ٤٤٧، ٤٤٨ ، وسنن ابن ماجة ٢/ ١١٥٧ . والإثمد : هو الكحل الأسود أو هو حجر الكحل ، وهو حجر معروف أسود يضرب على الحمرة يكون فى الحجاز ، وأجوده يؤتى به من أصفهان .

(٢) سنن ابن ماجة ٢/ ١١٥٧ .

(٣) المغنى ٣/ ٣٢٧، ٣٢٨ .

وتكلم الشافعية عن الاكتحال فى الإحرام وهل يجتنبه المحرم أو المحرمة فقالوا: « ... ويكره للمحرمة الاكتحال بالإثمد ، أشد من كراهته ؛ للرجال لأن ما يحصل به من الزينة أكثر من الرجل ، فإن اكتحل به رجل أو امرأة فلا فدية بلا خلاف[١] .

وواضح من هذا الكلام أن الكحل مباح استعماله للرجل والمرأة ، وإنما يكره استعماله فى الإحرام للمحرم والمحرمة . وقال المالكية : لا بأس بالكحل للنساء ويكره للرجال[٢] . ولكن قولهم بكراهة الكحل للرجال قول مرجوح لأن الأحاديث التى ذكرناها تدفع فى هذا القول ؛ لدلالتها على إباحته للرجال والنساء.

ثانيا : الخضاب لتغيير الشيب :

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : أتى بأبى قحافة - والد أبى بكر الصديق- يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بياضا ، فقال ﷺ : « غيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد » .

وأخرج الإمام مسلم أيضا عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم »[٣] .

وقال النووى فى شرحه لهذين الحديثين : ومذهبنا استحباب خضاب الشيب للرجل والمرأة بصفرة أو حمرة ويحرم خضابه بالسواد على الأصح ، وقيل : يكره كراهة تنزيه والمختار التحريم لقوله ﷺ : « واجتنبوا السواد»[٤] .

---

(١) المجموع ٧/ ٣٦٠ .
(٢) التاج والإكليل للمواق ١/ ١٩٧ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١٤/ ٨٠ .
(٤)صحيح مسلم بشرح النووى ١٤/ ٨٠ .

وقد رجح العلماء[١] جواز الصبغ بالسواد للمرأة المتزوجة ، سواء كان هذا الخضاب لتغيير لون شعرها أو لتغيير لون شيبها ، إذا كان الخضاب بالسواد متناسبا لها ولطبيعة شعرها ، وكان فى ذلك زينة لها وتحسينا لمنظرها ؛ لأن الزينة مستحبة للزوجة وليس فى صبغ شعرها بالسواد أو بغيره أو إخفاء شيبها بهذا الخضاب أقول : ليس فيما ذكرته[٢] أى تغرير بالزوج ، ولا أى تدليس أو خداع له ، فهو يعرفها ويعرف عمرها ، وإنما تفعل ذلك لتتزين له ، وهذا المقصد مرغوب فيه شرعا ويدعو إلى الترخص لها بالخضاب بالسواد أو بغيره ، جاء فى المغنى لابن قدامة الحنبلى : « ورخص فيه- أى فى الصبغ بالسواد - إسحاق ، للمرأة أ ن تتزين به لزوجها[٣] .

أما إذا كانت المرأة غير متزوجة فالذى يميل إليه العلماء[٤] عدم جواز صبغ شعرها بالسواد أو بغيره ابتعادا عن شبهة التدليس والتغرير بمن يتقدم لخطبتها لاسيما إذا كان فى شعرها شيب يخفيه الخضاب ، فإذا بقى شعرها على طبيعته انتفى عنها بالكلية أى معنى من معانى من التدليس والتغرير ، أما إذا اختضبت وتغير لون شعرها ثم تزوجت ، وانكشف وظهر لون شعرها على طبيعته وعلى أصله ، فربما يكون ذلك سببا لنفرة زوجها منها لاعتقاده أنها دلست عليه وغرته ، وربما حمل هذا على ازدرائها وكراهتها ، وفى هذا أذى لها هى فى غنى عنه.

هذه هى آراء العلماء الراجحة فى صبغ الشعر بالسواد أوردها العلماء بأدلتها الفقهية.

---

(١) المفصل د/ عبد الكريم زيدان ٣/ ٣٥٧ .

(٢) المصدر السابق د/ زيدان .

(٣) المغنى ١/ ٩٢ .

(٤) د/ زيدان مصدر سابق ٣/ ٣٥٨ .

خضاب اليدين للمرأة : أخرج أبو داود عن عائشة - رضى الله عنها - أن هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان - وقد أسلمت يوم فتح مكة بعد إسلام زوجها - قالت : يا نبى الله ، بايعنى . قال: « لا أبايعك حتى تغيرى كفيك كأنهما كفا سبع » ومعنى حتى تغيرى كفيك أى بالحناء ، ومعنى وكأنهما كفا سبع شبه يديها حين لم تخضبهما بكفى سبع فى الكراهية ، لأنهما حينئذ شبيهة بالرجال ؛ لأن الرجال لا يجوز لهم خضاب الكفين[١].

وفى حديث أخرجه أبو داود عن عائشة قالت : أو مأت امرأة من وراء ستر بيدها كتاب إلى رسول الله ﷺ ، فقبض رسول الله ﷺ يده فقال : ما أدرى أيد رجل أم يد امرأة ؟ قالت: بل امرأة . قال ﷺ : « لو كنت امرأة لغيرت أظفارك ، يعنى بالحناء » .

وجاء فى شرح هذا الحديث لو كنت امرأة مراعية شعار النساء لغيرت أظفارك أى خضبيها بالحناء ، وهو تفسير من عائشة أو غيرها من الرواة ، وفى الحديث دلالة على شدة استحباب الخضاب بالحناء للنساء[٢].

وتدل الأحاديث التى أوردناها على جواز خضاب يدى المرأة ، وهذا الخضاب يكون بالحناء كما جاء فى بعض الآثار ، كما أن بعض هذه الآثار يدل على استحباب الخضاب لذات الزوج ، كما فى حديث عائشة مع زوجة عثمان بن مظعون.

وقد قال الشافعية فى الخضاب للزوج نفسه ، أو لذات الزوج: « إن كان لها زوج استحب الخضاب فى كل وقت لأنه زينة وجمال ، وهى مندوبة إلى الزينة والتجمل لزوجها فى كل وقت »[٣].

(١) عون المعبود فى شرح سنن أبو داود ١١/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
(٢) عون المعبود ١١/ ٢٣٣ ورواه النسائى فى سننه ٨/ ١٢٢ .
(٣) المجموع ٧/ ٢٢١ .

وعند المالكية يستحب الخضاب لذات الزوج[١].

وعند الحنفية: يجوز الخضاب للمرأة ولم يقيدوا أن يكون ذلك لذات الزوج أم لا[٢].

الخضاب لغير ذات زوج: وقد أجازه المالكية ، وكرهه الشافعية لخوف الفتنة ، إلا إذا أرادت الإحرام ، وقد قال المالكية: الخضاب بالحناء للتى لا زوج لها جائز ، وللمعتدة حرام ، ولذات الزوج مستحب[٣].

وقال الشافعية: وإن كانت غير ذات زوج ولم ترد الإحرام كره لها الخضاب من غير عذر ؛ لأنه يخاف الفتنة عليها وعلى غيرها بها[٤].

الخضاب للمحرمة:

لمن أرادت الإحرام أن تختضب ، بل يستحب لها ذلك سواء كانت ذات زوج أم لا ، وهذا عند الشافعية ، فقد جاء فى المجموع : قال الشافعى: أحب المرأة أن تختضب للإحرام ، واتفق الأصحاب - أى الشافعية - على استحباب الخضاب لها . وقال أصحابنا - أى الشافعية : وسواء كان لها زوج أم لا ؛ لأن هذا مستحب بسبب الإحرام فلا فرق بينهما[٥].

وعند الحنابلة: يستحب لمن أرادت الإحرام أن تختضب ، ويجوز لها الاختضاب وهى محرمة ، فقد جاء فى المغنى « لابن قدامة الحنبلى » : ويستحب للمرأة أن تختضب بالحناء عند الإحرام كالطيب ، ولا بأس بالخضاب فى حال إحرامها ، لما روى عن عكرمة أنه قال : كانت عائشة

---

(١) التاج والإكليل للمواق - فى فقه المالكية ١/ ١٩٧ .

(٢) الفتاوى الهندية ، فى فقه الحنفية ٥/ ٣٥٩ .

(٣) التاج والإكليل ١/ ١٩٧ .

(٤) المجموع ٧/ ٢٢١ .

(٥) المجموع ٧/ ٢٢١ .

وأزواج النبى ﷺ يختضبن بالحناء وهن حرام ؛ ولأن الأصل فى الخضاب الإباحة ، وليس هنا دليل يمنع ذلك »[١] .

مقدار ما يختضب من يدى المرأة :

وحيث اختضبت المرأة فإنها تختضب يديها إلى الكوعين ولا تزيد عليه ؛ لأن هذا المقدار هو الذى يظهر منها وبهذا صرح الشافعية ، وبين وأن قول الآخرين مثل قولهم ؛ لأن العرف فى خضاب وعادتهن فيه أنهن يختضبن إلى الكوعين ، ولا يزدن عليه ، بل ربما كان خضابهن المعتاد دون الكوعين .

خضاب القدمين للمرأة:

١- عند الشافعية: يجوز للمرأة أن تخضب قدميها إن كانت متزوجة ، ولا يجوز لها إن كانت غير متزوجة ، ويستحب الخضاب أن يكون بالحناء ، وهذا كله عند الشافعية ، فقد جاء فى المجموع فى فقه الشافعية : أما خضاب اليدين والرجلين بالحناء فمستحب للمزوجة من النساء ، للأحاديث المشهورة فيها[٢] .

« وقولهم : باستحبابه للمتزوجة يفهم منه عدم استحبابه لغير المتزوجة ، بل ويمكن أن يقال : يكره لها ذلك خوفا من الفتنة ، قياسا على ما قالوه بكراهة خضاب اليدين لغير المتزوجة ؛ ولأنها ليست بحاجة إلى مثل هذه الزينة وهى ليست لذات زوج »[٣] .

٢- عند الحنفية: وقال الحنفية بجواز خضاب الرجلين للنساء دون أن يفرقوا بين المتزوجة وغيرها ، فقد جاء فى الفتاوى الهندية فى فقه الحنفية:

---

(١) المغنى ٣/ ٣٣١ .
(٢) المجموع ١/ ٣٥٢.
(٣) د/ عبد الكريم زيدان فى المفصل ٣/ ٣٦١ .

« ولا ينبغى خضب الصبى الذكر ورجله إلا عند الحاجة ويجوز ذلك للنساء»[(١)] ولم يفرقوا بين الزوجة وبين غير ذات الزوج ، ومعنى ذلك أنه يجوز الخضاب للنساء مطلقا .

مقدار ما يخضب من قدمى المرأة : أما ما يخضب أو مقدار ما يخضب من قدمى المرأة لا يتجاوز الكعبين قياسا على ما قالوه فى مقدار ما يخضب من يدى المرأة وهو أنه للكوعين ، ولأن عادة النساء فى خضب أرجلهن أنهن لا يتجاوزن به الكعبين ، بل إن الغالب فى خضبهن وقوعه فى باطن القدمين مع شيء قليل من ظاهره.

ثالثا : الطيب :

ومن وصايانا فى الزينة هو التطيب للزوج مما يجعلك محببة إلى قلبه كلما مر أو اقترب منك لا يشم إلا نسمات طيبة رقيقة قد يسعد باختيارك لها .

ما معنى الطيب: الطيب فى اللغة كل ما تستلذه الحواس أو النفس ، والطيب : كل ما يتطيب من عطر ونحوه والجمع أطياب وطيوب[(٢)] .

ونريد بالطيب هذا ما يستعمله الإنسان من مواد يمسح بها شعره أو بدنه من مواد لرائحتها الذكية الطيبة . أو ما يشمه أو يحمله من فعل هذه المواد كالمسك مثلا .

واستعمال الطيب لا حرج فى استعماله ، فقد أخرج الإمام البخارى فى صحيحه عن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها- قالت : كنت أطيب رسول الله ﷺ بأطيب ما يجد ، حتى أجد وبيص الطيب فى شعره ولحيته[(٣)] .

---

(١) الفتاوى الهندية ١/ ٣٥٢ .

(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٥٩٧ .

(٣) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١٠/ ٣٦٦ .

ومعنى وبيص: بريقه[١].

ومما يدل على استحباب الطيب أن النبى ﷺ قال: « حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة »[٢].

وأخرج أبو داود والنسائى أن النبى ﷺ قال: « من عرض عليه طيب فلا يرده فإنه طيب الريح خفيف المحمل »[٣].

وجاء فى شرح هذا الحديث : والحديث يدل على أن رد الطيب خلاف السنة ؛ لأنه باعتبار ذاته خفيف لا يثقل حمله وباعتبار عرضه طيب لا يتأذى به من يعرض عليه ، فلم يبق سبب مقبولا للرد[٤].

الطيب مباح للمرأة: الطيب مباح للمرأة كما هو مباح للرجل ، فليست هى ممنوعة منه ، وقد دل على هذه الإباحة الحديث الذى أخرجه النسائى عن سعيد قال : ذكر النبى ﷺ امرأة حشت خاتمها بالمسك فقال: « وهو أطيب الطيب »[٥] . وهذا فضلا عن عموم الأحاديث فى إباحة الطيب وأن هذا العموم يشملها .

طيب المرأة وطيب الرجل:

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه ، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه » رواه الترمذى .

وجاء فى شرحه: إن طيب الرجال - أى ما يتطيبون به - وهو ما ظهر ريحه وخفى لونه مثل ماء الورد ، وطيب النساء - أى ما يتطيبن به بالعكس -

(١) النهاية ٥/ ٣٤٦ .
(٢) أخرجه النسائى كما جاء فى نيل الأوطار للشوكانى ١/ ١٢٧ .
(٣) سنن أبى داود ١١/ ٢٢٩ ، وسنن النسائى ٨/ ١٦٥ .
(٤) عون المعبود ١١/ ٢٢٩ .
(٥) سنن النسائى ٨/ ١٦٧ .

أى ما ظهر لونه وخفى ريحه كالزعفران ، وهذا محمول على حالة خروجها من البيت ، فأما إذا كانت عند زوجها فى بيتها فيباح لها التطيب بما شاءت[١] .

كراهية خروج المرأة من بيتها متعطرة: إن هذا الأمر مهم للغاية فى أمور الزينة فهو يعرض المسلمات لضرر كبير ، فعن أبى موسى الأشعرى ﷺ أن النبى ﷺ قال : « إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهى كذا وكذا - قولا شديدا » رواه أبو داود .

وجاء فى شرح الحديث: « إذا استعطرت المرأة: أى استعملت العطر وهو الطيب الذى يظهر ريحه لا يجدوا ريحها ، أى : لأجل أن يشموا ريح عطرها فهى كذا وكذا كناية عن كونها زانية »[٢] .

وفى روايات لهذا الحديث أخرجها الترمذى عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ أنه قال: « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت بمجلس فهى كذا وكذا - يعنى زانية».

وجاء فى شرحه: كل عين زانية ، أى كل عين نظرت على أجنبية عن شهوة فهى زانية ، والمرأة إذا استعملت العطر فمرت بمجلس الرجال فهى زانية؛ لأنها هيجت شهوة الرجال بعطرها وحملتهم على النظر إليها ، ومن نظر إليها فقد زنى بعينيه ، وهى سبب زنا العين فهى آثمة لهذا السبب[٣] .

نهى المتعطرة عن حضور المسجد:

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة أصابت بخورا فلا تشهدن معنا العشاء الآخرة »[٤] .

---

(١) تحفة الأحوزى بشرح جامع الترمذى ٨/ ٧١ .
(٢) عون المعبود ١١/ ٢٣٠ .
(٣) تحفة الأحوذى ٨/ ٧١،٧٠ .
(٤) رواه أبو داود ١/ ٢٣١ ، وسنن النسائى ٨/ ١٦٦ .

وجاء فى شرح هذا الحديث قوله : « أصابت بخورا » البخور ما يتبخر به والمراد هاهنا ما ظهر ريحه ، « فلا تشهدن » أى : لا تحضرن « معنا العشاء الآخرة » ؛ لأن الليل مظنة الفتنة ، فالتخصيص بالعشاء الآخرة لمزيد التأكيد ؛ أو لأن النساء يخرجن فى العشاء الآخرة إلى المسجد فأمرهن بذلك[١].

وأخرج أبو داود عن أبى هريرة ﷺ أنه لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب ينفح ولذيلها إعصار ، فقال : يا أمة الجبار جئت من المسجد؟ قالت : نعم ، قال : وتطيبت له؟ قالت: نعم قال: إنى سمعت حببى رسول الله ﷺ يقول : « لا تقبل صلاة لامرأة تطيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغسل غسلها من الجنابة »[٢].

وجاء فى شرح هذا الحديث أن أبا هريرة قال لها : « يا أمة الجبار » ناداها بهذا الاسم تخويفا لها ؛ لأنه سمع من حبيبه محمد ﷺ أنه قال : « لا تقبل صلاة امرأة تطيبت لمسجد » أى لحضوره والصلاة فيه ، « حتى ترجع وتغتسل بأن يعم غسلها جميع بدنها إذا كانت قد تطيبت جميع بدنها ؛ ليزول عنها الطيب ، وأما إذا أصابت الطيب موضعا مخصوصا من بدنها فيكفيها أن تغسل ذلك الموضع ، قال ذلك على القارى ، ولكن صاحب سنن أبى داود قال: ظاهر الحديث يدل على الاغتسال ، أى غسل جميع البدن فى كلتا الصورتين[٣] .

ونتبين مدى خطورة التعطر أو التطيب للمسجد ، فإن فعلت امرأة بجهالة فلتصحح الأمر عسى أن يتقبل الله منا جميعا .

---

(١) عون المعبود ١١/ ٢٣٠، ٢٣١ .
(٢) المصدر السابق ١١/ ٢٣٠، ٢٣١ .
(٣) المصدر السابق نفسه .

الشعر وما يتعلق به :

من الزينة أن تهتمى بشعر رأسك ، فمن كان له شعر فليكرمه ، فقد أخرج أبـو داود عن أبـى هريـرة ﷺ أن رسـول الله ﷺ قـال: « مـن كـان لـه شـعر فليكرمه »[١] .

وقد جاء فى شرحه أى: فليزينه وينظفه بالغسل والتدهين والتسريح ، ولا يتركه متفرقا حتى يتشعب ويتلبد ، فـإن النظافـة وحسـن المنظـر مـن الأمـور المطلوبة والمحبوبة ، ولكن دون أن يفرط فـى المبالغـة فـى ذلـك ، للنهـى عـن الترجل إلا غبا[٢].

تسريح الشعر وتنظيفه :

وقد وردت أحاديث عدة عـن ترجيـل الشـعر- وترجيلـه يعنـى : تسـريحه وتنظيفه ، وتمشيطه ودهنه ، وتحسينه - ومنها حديث البخـارى عـن عائشـة - رضى الله عنها - قالت : كنت أرجل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض[٣].

وعـن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ يكثر دهـن رأسـه وتسـريح لحيته[٤].

ولهذه الأحاديث فى ترجيـل الشـعر قـال العلمـاء باسـتحبابه ؛ ولأنـه مـن النظافة ، والنظافة من الدين[٥].

النهى عن حلق المرأة شعرها :

نهى الإسلام المرأة عن حلق رأسها ، فقد أخرج النسائى عن على بـن أبـى

---

(١) سنن أبى داود ١١/ ٢٢١ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١٠/ ٣٦٨ .
(٤) الإتحافات الربانية بشرح الشمائل المحمدية ـ عبد الجواد الدومى ص : ٧٢.
(٥) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١٠/ ٣٦٨ .

طالب ﷺ قال : « نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها »[١].

وصرح الحنابلة بكراهة حلق المرأة رأسها من غير ضرورة ، فإن كان عن ضرورة جاز . قال الأثرم : سمعت أبا عبد الله - يعنى الإمام أحمد - يسأل عن المرأة تعجز عن شعرها وعن معالجته كأن لا تقدر على الدهن وما يصلحه وتقع فيه الدواب ، أيجوز لها أن تأخذه ، أى : تحلقه؟ قال الإمام أحمد : إذا كان لضرورة أرجو أن لا يكون به بأس[٢].

ومذهب الظاهرية يبينه ابن حزم بقوله : ولا يحل للمرأة أن تحلق رأسها إلا من ضرورة لا محيد منها... برهان ذلك عن على قال : نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها ، فإن اضطرت إلى ذلك ، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾[الأنعام: ١١٩][٣]. وعند الحنفية: يجوز للمرأة حلق رأسها لوجع أصابها يستدعى ذلك وإن حلقته لغير ذلك فمكروه[٤].

أنصحك وأوصيك أن لا توصلى شعرك بشعر آخر بسبب أو بحجة الزينة لزوجك ، أو تلبسين شعرا مستعارا ؛ لأن الرسول ﷺ لعن الواصلة والمستوصلة . تعالى نسمع كلمة الإسلام فى هذا الأمر .

أولا: تعريف وصل الشعر : وصل الشعر يعنى الزيادة فيه من غيره[٥]. وفى النهاية لابن الأثير : الواصلة هى التى تصل شعرها بشعر آخر زور[٦].

---

(١) سنن النسائى ٨/ ١١٣ .
(٢) المغنى ١/ ٩٠ ، مختصر الإنصاف والشرح الكبير ص ١٩ .
(٣) المحلى ١٠/ ٧٤،٧٥ .
(٤) الفتاوى الهندية ٥/ ٣٥٨ .
(٥) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١/ ١٧٤ .
(٦) النهاية لابن الأثير ٥/ ١٩٢ .

ثانيا : قد وردت أحاديث صحيحة فى وصل الشعر نوردها كالتالى[١] :

١- عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: « لعن الله الواصلة والمستوصلة ، والواشمة والمستوشمة ».

٢- عن عائشة - رضى الله عنها - أن جارية من الأنصار تزوجت ، وأنها مرضت فتمرط شعرها - أى سقط شعرها - فأرادوا أن يصلوها ، فسألوا النبى ﷺ فقال : « لعن الله الواصلة والمستوصلة » .

٣- عن أسماء بنت أبى بكر أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : إنى أنكحت ابنتى ثم أصابها شكوى فتمزق رأسها وزوجها يستحثنى بها ، أفأصل رأسها ؟ فسب ـ أى لعن ـ رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة .

ثالثا: معنى الواصلة والمستوصلة : الواصلة هى التى تصل شعرها بشعر آخر زور .

والمستوصلة : هى التى تأمر من يفعل بها ذلك [٢] .

وقال الشوكانى فى نيل الأوطار: « الواصلة هى التى تصل شعر امرأة بشعر امرأة أخرى ، لتكثر به شعر المرأة ، والمستوصلة هى التى تستدعى أن يفعل بها ذلك»[٣] .

وفى تعريف آخر : الواصلة هى التى تصل شعرها سواء أكان لنفسها أم لغيرها ، والمستوصلة هى التى تطلب وصل شعرها[٤] .

---

(١) انظر الأحاديث فى صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١٠/ ٣٧٤ ، وصحيح مسلم بشرح النووى ١٤/ ١٢.

(٢) النهاية لابن الأثير ٥/ ١٩٢ .

(٣) نيل الأوطار للشوكانى ٦/ ١٩١ .

(٤) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ٥/ ٤٥١، ٤٥٢ .

وقد قال فقهاء الحديث وشراحه: لقد دلت أحاديث وصل الشعر التى ذكرناها على تحريم وصل الشعر ؛ لأن النبى ﷺ لعن فاعله ، وطالبه ، ولا يجوز لعن فاعل المباح ، فكان اللعن من دلالات تحريم الشيء الذى لعن فاعله[(١)].

والشعر الصناعى كالشعر الطبيعى فى تحريم وصل الشعر به .

وهناك شعور صناعية ذات ألوان مختلفة تربط بشعر المرأة ليظهر شعرا طويلا وكثيرا ، وقد تكون هذه الشعور بشكل معين توضع على رأس المرأة وتوصل بشعرها ، وهى التى تسمى الباروكة ، وهذا كله محظور لأنه يسمى (شعرا) ويدخل فى مفهوم وصل الشعر المنهى عنه ، كما أن فى الشعر تدليسا وتغريرا وإنما رجحنا جواز وصل شعر المرأة بغيره إذا لم يكن فيه تدليس ولا تغرير، ويعرف الناظر إليه أنه ليس بشعر المرأة ولا يشبهه ولهذا قال القاضى عياض : « وأما ربط خيوط الحرير الملونة ونحوها مما لا يشبه الشعر فليس بمنهى عنه » فقوله : مما لا يشبه الشعر قيد لرفع النهى عنه ، فإن كان يشبهه فإن النهى يشمله لما ليس فيه من تدليس . وقد جاء فى حديث مسلم عن أبى هريرة وفيه قول رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أراهما ... ونساء كاسيات عاريات رؤوسهن كأسنمة البخت » .

قال النووى: يعنى يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوهما ، وفى الحديث ذم ذلك .

وقال القرطبى: البخت جمع بختية وهى ضرب من الإبل عظام الأسنمة ، وهى جمع سنام وهو أعلى ما فى ظهر الجمل ، شبه رؤوسهن بها لما رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رؤوسهن تزينا وتصنعا ، وقد يفعل ذلك بما يكثرن به شعورهن[(٢)] .

---

(١) المغنى ١/ ٩٣ ، ونيل الأوطار للشوكانى ٦/ ١٩١ .
(٢) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١٠/ ٣٧٥ .

ويقول الدكتور عبد الكريم زيدان غفر الله له: وهذا الحديث يعد من المعجزات النبوية ، فقد وجدنا فى عصرنا الكاسيات العاريات اللاتى هن كاسيات بالاسم عاريات فى الحقيقة ، لما يلبسنه من الثياب الرقيقة الضيقة واللاتى يعظمن ويكبرن رؤوسهن بالباروكة ، ونحوها[١].

النامصة والمتنمصة: النامصة هى التى تنتف الشعر من وجهها ، والمتنمصة هى التى تأمر من يفعل ذلك بها[٢]. وقال ابن حجر العسقلانى : المتنمصة هى التى تطلب النماص ، والنامصة هى التى تفعله ، والنماص : إزالة شعر الوجه بالمنقاش ويسمى منماصا لذلك [٣] .

وقال أبو داود: النامصة هى التى تنقش الحاجب حتى ترقه ، أى تخرج شعره بالمنقاش حتى ترقه[٤].

لعن النامصة والمتنمصة :

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال : « لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ...» [٥] . ورواه الإمام البخارى وليس فيه : النامصات وزاد فى آخره : مالى لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ ، وهو ملعون فى كتاب الله [٦] .

وبذلك يكون حكم النماص التحريم . قال النووى وغيره من العلماء [٧] ؛

---

(١) د. عبد الكريم زيدان فى موسوعته المفصل ٣/ ٣٨١ .
(٢) النهاية لابن الأثير ٥/ ١١٩ .
(٣) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١٠/ ٣٧٧ .
(٤) عون المعبود شرح سنن أبى داود ١١/ ٢٢٨ .
(٥) صحيح مسلم بشرح النووى ١٤/ ١٠٥، ١٠٦.
(٦) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١٠/ ٣٧٨ .
(٧) ابن الجوزى فى أحكام النساء ص ٢٤٢ وابن حزم فى المحلى ١٠/ ٧٤، ٧٥ .

لأنه لعن فاعله ولعن طالبه يعنى أن فعله - أى النمص - حرام ، لأن اللعن لا يكون على فعل مباح بل على حرام .

والراجح فى حكم النماص التحريم ، وهذا هو الأصل وهو ما يدل عليه ظاهر الحديث الشريف الذى فيه النامصة والتنمصة ، فلا يجوز للمرأة المتزوجة فعل النماص لا سيما إذا جاءها الخاطب ؛ لأن فعلها يكون فى هذه الحالة تدليسا فوق كونه حراما ، أما ذات الزوج فإذا رغب زوجها بالنماص أو طلب منها ذلك فيبدو لى جوازه بالنسبة للمرأة ، لأنه يدخل فى باب تزينها وتجملها لزوجها ، وهذا أمر مرغوب فيه فى الشريعة بإدامة المودة والمحبة بين الزوجين ، ولخلوه فى هذه الحالة من التدليس ، أما إذا فعلته لرغبتها دون طلب من زوجها وتكن بإذنه فيبدو لى جوازه أيضا ؛ لأن إذنه لها فى ذلك بمنزلة طلبه منها ذلك.

وأما طلب الزوج منها النماص أو إذنه لها فى ذلك ، يقول أحد العلماء [١] فى ذلك : فيبدو لى أنه أيضا جائز ولا ينزل فى الحكم منزلة المتنمصة ؛ لأن تزين الزوجة يزيد فى مودته لها فيجوز . وليستثنى من ذلك ، أو من تحريم النمص مطلقا ، إزالة شعر لحية أو شارب نبت فى وجه المرأة ، ففى هذه الحالة يجوز نتف هذا الشعر من وجه المرأة كما يجوز حلقه .

فقد قال الشافعية: « لو نبتت للمرأة لحية استحب لها نتفها وحلقها ؛ لأنها مثلة فى حقها بخلاف الرجل ، وكذا يستحب نتف وحلق الشارب والعنفقة لها »[٢].

وقال الطبرى: « لا يجوز للمرأة تغيير شيء فى خلقتها التى خلقها الله عليها بزيادة أو نقص لالتماس الحسن للزوج لا لغيره ، كمن تكون مقرونة

---

(١) دكتور عبد الكريم زيدان فى المفصل .

(٢) المجموع فى فقه الشافعية ١٠/ ٣٤٩، ٤٢٢، والعنفقة : هى الشعر النابت على الشفة .

الحاجبين فتزيل ما بينهما توهم البج أو عكسه ، ومن تكون لها لحية أو شارب أو عنفقة فتزيلها بالنتف ... فكل ذلك داخل فى النهى وهو تغيير خلق الله تعالى ... »[١].

والراجح هو الأخذ بالاستثناء على حد قول العلماء بل ويستحب الأخذ به كما صرح الشافعية ، فيستحب للمرأة إذا نبتت لها لحية أن تحلقها أو تنتفها وكذا تفعل إذا نبت لها شارب أو عنفقة ؛ لأن بقاء ذلك مثلة فى حقها كما قال الشافعية ، والمثلة فى الإسلام ممنوعة ؛ ولأن تشبه النساء بالرجال حرام ، وبقاء اللحية النابتة فى وجه المرأة أو الشارب النابت فى وجهها يظهرها بمظهر التشبه بالرجال وهذا محظور ، فإزالة مظهر التشبه مطلوب ، ولا يكون إلا بإزالة شعر اللحية والشارب والعنفقة بالنتف أو الحلق ، ولا يكون فى هذا تغيير لخلق الله بل تثبيت لخلق الله ؛ لأن الله تعالى خلق المرأة وجنس النساء بلا لحية ولا شارب ولا عنفقة خلافا للرجال ، فإذا ظهر شيء فى وجهها مما ذكرناه فهو مناقض ومخالف لما مضت فيه سنة الله وإرادته فى أن يكون كيان المرأة وشكلها وخلقتها مخالفا لما عليه الرجل ، فإزالة هذا المناقض ليس فيه تغيير لما مضت فى سنة الله فى خلق المرأة.

٩- تلقاه باسمة مرحة :

فى هذه الوصية نتحدث عن الابتسامة العريضة ، والوجه البشوش، والحياة المرحة ، كى تكونى ملء عينى زوجك .

فيجب عليك أن تستقبلى زوجك ، حين يعود إليك ، فلا تضيقى إذا وجدته ضائقا أو متعبا ، بل على العكس اهرعى إليه ولبى مطالبه مهما كانت دون أن تسأليه عن سبب ضيقه أو تعبه فور عودته إلى بيته ، فإذا ما استقر وخلع ثيابه التى يخرج بها ولبث ثياب البيت ، فقد يبادرك هو إلى الإفضاء لك

---

(١) صحيح البخارى بشرح العسقلانى ١٠/ ٣٧٧ .

بسبب كدره وضيقه ، وإذا لم يبادر هو بإخبارك فلا بأس من أن تسأليه ولكن بلهجة تشعريه فيها بانشغالك عليه وقلقك بشأن حالته التى عاد عليها .

إذا وجدت أيتها الأخت الكريمة أن فى إمكانك أن تساعدى زوجك فى حل المشكلة التى سببت له الضيق فلتبادرى إلى ذلك ، فإنك إن فعلت ستخففين كثيرا عن زوجك ، وسيشعر زوجك بعد هذا أن فى بيته جوهرة ثمينة ، بل أثمن من جواهر الدنيا جميعها.

واعلمى يا أختاه أن مما تجمل المرأة المسلمة الحصيفة لزوجها ، المرح والبهجة والظرف والأنس ، تغمر بذلك كله حياة زوجك ، فتجعلها بهيجة سعيدة مؤنسة ، تلقاه حين يؤدب إلى البيت كالا من عمل يده أو مجهدا من إعمال فكره ، بوجه طليق وابتسامة مشرقة ، وكلمة طيبة تطوى همومها ساعة تلقاه ، لتنسيه بذلك بعض همومه وتبدى كل ما تستطيعيه من بهجة ومرح وظرف ، لتفتح نفسه على السعادة وهناءة العيش ، وتسمعه كلمة الشكر والعرفان بالجميل ، كلما بدرت منه نحوها بادرة خير ، أو قدم لها شيئا حسنا أو فعل ما يستحق عليه الشكر والثناء . ذلك أن المرأة المسلمة الواعية وفية منصفة ، لا تعرف الكنود والجحود والكفران لأحد الناس ؛ لأن لها من هدى دينها ما يعصمها عن التردى فى مهاوى الأخلاق الشرسة المنكرة للمعروف الجاحدة للفضل ، فكيف مع زوجها الحبيب ، ورفيق دربها الطويل؟

لقد تعلمت وفقهت من هدى دينها قول رسول الله ﷺ : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس »[١] . وفهمت من هذا الهدى العظيم والتشريع الحكيم أن كل صانع معروف وبر من الناس يستحق الشكر والعرفان ، فكيف تتوانى أو تتلكأ أو تتردد فى إزجاء الشكر لزوجها ، وهى تسمع قول الرسول ﷺ : « لا

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ١/ ٣١٠ باب : من لا يشكر الناس .

ينظر الله إلى امرأة لا تشكر زوجها ، وهى لا تستغنى عنه »[1] ومما تدخل به المرأة قلب زوجها وتملأ نفسه : مشاركتها إياه فى أفراحه وأحزانه وفى همومه ومسراته ، فهى تشاركه بعض هواياته وأعماله اليومية ، كالقراءة والرياضة والاستماع إلى بعض الأحاديث المفيدة ، وغير ذلك ، بحيث يشعر الزوج أنه ليس وحده فى استمتاعه بطيبات الحياة ، وإنما تبادله كؤوسها الشهية المترعة زوجة وفية مرحة حصيفة ودود.

وفى سباق رسول الله ﷺ السيدة عائشة غير مرة : دليل على حض الإسلام الزوجين كليهما على مشاركة كل منهما ألفه متع الحياة ومسراتها ومباهجها .

واعلمى يا أختاه أن الصاحب يؤثر على مزاج صاحبه وعلى أخلاقه ، فإذا كان الصاحب وهو شريك الحياة أو الزوجة هادئة الأعصاب ، طليقة الوجه ، مرحة النفس ، متفائلة بالحياة ، فإنها تنقل هذه الصفات الطيبة إلى زوجها . وإن كنت مقطبة الوجه ، مكفهرة القسمات ، برمة بالحياة ، دائمة القلق ، دائمة التشاؤم ، فإنك تنشرين القلق الأسود حول زوجك المسكين بل وتعديه بها.

واذكرى يا أختاه أن طريق سعادتك وإسعاد زوجك أمامك ، فاطلبيها فى العلم والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة ، وكونى فى كل أمرك وسطا تكونى سعيدة .

واعلمى يا أختاه أنك وأنت فى مقتبل العمر العشرين والثلاثين تعيشين أياما سعيدة ، وقد لا تشعرين بهذه السعادة إلا عندما تصبح ذكريات عندما يتقدم العمر فعليك أن تختارى السعادة ، فإما أن تعيش سعادتك بغبطة وإحساس ، وتمتعين ناظريك وشمك وجميع حواسك بورودها المتفتحة أمامك

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/ ١٩٠ كتاب النكاح ، وقال : حديث صحيح الإسناد .

فينعكس ذلك على زوجك ، وإما أن تتجهى نحو ما ينقصك ، وتصبحين فريسة للضجر والسخط ، وعندها انتظرى حتى يصبح هذا الحاضر ماضيا ، وسوف تبكيه بدمع العين ، فحولى بيتك إلى جنة واملئيه تفاؤلا وحبا تجدين زوجك على طول الدوام حبيبا وعاشقا وصديقا تهنئين معه بأفراح السعادة وترشفين من كأس سعادته شرابا هنيئا .

فعندما تبتسمين وقلبك ملىء بالهموم فإنك بذلك تخففين من معاناتك وتفتحين لك بابا نحو الانفراج ، فلا ترددى فى أن تبتسمى ، إن فى داخلك طاقة منعمة بالابتسام ، فحاذرى أن تكتميها ؛ لأن ذلك يعنى أن تخنقى نفسك فى زجاجة العذاب والألم ، إنه ما ضرك أن تبتسمى ، وأن تتحدثى مع الآخرين بلغة الأعماق ، ما أروع شفاهنا عندما تتحدث بلغة الابتسامة : فالابتسامة واجب اجتماعى ؛ لأنك عندما تريدين أن تسعدين زوجك لا بد أن تقتنى مهارة الابتسامة الحانية الرقيقة التى تجد طريقها مفتوحا إلى قلب زوجك.

١٠- لا تصفى له امرأة من معارفك :

إن هذا الأمر جد خطير والوصية بتجنبه أمر مهم فمن خلائق المرأة المسلمة الحكيمة الحصيفة أنها لا تصف لزوجها امرأة من صويحباتها أو معارفها ؛ لأن ذلك منهى عنه فى الإسلام بقول رسول الله ﷺ : « لا تباشر المرأة المرأة ، فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها »[(١)].

ذلك أن دينك الحنيف أيتها الأخت الفاضلة يريد بالنفوس أن تهدأ وللضمائر أن تقر ، وللأفكار والخواطر والتخيلات المثيرة أن تحد ؛ لينطلق الإنسان فى حياته سويا مطمئنا هانئا ، فارغ البال ميسرا لما خلق له ، من تكاليف وأعمال ، لا ينشغل فكره فى مقارنات تافهة بين الواصفة وهو أنت إن وصفت والموصوفة ولا يطيش صواب زوجك كما يزينه له خياله من تلك

---

(١) انظر فتح البارى ٩/ ٣٣٨ كتاب النكاح ، باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها.

الأوصاف التى جعلته يقابل بينك وبينها ، ولا تضطرب نفسه وتتعطل مواهبه وأعماله بسبب لغو من القول ، وفضول من الكلام ، قد يفضى بزوجك إلى الغواية وأنت السبب فيها ، والفتنة وقد وضعتها أمامه والضلال والعياذ بالله .

١١- كونى له سكنا :

أنت زوجة مثالية ، إذن فأنت سكن لزوجك وراحة لنفسك وطمأنينة وأنسا لحياته ، وسلوى لأيامه وحياته ، ذلك ما قصد فى معنى سكن والسكينة فى الزواج ، فرب العزة يقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

إن الزواج رباط مقدس يبنى الصلة بين النفس والنفس فى أعمق روابطها يعقدها الله بين الزوجين المتحابين لينعما سويا بالسكينة والطمأنينة والاستقرار والمتاع الحلال الطيب ، وإن الزوجة لهى المثابة والأمن والراحة للرجل فى بيت الزوجية المحبب العامر بالمودة الخالصة والرحمة الظليلة الحنون ، والمرأة المسلمة الراشدة خير من يفهم هذه المعانى العالية ، وخير من يعمل على ترجمتها إلى واقع مؤنس مبهج سعيد.

فلا تكتفين يا أختاه بتجملك لزوجك ومشاركته أعماله وهواياته ، بل احرصى على تحقيق ما خلقت لأجله وهو أن تكونى سكنا لزوجك بما خصك الله به من أدوات المودة وزهرات الرحمة ، فاحرصى على تحقيق الهدوء والراحة والسكينة فى البيت ، كما تحرصين على ألا يقع بصره إلا على ما يسره ، واذكرى نصيحة المرأة العربية لابنتها بذلك بألا يقع بصره منها على ما يكره ... إلخ . فبيتك نظيف مرتب ، يرى فيه زوجك النظام والذوق ، وأبناء مهذبين يتمتعون بالأدب والهدوء والنظافة ، ومائدة جميلة منسقة لا تقتصر على لذة الطعام فقط بل جمال المنظر ونظافة المكان ، كل هذه الأشياء تضفى على حياتك الزوجية حبا كبيرا وسعادة غالية .

وقد عدد أحد علماء النفس الأمريكيين[1] أبعاد السعادة فى عشرة أبعاد هى:

١- أن تمارسى عملا محبوبا يشترك فيه زوجك ، فإذا لم يتيسر لك ذلك العمل ، فمارسى الهواية التى تحبيها فى وقت فراغك وعمقيها .

٢- اعتنى بصحتك فهى روح السعادة ، وذلك بالاعتدال فى الطعام والشراب وممارسة الرياضة والبعد عن العادات الضارة .

٣- اجعلى هدفا لحياتك ، فإن ذلك يمنحك الإثارة والنشاط .

٤- أن تأخذى الحياة على ما هى عليه وتقبليها بحلوها ومرها .

٥- أن تعيشى حاضرك ولا تندمى على ماض تولى ، ولا تتوجسى من غد لم يأت .

٦- أن تفكرى فى أى عمل أو قرار ولا تلومى غيرك على قراراته وما قد يصيبه .

٧- أن تنظرى إلى ما هو دونك .

٨- أن تعتادى على الابتسام وروح المرح وصحبة المتفائلين .

٩- أن تعملى على إسعاد الآخرين ليصيبك عطر السعادة .

١٠- أن تغتنمى فرص الابتهاج الجميلة واعتبارها محطات ضرورية للسعادة .

هذه هى أبعاد السعادة من وجهة نظر علم النفس ، ولكى تساعدين نفسك وزوجك على السعادة لكى تكونى له سكن ، وهناك نقاط تساعدك على تحقيق السعادة لك وزوجك ـ وهى تمقت الحرص والطمع وتعد نقاط علاجهم فيما يلى:

---

(١) العالم الأمريكى د/ ديكسن .

١- الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الإنفاق فمن اتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة ، بل ركبه الحصر والطمع ، فالاقتصاد فى المعيشة هو الأصل فى القناعة ، وفى الخبر : « التدبير نصف المعيشة » .

٢- أن لا تكونى شديدة القلق لأجل المستقبل ، واستعينى على ذلك بقصر الأمل ، و الإيمان بأن الرزق الذى قدر لك لابد أن يأتيك .

٣- تقوى الله ، فإن الله ﷻ يقول: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

٤- معرفة ما فى القناعة من عز الاستغناء ، وما فى الحرص والطمع من الذل ، والاعتبار بذلك.

٥- أكثرى من تأملك فى أحوال الأنبياء والصالحين وقناعتهم وتواضع معيشتهم ، ورغبتهم فى الباقيات الصالحات فاجعليهم قدوة لك .

٦- انظرى لما هو دونك فى أمور الدنيا .

بكل هذا تستطيعين أن تكونى سكنا لزوجك ومنبع سعادة وهناء يرشف منه دائما .

١٢- الاعتدال فى الطعام والشراب واللباس والهيئة :

إن صحتك وصحة بدنك واعتدال هيئتك ، وقوة بنيتك تحتاج إلى الاعتدال فى الطعام والشراب .

ولكى تكونى نشيطة ، غير مترهلة ولا ثقيلة الوزن ، لا تقبلى على الطعام بشره ونهم ، بل أصيبى من الطعام ما يقيم صلبك ، ويحفظ عليك صحتك ونشاطك وقوتك ولياقة جسمك مهتدية بقول الله تعالى فى كتابه العزيز:

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٣١] ،

ويقول رسول الله ﷺ عن الاعتدل فى الطعام والشراب: « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، فإن كان لا محالة فاعلا ، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[١] .

ويقول عمر بن الخطاب ﷺ : « إياكم والبطنة فى الطعام والشراب ، فإنها مفسدة للجسد ، مورثة للسقم ، مكسلة عن الصلاة ، وعليكم بالقصد فيها ، فإنه أصلح للجسد وأبعد من السرف ، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين ، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه[٢].

ومما لا شك فيه أن المرأة المسلمة بعيدة كل البعد عن المخدرات والمنبهات فهى تنام مبكرة وتستيقظ مبكرة ، لتزاول نشاطها اليومى ، وتقوم بواجباتها فى حيوية وفاعلية وانشراح ، لا يطفئ شعلة نشاطها سهر طويل ، ولا تضعف قواها عادة سيئة ، فهى دوما نشيطة منجزة فعالة.

وإذا كنت يا أختى مؤمنة بحق إن شاء الله فإن المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ ؛ ولذلك فهى تحرص دوما على تقوية جسمها باتباع هذا النظام الصحى الطبيعى فى حياتها.

وكذلك بالنسبة للباسك أو ملابسك فلا بد من الاعتدال فى لباسك ومظهرك ، فأنت تحرصين على حسن مظهرك ، بلا سرف ولا مبالغة ولا خيلاء ، فأنت لا تجرى وراء أى إسراف أو مبالغة فى تغييرك لملابسك الجديدة وطرحها بعد ارتدائها مرة واحدة ، فلا تلهثى وراء تقليعة أو موضة ، فالموضة والتقاليع لا تقف عند حد معين ، والمطلوب منك فى هذا الجانب ألا

---

(١) حديث حسن صحيح رواه أحمد ٤/ ١٣٢ ، والترمذى ٤/ ١٨ فى كتاب الزهد ، باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل .

(٢) كنز العمال ١٥/ ٤٣٣ .

تفعلى مثل بعض النسوة المسرفات الجاهلات اللائى يسرفن فى اقتناء ملابس لا تراعى الحشمة والحجاب ، بل يجب عليها أن تأخذ هدى الإسلام نبراسا وقول الله ﷻ قدوة واتباعا ، فالله ﷻ يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقد وقعت النساء فى زماننا هذا فى فخ يقال له : «الموضة» والتى تتحكم فيها دور الأزياء العالمية ، والشركات التى تبحث عن الربح بأى وسيلة ، فهم لا يريدون بالنساء خيرا ، وعلى وجه الخصوص بنات ونساء المسلمين ، وقد حذر رسول الله ﷺ من هؤلاء فقال : « تعس عبد الدار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرض »(١) ؛ ذلك أن للمرأة المسلمة من هدى دينها ما يعصمها من الانزلاق فى مهاوى التبختر والخيلاء والإعجاب بالمظهر الحسن وغير ذلك من المهلكات ، مما أخبر عنه رسول الله ﷺ إذ قال: « بينما رجل يتبختر ، يمشى فى برديه ، قد أعجبته نفسه ، فخسف الله به الأرض فهو يجلجل فيها إلى يوم القيامة »(٢).

فعليك أن تأخذى بمبدأ الزينة الحلال والأناقة المشروعة ، وترتدى الملابس السمينة الجميلة الأنيقة ، وهذا كله من الطيبات التى أحلها الله ﷻ دون الاتجاه على الإسراف والمبالغة فى الإنفاق إلى حد الشطط ، وهذا هو الاعتدال الذى دعا إليه الإسلام وهذه هى الوسطية التى دعا إليها الإسلام ، وشتان بين المرأة المعتدلة الحكيمة الرزان ، وبين المرأة المسرفة السخيفة التى تظهر رعونة وتفاهة فى هذا الأمر.

إن المرأة المسلمة الواعية بعيدة فى ملبسها ومظهرها عن الإفراط والتفريط فهى ليست مفرطة مسرفة فى زينتها وملبسها وهيئتها ، ولا مفرطة مقترة فى

(١) انظر الفتح ٦/ ٨١ كتاب الجهاد ، باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله .
(٢) صحيح مسلم ١٤/ ٦٤ كتاب اللباس والزينة : باب تحريم التبختر فى المشى .

شكلها وثيابها ومظهرها إلى حد البخل ، أو الزهد فى الزينة والأناقة والمظهر الحسن ، ظنا منها أنها بذلك الزهد تعبد ربها وتفوز برضاه ؛ لأن المرأة التى ترتدى الملابس الجميلة فخرا وزهوا وخيلاء وتيها على قريناتها هى آثمة ؛ لأن الله لا يحب كل مختال فخور ، أما الذى ترتديها إظهارا لنعمة الله ، واستعانة على طاعته ، فهى طائعة مأجورة .

والتى تعزف عن جميل الثياب وتتركها بخلا بالمال ، فلا مكانة لها ولا احترام فى نفوس الناس ، ولا أجر لها عند الله . أما التى تترك الملابس الجميلة زهدا وهى تظن أنها تعبد ربها بتحريم المباحات على نفسها ، فهى آثمة أيضا ، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وملاك سعادة المرأة فى دينها دنياها : القصد والتوسط والاعتدال ، وهذا شأن المرأة المسلمة الواعية هدى دينها ، الملتزمة بأحكامه السمحة الغراء ، فلباسها نظيف جميل أنيق مرتب لائق بأمثالها ، مظهرة نعمة الله عليها ، من غير سرف ولا زهو ولا مباهاة .

١٣- ترعى أولاده :

الأبناء هم قرة عينك ، وحبك العظيم ، وهم رباط الزوجية وثمرتها الحلوة المذاق ، وهم مصدر سعادتك وبهجتك وكذلك مصدر سعادة وبهجة الزوج فبهم تحلو الحياة ، ويطيب العيش ، ويستجلب الرزق ، وتعقد الآمال ، وتطمئن النفوس ، وإذا كان الأب يرى فى أولاده العون والرفد والتكاثر وقوة الجانب ، فإنك ترين فيهم أمل حياتك ، وسلوى نفسك وفرحة قلبك ، وبهجة عيشك ، وأمان مستقبلك ، وهذا كله منوط بحسن تربية الأولاد ، وسلامة تكوينهم وإعدادهم للحياة ، بحيث يكونون عناصر بناءة فعالة ، يعود خيرهم على والديهم ، وعلى مجتمعهم ، وعلى الناس أجمعين ، وبذلك يكونوا كما قال الله تعالى فيهم : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦].

أما إن أهملت تربيتهم وأسيء تكوين شخصياتهم ، كانوا وبالا على الوالدين ، وشرا مستطيرا على المجتمع والناس ، أن مسؤوليتك فى تربية أولادك وتكوين شخصيتهم أكبر من مسؤولية زوجك ، لقربهم منك ، ولكثرة الوقت الذى يقضونه معك ، ولمعرفتك الدقيقة لكل أحوالهم وتحركاتهم فى فترة النشأة والمراهقة الخطيرة فى حياة أطفالك العقلية والعاطفية والسلوكية .

ومن هنا عليك أن تدركى إدراك المسلمة الواعية العارفة بهدى دينها ، وتقدر رسالتك التربوية فى الحياة ، تدركى مسؤوليتك كاملة فى تربية أولادك التى عبر القرآن عنها فى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٦] وبينها الرسول الكريم ﷺ فى قوله: « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسؤول عن رعيته ، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته »(١) .

لقد طوق الإسلام عنقك بهذه المسؤولية الرائعة ، وجعل بمقتضى هذه المسؤولية تربية أولادك دين فى عنقك - فعليك أن تربيهم تربية إسلامية دقيقة ، وتنشئيهم التنشئة الإسلامية الصالحة ، القائمة على مكارم الأخلاق ، التى أخبر الرسول الكريم أنه ما بعث إلا لتتميمها وتأصيلها فى حياة الناس . « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق »(٢) .

واعلمى أيتها الأخت المسلمة أنه ليس أدل على عظم مسؤولية الوالدين تجاه أبنائهما ، وتربيتهم التربية اللائقة بالمسلمين الأتقياء من تقرير العلماء : أن

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد ١/ ٣٧١ باب حسن الخلق .

كل بيت يسمع قول رسول الله ﷺ : « مروا أولادكم بالصلاة ، وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ...»[(١)].

فسارعى أيتها الأخت المسلمة إلى تطبيق هذا الأمر النبوى المبارك فأمرى أولادك بالصلاة متى بلغوا السابعة من العمر ، واضربيهم على تركها متى بلغوا العاشرة ، فإن لم تفعلى ذلك فأنت مقصرة فى تربيتهم مفرطة فى توجيههم ، وسوف تكونى مسؤولة عن ذلك أمام الله ﷻ ؛ لأن صغر سنهم ، وباكورة عمرهم هى المرحلة التى تصاغ فيها نفسياتهم ، وتبنى فيها شخصياتهم فيصبحوا كيانا إيجابيا ؛ ولذلك فإن مهمتك فى تربية أولادك مهمة جليلة الهدف ، عظيمة المقصد وليس هذا جديد على المرأة المسلمة التى كثيرا ما كانت بارعة فى تربية الرجال ، ورائعة فى التأثير فيهم ، وحكيمة فى النفاذ إلى قلوبهم ، وخبيرة فى غرس القيم النبيلة فى نفوسهم ونذكر من هؤلاء الأمهات أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنها - التى جعلت من ابنها عبد الله بن الزبير شخصية قيادية ، وكنتها صفية بنت عبد المطلب التى غرست فى ابنها الزبير بن العوام طباعها الغر وسجاياها الحسان .

وعبد الله بن جعفر سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم الذى لقن الحكمة والفضل ومكارم الأخلاق من صدر أمه الحافل بالحكمة وجليل الخلال - فما إن حرم من أبيه جعفر بن أبى طالب حتى تعاهدته أمه أسماء بنت عميس ، وأسبغت عليه من الفضائل والمكارم التى كانت بها أسماء من نساء الإسلام والخالدات.

قصة أم خالدة: وإذا كنا أيتها الأخت الفاضلة نتحدث عن تربية الأولاد ومسؤوليتهن ، فإليك هذه القصة التى تعد من تحف قصص الأمهات

---

(١) رواه أحمد ٢/ ١٨٧ وأبو داود ١/ ١٩٣ كتاب الصلاة : باب متى يؤمر الغلام بالصلاة وإسناده صحيح .

المسلمات فى عصر التابعين ، كيف ربت ابنها ، وكيف قيمت هى نفسها عندما جاء من يحاسبها على تربية أبنائها الذى أصبح رجلا عظيما يحترمه الناس ويعتز به تاريخ المسلمين ولا يجهله العارفون بالتاريخ ـ ولنبدأ القصة على الفور[1].

ها نحن فى أولاء من سنة إحدى وخمسين للهجرة وها هى كتائب المسلمين تضرب فى فجاج الأرض مشرقة ومغربة ، تحمل للبشرية العقيدة البانية ، وتحمل إليها اليد المصافحة الحانية وتنشر في ربوعها الشرعة التى تحرر الإنسان من عبودية الإنسان... وتجعل ولاءه لله وحده لا شريك له.

وهذا الصحابى الجليل الربيع بن زياد الحارثى أمير خراسان وفاتح سجستان والقائد المظفر ، يمضى على رأس جيشه الغازى فى سبيل الله ، ومعه غلامه الشجاع فروخ ، فلقد عزم بعد أن أكرمه الله بفتح سجستان وغيرها من الأصقاع على أن يختم حياته الحافلة بعبور نهر سيحون ورفع رايات التوحيد فوق ذرى تلك الأصقاع التى كانت تدعى ببلاد ما وراء النهر.

أعد الربيع بن زياد للمعركة الموعودة عدتها واتخذ لها أهبتها ، وفرض على عدوه زمانها ومكانها فرضا .. ولما نشب القتال أبلى فيه الربيع وجنده المغاوير بلاء ما يزال يذكر التاريخ بلسان ندى بالحمد ورطيب بالإكبار.

وأظهر غلامه فروخ فى ساحات الوغى من ضروب البسالة وصفوف الإقدام ، ما زاد الربيع إعجابا به ، وإكبارا له وتقديرا لمزاياه.

وانجلت المعركة على نصر مؤزر للمسلمين ، فزلزلوا أقدام عدوهم وفرقوا صفوفه وفرقوا جموعه ... ثم عبروا النهر الذى كان يحول دونهم ودون الانسياح فى الأرض فى بلاد الترك.

---

(١) عصر التابعين . عبد المنعم الهاشمى - ربيعة الرأى . ط دار ابن كثير - دمشق .

ويمنعهم من الاندفاع نحو أرض الصين والإيغال فى مملكة الصفد وما عن عبر القائد العظيم النهر ، واستقرت قدماه على ضفته الثانية حتى بادر وتوضأ هو وجنوده من مائه فأحسنوا الوضوء... واستقبلوا القبلة ، وصلوا ركعتين شكرا لله واهب النصر ، ثم كافأ القائد الكبير غلامه فروخا على حسن بلائه فأعتق رقبته . وقسم له نصيبه من الغنائم الكثيرة الوفيرة ثم زاده من عنده شيئا كثيرا لم تطل الحياة بعد ذلك اليوم الأبلج الأغر بالربيع بن زياد الحارثى .. حيث وافاه الأجل المحتوم بعد سنتين اثنتين من تحقيق حلمه الكبير فمضى إلى ربه راضيا مرضيا.

أما الفتى الباسل الشجاع فروخ فقد عاد إلى المدينة المنورة يحمل معه سهمه الكبير من الغنائم . والهبة السخية التى وهبها له قائده العظيم الربيع ، ويحمل فوق ذلك حريته الغالية وذكرياته الغنية بروائع البطولات المكللة بغبار الوقائع.

كان فروخ حين هبط مدينة رسول الله ﷺ شابا موفور الشباب دفاق الحيوية ممتلئا فتوة وفروسية ، وكان يخطو نحو الثلاثين من عمره... وقد عزم فروخ على أن يتخذ لنفسه منزلا يستقر فيه ، وزوجة يسكن إليها . فابتاع دارا من أوسط دور المدينة واختار امرأة راجحة العقل كاملة الفضل ، صحيحة الدين تقاربه فى السن واقترن بها نعم فروخ بداره التى أكرمه الله بها ، ولقى فى صحبة زوجته هناءة العيش وطيب العشرة ونضارة الحياة فوق ما كان يرجو ويأمل.

لكن تلك الدار العامرة على كل ما توافر لها من المزايا ، وتلك الزوجة الصالحة على كل ما حباه الله من كريم الشمائل وجليل الخصائل لم يستطيعا أن يتغلبا على حنين الفارس المؤمن إلى خوض المعارك . وشوقه إلى سماع وقع النصال على النصال ، وولعه فى استئناف الجهاد فى سبيل الله . فكان

كلما ترددت فى المدينة أخبار انتصارات الجيوش الإسلامية الغازية فى سبيل الله تأججت أشواقه إلى الجهاد ، واشتد حنينه إلى الاستشهاد.

وفى ذات يوم من أيام الجمع سمع فروخ خطيب المسجد النبوى يزف للمسلمين بشرى انتصارات الجيوش الإسلامية فى أكثر من ميدان ، ويحض الناس على الجهاد فى سبيل الله . ويرغبهم فى الاستشهاد وإعزازا لدينه ، وابتغاء لمرضاته فعاد إلى بيته وقد عقد العزم على الانضواء تحت راية من رايات المسلمين المنتشرة تحت كل نجم ، وأعلن عزمه هذا لزوجته فقالت له : يا أبا عبد الرحمن ، لمن تتركنى وتترك هذا الجنين الذى أحمله بين جوانحى ؟!

فأنت رجل غريب عن المدينة ، لا أهل لك فيها ولا عشيرة . فقال أتركك لله ورسوله ... ثم إنى خلفت لك ثلاثين ألف دينار جمعتها من غنائم الحرب ، فصونيها ، وثمريها وكثريها بالتجارة ، وأنفقى منها على نفسك وولدك بالمعروف حتى أعود إليك سالما غانما ... أو يرزقنى الله الشهادة التى أتمناها . ثم ودعها ومضى إلى غايته.

ووضعت السيدة الرزان الرصينة الرزينة حملها بعد رحيل زوجها ببضعة أشهر ، فإذا هو غلام مشرق الوجه حلو القسمات رائع المجتلى ، ففرحت به فرحا عظيما كاد ينسيها فراق أبيه ... وأطلقت عليه اسم ربيعة .

بدت على الغلام الصغير علامات النجابة منذ نعومة أظفاره ، وظهرت أمارات الذكاء فى أفعاله وأقواله فأسلمته أمه إلى المعلمين ، وأوصتهم أن يحسنوا تعليمه.

واستدعت له المؤدبين وحضتهم على أن يحكموا تأديبه ، فما لبث كثيرا حتى أتقن القراءة والكتابة ، ثم حفظ كتاب الله ﷻ وجعل يرتله نديا طريا كما أنزل على فؤاد محمد ﷺ ووعى ما تيسر له من حديث رسول الله ﷺ ،

واستظهر من كلام العرب ما يحسن بمثله أن يستظهر ... وعرف من أمور الدين ما ينبغى أن يعرف ، وقد أغدقت أم ربيعة على معلمى ولدها ومؤدبيه المال والجوائز إغداقا ، فكانت كلما رأته يزداد علما تزيدهم برا وإكراما وكانت تترقب عودة أبيه الغائب ، وتجتهد فى أن تجعله قرة عين لها وله ، لكن فروخا طالت غيبته ، ثم تضاربت الأقوال فيه فقال بعضهم : إنه وقع أسيرا فى يد الأعداء ، وقال آخرون : إنه ما زال طليقا يواصل الجهاد ، وقال فريق ثالث عائد من ساحات القتال : إنه نال الشهادة التى تمناها . فترجح هذا القول الأخير عند أم ربيعة لانقطاع أخباره ، فحزنت عليه حزنا أمض فؤادها ... ثم احتسبته عند الله.

كان ربيعة يومئذ قد قارب البلوغ وكاد يدخل مداخل الشباب فقال الناصحون لأمه : ها هو ربيعة قد استكمل ما ينبغى لفتى مثله أن يستكمله من القراءة والكتابة ، وزاد على أقرانه فحفظ القرآن وروى الحديث فلو تخيرت له حرفة من الحرف فإنه لا يلبث أن يتقنها وينفق عليك وعلى نفسه مما تدره من خير . فقالت: أسأل الله أن يخير له ما فيه صلاح معاشه ومعاده.

إن ربيعة قد اختار لنفسه العلم ، وعزم على أن يعيش متعلما ومعلما ما امتدت به الحياة.

مضى ربيعة فى الطريق التى اختطها لنفسه غير وان ولا مقصر وأقبل على حلقات العلم التى كان يذخر بها مسجد المدينة كما يقبل الظماء على الموارد العذاب.

ولزم البقية الباقية من الصحابة الكرام ، وعلى رأسهم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، وأخذ عن الرعيل الأول من التابعين وفى مقدمتهم سعيد بن المسيب ومكحول الشامى ، وسلمة بن دينار .

وواصل ربيعة كلال ليله بكلال نهاره حتى أنهكه الجهد ، فإذا كلمه أحد فى ذلك ودعاه إلى الرفق بنفسه قال: سمعنا أشياخنا يقولون: إن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته نفسك كلها.

ثم ما لبث كثيرا حتى ارتفع ذكره ، وبزغ نجمه ، وكثر إخوانه . وأولع به تلاميذه ، وسودة قومه . ولقد سارت حياة عالم المدينة هادئة وادعة... فشطر من يومه فى داره لأهله وإخوانه... وآخر فى مسجد رسول الله ﷺ لمجالس وحلقاته.. ولقد مضت حياته متشابهة حتى وقع فيها ما لم يكن فى الحسبان.

وفى ذات عشية من عشيات الصيف المقمرة بلغ المدينة المنورة فارس فى أواخر العقد السادس من عمره ، ومضى فى أزقتها راكبا جواده قاصدا داره وهو لا يدرى إن كانت داره ما تزال قائمة على عهده بها أم أن الأيام قد فعلت بها ما فعلت ... فلقد مضى على غيابه ثلاثون عاما أو نحو ذلك . وكان يسائل نفسه عن زوجته الشابة التى خلفها فى تلك الدار ما فعلت؟ وعن جنينها التى كانت تحمله بين جوانحها : أوضعته ذكرا أم أنثى؟ أحى هو أم ميت؟ وإذا كان حيا ، فما شأنه؟ وعن ذلك المبلغ الكبير الذى جمعه من غنائم الجهاد وتركه عندها حينما مضى مجاهدا فى سبيل الله مع الجيوش الإسلامية المتوجهة لفتح بخارى وسمرقند وما جاورهما... ولقد كانت أزقة المدينة وشوارعها عامرة بالغادين والرائحين.

فالناس لم يفرغوا من صلاة العشاء إلا وشيكا لكن أحدا من هؤلاء الناس الذين مر بهم لم يعرفه ، ولم يأبه له ، ولم يلتفت إلى جواده المطهم ، ولا إلى سيفه المتدلى على عاتقه... فسكان المدينة الإسلامية كانوا قد ألفوا منظر المجاهدين الغادين إلى القتال فى سبيل الله ، أو العائدين منه.

لكن ذلك كان سببا فى إثارة حزن الفارس وازدياد وساوسه ، وفيما كان الفارس سابحا فى أفكاره هذه ، ماضيا يتلمس طريقه فى تلك الأزقة التى عراها التغيير وجد نفسه فجأة أمام داره.

وألفى بابها مشقوقا فأعجلته الفرحة عن الاستئذان على أهلها... وولج من الباب وأوغل فى صحن الدار... سمع رب الدار صرير الباب فأطل من عليته فرأى فى ضوء القمر رجلا متوشحا سيفه متقلدا رمحه يقتحم عليه فى الليل داره ، وكانت زوجته الشابة تقف غير بعيد عن مرمى بصر الرجل الغريب.

فهب مغاضبا ونزل إليه حافيا وهو يقول : أتستتر بجنح الليل يا عدو الله ، وتقتحم منزلى ، وتهجم على حريمى؟! واندفع نحوه كما يندفع الأسد الضارى إذا أريد عرينه بسوء ... ولم يدع له فرصة للكلام.

وتواثب كل من الرجلين على صاحبه ، وعلت ضوضاؤهما وارتفع ضجيجهما وتدفق الجيران على البيت من كل صوب فأحاطوا بالرجل الغريب إحاطة الغل بالعنق وأعانوا جارهم عليه . فامسك به صاحب الدار وأحكم قبضته على خناقه وقال : والله لا أطلقك - يا عدو الله- إلا عند الوالى . فقال الرجل : ما أنا بعدو الله ، ولم أرتكب ذنبا . وإنما هو بيتى ، وملك يمينى ، وجدت بابه مفتوحا فدخلته . ثم التفت على الناس وقال : يا قوم...اسمعوا منى. هذا البيت بيتى... شريته بمالى ...يا قوم ، أنا فروخ ألم يبق فى الجيران أحدا يعرف فروخا الذى غدا منذ ثلاثين عاما مجاهدا فى سبيل الله؟! وكانت والدة صاحب الدار نائمة فاستيقظت على الضجيج وأطلت من نافذة عليتها فرأت زوجها فروخ بشحمه ولحمه . فكادت الدهشة تعقد لسانها لكنها ما لبثت أن قالت : دعوه... دعه يا ربيعة... دعه يا ربيعة... إنه أبوك. انصرفوا عنه يا قوم ، بارك الله عليكم.

حذار يا أبا عبد الرحمن إن هذا الذى تتصدى له ولدك وفلذة كبدك ، فما كادت كلماتها تلامس الآذان حتى أقبل فروخ على ربيعة وجعل يضمه ويعانقه.

وأقبل ربيعة الابن على أبيه فروخ وطفق يقبل يديه وعنقه ورأسه . وانفض عنهما الناس.

ونزلت أم ربيعة تسلم على زوجها الذى ما كانت تظن ظنا أنها ستلقاه على هذه الأرض بعد أن انقطعت أخباره مدة تقارب ثلث قرن من الزمان.

جلس فروخ إلى زوجته ، وطفق يحدثها عن أحواله . ويكشف لها عن أسباب انقطاع أخباره... ولكنها كانت فى شغل شاغل مما يقول ، فقد نغص عليها فرحتها بلقائه واجتماع شمله بولده خوفها من غضبته على إضاعة كل ما أودعه لديها من مال.

كانت تقول فى نفسها: ماذا لو سألنى الآن عن ذلك المبلغ الكبير الذى تركه أمانة عندى وأوصانى أن أنفق منه بالمعروف؟ ماذا سيكون منه لو أخبرته أنه لم يبق منه شيء؟! أيقنعه قولى له؟ إننى أنفقت ما تركه عندى على تربية ولده وتعليمه.

وهل تبلغ نفقة ولده ثلاثين ألف دينار؟! أيصدق أن يد ابنه أندى من السحاب فى الكرم ، وأنه لا يبقى على دينار ولا درهم ، وأن المدينة كلها تعلم أنه أنفق على إخوانه الآلاف المؤلفة.

وفيما كانت أم ربيعة غارقة فى هواجسها هذه التفت إليها زوجها وقال : لقد جئتك يا أم ربيعة بأربعة آلف دينار . فأخرجى المال الذى أودعته عندك لنضم هذا إليه ، ونشترى بالمال كله بستانا أو عقارا نعيش من غلته ما امتدت بنا الحياة . فتشاغلت عنه ولم تجبه بشىء ، فأعاد عليه الطلب وقال : هيا ...أين المال حتى أضم إليه ما معى؟ . فقالت: لقد وضعته حيث يجب أن يوضع ، وسأخرجه لك بعد أيام قليلة إن شاء الله.

وقطع صوت المؤذن عليهما الحديث ، فهب فروخ إلى إبريقه فتوضأ ثم مضى مسرعا نحو الباب وهو يقول : أين ربيعة؟ فقالوا: سبقك إلى المسجد منذ النداء الأول ولا نحسب أنك تدرك الجماعة. بلغ فروخ المسجد فوجد أن الإمام قد فرغ وشيكا من الصلاة فأدى المكتوبة ، ثم مضى نحو الضريح الشريف فسلم على رسول الله ﷺ ، ثم انتهى نحو الروضة المطهرة فقد كانت

فى فؤاده أشواق إليها وحنين إلى الصلاة فيها . متخذ لنفسه مكانا فى رحابها النضرة ، ثم جعل يتنفل فصلى ما شاء الله أن يصلى ثم دعا بما ألهم أن يدعو.

ولما هم بمغادرة المسجد وجد باحته قد غصت على رحبها بمجلس من مجالس العلم لم يشهد له نظير من قبل.

ورأى الناس قد تحلقوا حول شيخ المجلس حلقة إثر حلقة حتى لم يتركوا فى الساحة موطئا لقدم.

وأجال بصره فى الناس ، فإذا فيهم شيوخ معممون ذوو أسنان . ورجال متوقرون تدل على هيئاتهم على أنهم لهم منزلة وشأن.

وشبان كثيرون قد حثوا على ركبهم واخذوا أقلامهم بأيديهم وجعلوا يلتقطون ما يقوله الشيخ كما تلتقط الجواهر والدرر ويحفظونه فى دفاترهم كما تحفظ النفائس التى تقتنى . وكان الناس متجهين بأبصارهم إلى حيث يجلس الشيخ منصتين على كل ما يلفظ من قول حتى لكأن على رؤوسهم الطير ، وكان المبلغون ينقلون ما يقوله الشيخ فقرة فقرة فلا يفوت أحدا شيئا من كلامه مهما كان بعيدا ، وحال فروخ أن يتبين صورة الشيخ فلم يفلح لموقعه منه وبعده عنه.

لقد راعه منه بيانه المشرق ، وعلمه المتدفق . وحافظته العجيبة . وأدهشه خضوع الناس بين يديه . وما هو إلا قليل حتى ختم الشيخ مجلسه ونهض واقفا . فهب الناس متجهين نحوه ، وتزاحموا عليه وأحاطوا به ، واندفعوا وراءه يشيعونه إلى خارج المسجد.

وهنا التفت فروخ إلى رجل كان يجلس بجانبه وقال: « قل لى – بربك– من الشيخ؟! فقال الرجل باستغراب : أولست من أهل المدينة ؟ فقال فروخ: بلى.

فقال الرجل: وهل فى المدينة رجل واحد لا يعرف الشيخ؟!

فقال فروخ: اعذرنى إذا كنت لا أعرفه ، فقد أمضيت نحوا من ثلاثين عاما بعيدا عن المدينة ، ولم أعد إليها إلا أمس . فقال الرجل: لا بأس ... اجلس إلى قليلا أحدثك عن الشيخ .

ثم قال: إن الشيخ الذى استمعت إليه سيد من سادات التابعين وعلم من أعلام المسلمين . وهو محدث المدينة وفقيهها وإمامها على الرغم من حداثة سنه . فقال فروخ : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله . فأتبع الرجل يقول : وإن مجلسه يضم - كما رأيت - الإمام مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النعمان ، وسفيان الثورى ، والأوزاعى ، والليث بن سعد وغيرهم.

فقال فروخ: غير أنك.. ولكن الرجل قاطعه ولم يتح له فرصة لإتمام كلامه وأردف يقول : وهو فوق ذلك كله سيد كريم الشمائل ، موطأ الأكناف سخى اليد ... فما عرف أهل المدينة أحدا أوفر منه جودا لصديق أو ابن صديق ، ولا أزهد منه فى متاع الدنيا ، ولا أرغب منه بما عند الله . فقال فروخ : ولكنك لم تذكر لى اسمه ؟ فقال الرجل : إنه ربيعة الرأى . فقال فروخ : ربيعة الرأى . فقال الرجل : نعم اسمه ربيعة ، لكن علماء المدينة وشيوخها دعوه ربيعة الرأى ؛ لأنهم كانوا إذا لم يجدوا لقضية نصا فى كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ لجؤوا إليه...فيجتهد فى الأمر مالم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص ويأتيهم بالحكم فيما أشكل على وجه ترتاح إليه النفوس وتطمئن له القلوب.

فقال فروخ فى لهفة: ولكنك لم تنسبه لى.

فقال الرجل: إنه ربيعة بن فروخ المكنى بأبى عبد الرحمن. لقد ولد بعد أن غادر أبوه المدينة مجاهدا فى سبيل الله . فتولت أمه تربيته وتنشئته ، ولقد سمعت الناس قبيل الصلاة يقولون : إن أباه عاد الليلة الماضية . عند ذلك تحدرت من عينى فروخ دمعتان كبيرتان لم يعرف لهما الرجل سببا ...ومضى يحث الخطا نحو بيته . فلما رأته أم ربيعة والدموع تملأ عينيه قالت : ما بك يا أبا ربيعة؟ فقال : ما بى إلا الخير.

لقد رأيت ولدنا ربيعة فى مقام من العلم والشرف والمجد ما رأيته لأحد من قبل.

فاغتنمت أم ربيعة الفرصة وقالت : أيهما أحب إليك ... ثلاثون ألف دينار أم هذا الذى بلغه ولدك من العلم والشرف؟ فقال : بل - والله - هذا أحب إلى وآثر عندى من مال الدنيا كله.

فقالت: لقد أنفقت ما تركته عندى عليه . فهل طابت نفسك بما فعلت ؟! فقال : نعم ...وجزيت عنى وعنى وعن المسلمين خير الجزاء.

انتهت القصة الرائعة وهى حقيقة واقعة فكل علماء المسلمين يا أختاه الذين تفقهوا فى دينهم يعرفون من هو ربيعة الرأى ، بل يأخذون الرسائل الجامعية العالية فى علمه وفقهه . إنه نتاج تربية امرأة مؤمنة بنت بالمال عالم أمة ما زال علمه يتداول بين المسلمين على مدى ألف وخمسمائة عام إلى يومنا هذا.

وإذا نظرنا إلى القادة فى زمان الصحابة نجد أن معاوية بن أبى سفيان ﷺ ، ورث عن أمه هند بنت عتبة من قوة الشخصية وألمعية الذهن ما لم يرثه عن أبيه أبى سفيان ، ولما رأت مخايل النبل والذكاء على ملامحه ، وهو وليد ، وقيل لها:« إن عاش ساد قومه » قالت : « ثكلته أمه إن لم يسد إلا قومه ».

ولم يستطع معاوية أن يودع يزيدا ابنه وخليفته ما كان يتمتع به هو من رأى وحلم وسياسة ، لأن أمه امرأة عربية ساذجة تزوجها معاوية لجمالها ولمكان قبيلتها وعشيرتها.

وكذلك لم يستطع أخو معاوية زياد بن أبى سفيان الذى كان مثالا فى الذكاء والدهاء والفطنة ، لم يستطع أن ينقل فضائله لابنه عبيد الله ، فنشأ أحمق أخرق عييا غبيا ، إذ كانت أمه « مرجانة » امرأة فارسية ، لا تملك من المواهب ما يؤهلها أن تكون أما لرجل عظيم.

وقد خلد التاريخ رجلين عظيمين من بنى أمية ، عرف أولهما بالحول والطول والعقل والحكمة والحزم ، ونهج ثانيهما سنن العدل والخير والصلاح والتقوى . وكلاهما ثمرة المرأة الحصيفة العظيمة.

أما أولهما فعبد الملك بن مروان ، وأمه عائشة بنت المغيرة بن أبى العاص ابن أمية المعروفة بقوة الشخصية ، ونفاذ العزيمة ، وذكاء القلب.

وأما ثانيهما فعمر بن عبد العزيز ﷺ ، خامس الخلفاء الراشدين ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب التى كانت أكرم أهل زمانها كمالا وأجلهن خلالا ، وأمها المرأة العابدة التقية التى اتخذها عمر زوجة لابنه عاصم ، عندما رأى فيها الصدق مجسدا والاستقامة ناطقة ، يوم لم ترض أن تمذق اللبن بالماء كما طلبت منها أمها ؛ لأن الله يراها.

وفى العصر الأندلسى نجد أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الذى انطلق من مهد اليتم ليؤسس دولة فى المغرب ، خضع لها عواهل أوربا وملوكها ، واختلف إلى معاهد العلم فيها علماء الأمم وفلاسفتها ، وكانت شطرا كبيرا من حضارة الأمة الإسلامية العالمية.

وإذا ما فتشنا عن سر عظمة هذا الرجل ألفينا المرأة الأم العظيمة التى عرفت كيف تغرس فيه روح التوثب والعظمة والطموح.

وفى العصر العباسى تستوقفنا امرأتان عظيمتان ، أودعتا فى ابنيهما روح السمو وروح النبوغ والتفوق ، أولاهما أم جعفر بن يحيى وزير الخليفة هارون الرشيد(١) .

وثانيهما: أن الإمام الشافعى الذى لم ير أباه إذ مات ، وهو رضيع ، وتولت أمه تربيته والعناية به.

---

(١) انظر كتابنا الخلافة العباسية ط دار ابن حزم بيروت ـ وكتابنا الخيزران بنت عطاء أم هارون الرشيد ط دار ومكتبة الهلال بيروت ـ سلسلة الأمهات .

وفى تاريخنا من نوابه النساء كثيرات ، نقلت نبوغهن ، وأخلاقهن العظيمة إلى أبنائهن فسادوا الدنيا وغلبوها.

ودورك ومسؤوليتك أيتها الأخت المسلمة أن تتعرفى على حاجات أطفالك النفسية ، وتقدر اختلاف أمزجتهم وميولهم ، فتحسن التسرب إلى داخل تلك النفوس ، والتوغل فى عوالجها الصافية البريئة ؛ لتغرس فيها القيم العليا والشمائل الرفيعة والأخلاق العالية ، متبعة أبرع الأساليب وأذكاها فى صقل تلك النفوس . وشخصية الأم بطبيعتها قريبة من الأولاد ، محببة إليهم جذابة لهم ، تتفتح لها نفوسهم وقلوبهم ، فينفقون إليها ما يعتلج فيها من خواطر ومشاعر ، فتقبل على تسديدهم وصقل طباعهم ومشاعرهم ، مراعية مستواهم العقلى والزمنى ، ملاعبة إياهم تارة وممازحة تارة أخرى ، ومجاملة إياهم تارة ثالثة . ملقية فى أسماعهم عبارات المحبة والعطف والحنان والإيثار فإذا هم يزدادون لها حبا ، وعلى سماع توجيهاتها وتسديداتها إقبالا إذا هم يمتثلون أمرها وتوجيهاتها امتثالا نابعا من القلب ، وشتان بين طاعة نابعة من القلب وقائمة على الحب والاحترام والتقدير والثقة ، وبين طاعة كاذبة قائمة على الكبت والعنف والقهر والانصياع الزجرى ، فالأولى طاعة دائمة وطيدة مثمرة والثانية طاعة مؤقتة هشة عقيم ، سرعان ما تزول وتتلاشى بزوال الشدة والقهر والكبت والعنف والزجر.

والأم تملأ قلبها وقلب أبنائها بالحب العميق ، والحنان الصادق ، وكلما كان ذلك كلما كانت نفسيتهم صحيحة وصحية ، وعليك أن تملئى أذهان أولادك بالأمل والطموح ، حتى تغمرين حياتهم بالبشر والسعادة ، وتزرعين فى نفوسهم الثقة والطمأنينة.

وعليك أن تكونى رحيمة بأولادك ، فالرحمة خلق إسلامى أصيل حض عليه الرسول ﷺ وأفعاله[1] وكان من أبرز أخلاقه الرحمة ، ولا سيما بالأولاد

---

(١) انظر كتاب أخلاق النبى ﷺ ط مكتبة ابن كثير الكويت .

كما أخبرنا أنس ﷺ إذ قال: « ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ ، قال : كان إبراهيم مسترضعا له فى عوالى المدينة ، فكان ينطلق ونحن معه ، فيدخل البيت فيأخذه فيقبله ، ثم يرجع »(١).

وكان النبى ﷺ رفيقا بالأطفال ، عطوفا يغمرهم بحنانه ، فيروى أنس ﷺ أن النبى ﷺ كان كلما مر بصبيان هش لهم وسلم عليهم(٢).

ومن أقواله ﷺ : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا » (٣).

ويروى أبو هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قبل الحسن بن على ، فقال الأقرع بن حابس : إن لى عشرة من الأولاد ما قبلت منهم أحدا ، فقال رسول الله ﷺ : " من لا يرحم لا يرحم »(٤)، وجاء أعرابى يوما إلى رسول الله ﷺ فقال : أتقبلون صبيانكم ؟ فما نقبلهم ، فقال ﷺ : « أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة »(٥).

أما السيدة عائشة - رضى الله عنها - فتروى : أن فاطمة كانت إذا دخلت على النبى ﷺ قام إليها ، فرحب بها ، وقبلها ، وأجلسها فى مجلسه ، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ، فأخذت بيده ، فرحبت به وقبلته ، وأجلسته فى مجلسها ، وأنها دخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه فرحب بها وقبلها(٦).

ويتحدث الرسول ﷺ عن نساء قريش فيشيد بهم ؛ لأنهن أحنى النساء

---

(١) صحيح مسلم ١٥/ ٧٥ كتاب الفضائل : باب رحمة النبى ﷺ وتواضعه .
(٢) متفق عليه : انظر شرح السنة ١٢/ ٢٦٤ كتاب الاستئذان : باب التسليم على الصبيان .
(٣) رواه أحمد : انظر شرح السنة ١٣/ ٣٤ كتاب البر والصلة : باب رحمة الولد وتقبيله .
(٤) متفق عليه .
(٥) فتح البارى ١٠/ ٤٢٦ ـ كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله .
(٦) انظر فتح البارى ٨/ ١٣٥ كتاب المغازى : باب مرضه ﷺ ووفاته . وأبو داود ٤/ ٤٨٠ كتاب الأدب : باب ما جاء فى القيام .

على أولادهن وأكثرهن اهتماما بتربيتهم وتنشئتهم والقيام على أمورهم والتضحية فى سبيلهم ، مع رعايتهن لأزواجهن ، وذلك فيما رواه البخارى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « نساء قريش خير نساء ركبن الإبل ، أحناه على طفل ، وأرعاه على زوج فى ذات يده »[(١)].

وأهم ما نوصى به كل أخت مسلمة هو العدل بين أبنائها ، فتسوى بين أولادها وبناتها ، فلا تفضل أحدا على آخر فى الأمور كلها ؛ لأن هناك كراهة فى شريعة الإسلام لمن يفضل ولد على آخر ، وذلك لما يترك من أثر سيئ فى نفس الولد الذى فضل أخوه عليه ؛ ذلك لأن الطفل إذا لم يشعر بالمساواة بينه وبين إخوته وأخواته ينشأ عدوانيا حاقدا ، من شدة ما تأكل الغيرة منه ، أما إذا شعر الطفل والولد بالمساواة فإنه ينشأ محبا لمن حوله . متعاونا معهم ، لا يخطر بباله حقد ولاحسد ولا عدوانية ، فيصبح متفائلا راضيا متوازنا نفسيا يؤثر على نفسه ويتسامح ، وهذا ما دعا له الإسلام منك أيتها الأم وكذلك الأب.

فقد روى الشيخان وغيرهما عن النعمان بن بشير - رضى الله عنه - أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال : إنى نحلت ابنى هذا غلاما كان لى ، فقال رسول الله ﷺ : " أكل ولدك نحلته مثل هذا؟ " فقال : لا ، فقال رسول الله ﷺ "فأرجعه » وفى رواية: فقال رسول الله ﷺ « أفعلت هذا بولدك كلهم » قال: لا ، قال: « اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم "، فرجع أبى فرد تلك الصدقة ، وفى رواية : فقال رسول الله ﷺ: « يا بشر ألك ولد سوى هذا ؟ " قال : نعم ، قال : أكلهم وهبت له مثل هذا ؟ قال : لا ، قال : " فلا تشهدنى إذا ، فإننى لا أشهد على جور» ثم قال: " أيسرك أن يكونوا لك فى البر سواء؟ " قال : بلى ، قال: " فلا إذا »[(٢)].

---

(١) فتح البارى ٨/ ٢٣٥ كتاب المغازى .

(٢) متفق عليه ـ انظر شرح السنة ٨/ ٢٩٦ كتاب العطايا والهدايا ، باب الرجوع فى هبة الولد والتسوية بين الأولاد فى النحل .

لذلك فإنه يجب عليك يا أختاه يا أم الأبناء والبنات أن تكونى تقية عادلة فى أولادك جميعا ، لا تفضلى أحدا منهم على الآخر ، سواء كان فى النفقة أم الهبة أم المعاملة ، وبذلك تنفتح لكى قلوبهم جميعا ، وتلهج ألسنتهم بالدعاء لك وتمتلئ نفوسهم ببرك وإجلالك وإكبارك.

وأنت كأم مسلمة صادقة لا تفرقى فى حنوك ورعايتك بين البنين والبنات كما تفعل بعض النسوة اللائى لم يرتهن من العقلية الجاهلية ، بل تنظر إلى البنين والبنات بعين واحدة من الرحمة والعدل والرعاية والحنو وأنها لتدرك أن الأولاد هبة من الله ، وأن هبة الله من البنين والبنات نعمة لا مدفع لها ولا مغير ولا راد: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

ذلك فى تربية البنات وحسن تربيتهن أجرا عظيما ، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ ، فقد رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : جاءتنى امرأة ومعها ابنتان لها ، فسألتنى فلم تجد عندى شيئا غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياه ، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ، ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت وابنتاها ، فدخل على النبى ﷺ ، فحدثته حديثا فقال النبى ﷺ: « من ابتلى من البنات بشيء فأحسن إليهن ، كن له سترا من النار »[1].

وفى رواية أخرى لمسلم عن عائشة أيضا : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمرة تأكلها، فاستطعمتها ابنتاها ، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكل بينهما ، فأعجبنى شأنها ، فذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ ، فقال: « إن الله قد أوجب لها بها الجنة ، أو أعتقها لها من النار »[2] .

---

(١) متفق عليه .
(٢) صحيح مسلم ١٦/ ١٧٩ كتاب البر والصلة : باب الإحسان إلى البنات .

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: « من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن ، فقال رجل : أو اثنتان يا رسول الله ؟ قال: أو اثنتان فقال رجل : أو واحدة يا رسول الله ؟ قال أو واحدة »(١) ، وعن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من ولدت له ابنة فلم يئدها ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها - يعنى الذكور - أدخله الله عز وجل بها الجنة »(٢) .

وتتسع رحمة الرسول الكريم ﷺ بالإناث ، فتشمل إلى جانب البنات الأخوات أيضا ، وذلك فى الحديث الذى أخرجه البخارى فى الأدب المفرد عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: « لا يكون لأحد ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة»(٣).

وفى رواية للطبرانى: « ما من أحد من أمتى يكون له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات ، يعولهن حتى يبلغن إلا كان معى فى الجنة هكذا ، وجمع إصبعيه السبابة والوسطى »(٤).

وأنت يا أختاه كأم مسلمة عاقلة رزينة لا تفضلين الذكور على الإناث ولا تتأففين من تربية البنات ، بعد ما سمعت أحاديث رسول الله ﷺ فى شأن تربية البنات ، ويعد من رباهن أو أحسن إليهن جنات عرضها السموات والأرض وفى صحبة الرسول الكريم ﷺ ؟!!.

وأنت إذا نظرت إلى التوجيه النبوى الكريم ستجدين فى البنت فى المجتمع الإسلامى الراشد ، محبوبة ، مصونة ، مكرمة ؛ تجد دوما الدفء فى الأسرة الإسلامية ، وخاصة مع والدتها ، فهى تحميها وتدافع عنها ، وترعاها ، طوال

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٣٣٥ ورواه الحاكم ٤/ ١٧٦ كتاب البر والصلة ، وقال : صحيح الإسناد .
(٢) رواه الحاكم فى المستدرك ٤/ ١٧٧ كتاب البر والصلة ، وقال : صحيح الإسناد .
(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ١/ ١٦٢ باب من عال ثلاث أخوات .
(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسنادين ، ورجال أحدهما رجال الصحيح . انظر مجمع الزوائد ٨/ ٥٧ .

فترة إقامتها فى بيت والديها ، أو إخوتها أو غيرهما ممن يجب عليهم كفالتهم وسواء انتقلت على بيت الزوجية أم لم تنتقل ، ذلك أن الإسلام كفل لها حياة الصون والإعزاز والكفاية ، ووقاها حياة التبذل والإذلال والحاجة والضياع ، مما تلقاه المرأة فى المجتمعات البشرية الضالة الشاردة عن هدى الله ، إذ ما تكاد البنت تبلغ الثامنة عشرة من عمرها حتى تخرج من محضن أبويها الدافئ ، لتلقى الحياة المادية القاسية ، الحافلة بالمكاره والمخاطر ، وهى فى أشد الحاجة إلى الحماية والحنو والرعاية والصون.

وهناك جانب آخر مهم ، وهو الدعاء على الأولاد عند ساعة غضب منهم فالأم المسلمة الواعية لا تدعو على أولادها ، لأن هذا الأمر ليس بالأمر الهين لنهى الرسول ﷺ عن الدعاء على الأولاد ؛ وخشية أن يوافق الدعاء ساعة استجابة ، وفى ذلك حديث رسول الله ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها عطاء فيستجيب لكم » .

فالدعاء عادة غير مستحبة وخاصة على الأولاد ، وإذا راجعت أى أم نفسها على ما بدر منها فى ساعة الغضب سنجدها قد ندمت على فعلتها عندما ذهب عنها الغضب وعادت على رشدها . ويجب أن تنتبهى على كل ما يؤثر فى بناء شخصية أبنائك وتكوين شخصيتهم فترقبين نشاطهم وهواياتهم ، وتعرفين ما يقرؤون وما يكتبون من حيث لا يشعرون ، وفى اللحظة المناسبة تتدخلين للإصلاح والتوجيه . ووقت فراغهم مسؤوليتك تعرفين أماكن قضائه ، وأصدقاء هذا الوقت هل هم أصدقاء سوء أم غير ذلك وما هى الأماكن التى يرتادها الأبناء مع أصدقائهم.

ومن مسؤوليتك اختيار كتاب ابنك وتنظيم اطلاعه وثقافته وتوجيه اهتمامه إلى طريق الإثراء والتثبيت . وتنمية الهوايات الخيرة ، وإبعادهم عن هوايات الضرر والشر ، وتنمية أذواقهم وكيفية تعاملهم مع أقرانهم والمجتمع

كله بما يتماشى مع شريعتنا السمحاء وهدى رسولنا الكريم ﷺ ، وحمايتهم من كل خطر يقترب منهم ومن حياتهم الصحية السليمة ، وتنشئتهم تنشئة اجتماعية مدروسة وحول التنشئة الاجتماعية للفتاة المسلمة تحدث العلماء فى رسائل علمية ، وعددوا آداب التنشئة الاجتماعية وإليك نماذج من هذه الآراء:

١) آداب الطعام والشراب: أوجب الإسلام على الوالدين أن ينفقا على عيالهم رزقا طيبا حلالا ، وأن يتعهداهم بالأدب فى تناول الطعام والشراب ، وقد فصلت السنة المطهرة هذه المواضع فى الآداب ، بحيث لم تترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصتها ، ومن ثم يأتى دور الوالدين فى دعم وغرس القيم ، والعادات الإسلامية وبخاصة فى مرحلة الطفولة الأولى التى تتشرب بسرعة هذه القيم والاتجاهات فتثبت عليها فى الكبر.

ومن آداب الطعام والشراب التى تتعلق بالتنشئة الاجتماعية السليمة ، والتى ينبغى أن تراعيها الأم على الأخص فى أثناء تربية البنت:

* آداب قبل الأكل.

* آداب أثناء الكل.

* آداب بعد الأكل.

فمن القسم الأول: أن تعود أن تكثر الأيدى على طعامها ، بأن تدعو أخواتها مثلا للأكل معها ويشرح لها قول أهل العلم أو بعضهم : إذا جمع الطعام أربعا فقد كمل : إذا ذكر اسم الله فى أوله ، وحمد الله فى آخره ، وكثرت عليه الأيادى وكان من حل »[(١)].

تعويدها غسل يديها قبل الاكل وبعده:

أن تحبب الأم لها الأكل وهى جالسة ، وتروى الأم على مسامعها حديث

---

(١) ذكره شهر بن حوشب بقوله : كان يقال ... انظر المحدث الفاضل ١/ ١٩٥ .

أنس ﷺ عن النبى ﷺ : أنه نهى أن يشرب الرجل قائما ، قال قتـادة : فقلنـا : فالأكل ؟ فقال : ذاك أشر وأخبث .

أن تعودها الجلسة الصحيحة أثناء الطعام ، وعدم الاتكاء لما فيه من الضرر الصحى ؛ ولأنه من ظواهر الكبر - فعن أبى جحيفة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « لا آكل متكئا »[١].

ومن السنة أن تعودى طفلتك وضع الطعام على السـفرة الموضـوعة علـى الأرض ؛ فإنه أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ من رفعه على المائدة ، وهـو أدنـى إلى التواضع ، مع عدم الكراهية فى وضعه على المائدة . ويسـتحب أن تقـول لضيفها : باسم الله كدعوة للإقدام على الطعام والبدء فيه .

ومن القسم الثانى: آداب أثناء الأكل : يستحب الجهر بالتسمية منك ومـن الزوج لتنبيه ابنتك ـ وتقول : بسم الله فى أوله وآخره لقول رسول الله ﷺ : " إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى ، فإن نسى أن يذكر اسـم الله تعـالى فـى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره »[٢].

ومن الآداب التى تعلميهـا لطفلتـك ألا تـزاحم علـى المائـدة ، ولا تسـبق غيرها ، وأن تتناول الطعام باليد اليمنـى ؛ لحـديث رسـول الله ﷺ الـذى رواه ابن عمر - رضـى الله عنهمـا - أن رسـول الله ﷺ قـال : « إذا أكـل أحـدكم فليأكل بيمينـه ، وإذا شـرب فليشـرب بيمينـه ، فـإن الشـيطان يأكـل بشـماله ويشرب بشماله »[٣].

وأن تتناول الطعام من أمامها ، فعن عمر بن أبى سلمة قال : كنـت غلامـا فى حجر رسول الله ﷺ وكانت يدى تطيش فى الصحفة ، فقال لى رسـول الله

---

(١) انظر تربية الأولاد فى الإسلام ـ عبد الله ناصح علوان ١/ ٤٣٣ .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الأطعمة : باب التسمية على الطعام رقم(٣٧٦٧)والترمذى رقم (١١٥٨) .

(٣) أخرجه مسلم كتاب الأشربة ، باب آداب الطعام والشراب رقم (٢٠٢٠).

ﷺ: « يا غلام ، سم الله وكل بيمينك ، وكل مما يليك » ، فما زالت طعمتى بعد[١].

ولكن يستثنى من ذلك إن كان الطعام متنوعا كالفاكهة . وتعود ألا تعيب طعاما بل تذكرينها بحديث رسول الله ﷺ عن أبى هريرة ﷺ قال: « ما عاب النبى ﷺ طعاما قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه ».

ألا تنفخ فى الطعام الحار ، وألا تفعل ما يشمئز منه الناس ، وأنه يستحب التحدث على الطعام بالمعروف من غير إكثار ولا إفراط ، وعدم السكوت مثل العجم ، ومما يدل على ذلك حديث جابر ﷺ أن النبى ﷺ : « سأل أهله الأدم فقالوا : ما عندنا إلا خل فدعا به فجعل يأكل ويقول: « نعم الأدم الخل ، نعم الأدم الخل ».

ومن آداب القسم الثالث : آداب ما بعد الأكل: أن تعودى ابنتك على إنهاء الطعام بحمد الله ، فعن معاذ بن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أكل طعاما ثم قال : الحمد الذى أطعمنى هذا الطعام ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »[٢].

وعودى ابنتك إذا كانت هى الساقية أن تكون آخر من يشرب لحديث أبى قتادة ﷺ عن النبى ﷺ قال: « إن ساقى القوم آخرهم شربا »[٣].

٢- تنشئة ابنتك على الأمانة وتحذيرها من صفة الخيانة والسرقة: أمر مهم وضرورى ، فالأمانة خلق رفيع وثمرة من ثمرات الإيمان الكامل بالله تعالى وتقواه . والإخلاص فى السر والعلن ، ومراقبته الدائمة ، يقول عز من قائل :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨] . ويقول

---

(١) أخرجه البخارى كتاب الأطعمة ، باب التسمية رقم (٥٣٧٦)، ومسلم رقم(٢٠٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب اللباس رقم (٤٠٢٣) والترمذى كتاب الدعوات ، باب ما يقول إذا ما فرغ من الطعام (٣٤٥٨) .

(٣) أخرجه مسلم كتاب المساجد رقم(٦٨١) .

الرسول ﷺ : « أد الأمانة على من ائتمنك ، ولا تخن من خانك »[١] . كما يقول ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »[٢].

والأمانة خلق أصيل اتصف به سيدنا محمد ﷺ من عهد الطفولة إلى آخر حياته حتى وصفه المشركون بـ (الصادق الأمين) . ومن ذلك عبرة للطفلة المسلمة أن تقتدى برسولها الكريم ﷺ .

من الأمانة تنشئة الطفلة على خلق كتم الأسرار ؛ لأنه يمثل صلاح الطفلة فى حالها ومستقبلها ، فالطفلة التى تعودت على كتم الأسرار تنشأ قوية الإرادة ، ضابطة اللسان ، فتنشأ عن الثقة الاجتماعية بين الناس بحفظ بعضهم أسرار بعض ، وحبذا لو ذكر الوالدان للطفلة حديث أنس ﷺ لترسيخ خلق الأمانة فى نفسها ، حيث قال : أتى على رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان فسلم علينا ، فبعثنى فى حاجة فأبطأت على أمى ، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ فقلت: بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة ، قالت : ما حاجته ؟ قلت: إنها سر ، قالت: لا تخبرن بسر رسول الله ﷺ أحدا[٣] .

٣- دعوة الطفلة للتحلى بصفة الكرم ، والبعد عن البخل : وذلك لأن الله سبحانه وتعالى ذم البخل وتوعد عليه بالعذاب ، وذلك لما فيه من دناءة لطبع صاحبه ، وأنانية فى نفسه ، وعدم مبالاة بالمحتاجين وأصحاب الحقوق ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ ﴾ [آل عمران:١٨٠].

كما جاءت السنة تمثل بمثل ما جاء به القرآن الكريم من ذم البخل والبخلاء ، فقال ﷺ: « إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح : أمرهم

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب البيوع رقم(٣٥٣٤).

(٢) أخرجه البخارى كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق رقم(٣٢).

(٣) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أنس رقم(٢٤٨٢).

بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وبالفجور ففجروا »[(١)].

لهذا فإن محاربة طبع البخل القبيح منذ الطفولة أمر هام خشية أن يستأصل في نفس الطفلة ، وإذا ظهرت علامته عندها وتتشربه فيصعب تخلصها منه في الكبر.

ومن القصص التى رويت عن الكرم ومن المفيد أن يسمعها الصغار ، ما روى أن عبد الله بن جعفر- رضى الله عنهما - خرج إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم ، وفيه غلام يعمل فيه ، إذ أتى الغلام بقوته (طعامه) فدخل الحائط كلب ، ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكلهما ، وعبد الله ينظر إليه ، فقال: يا غلام ، كم قوتك كل يوم قال : ما رأيت ، قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هى بأرض كلاب ، إنه جاء مسافة بعيدة جائعا ، فكرهت أن أشبع وهو جائع ، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوى يومى هذا - أى أمضيه - جائعا ، فقال عبد الله : ألام على السخاء ، وإن هذا الغلام لأسخى منى ، فاشترى الحائط وما فيه من الآلات والغلام ، فأعتق الغلام ووهبه له.

والطفلة يمكن أن تتعلم الإنفاق عندما تشاهد والديها فى بعض الأوقات يخرجان نقودا فيعطيانها للفقراء والمحتاجين فربما قلدتهما فى ذلك ، ولا بأس أن يعطياها بعض النقود ويكلفاها التصدق بها على بعض المحتاجين ، ويحاولا فى كل هذا أن يظهر لها بأن هذا الإنفاق وإعطاء المحتاجين من الناس واجبا وليس فضلا من المنفق ، وذلك لحمايتها من الشعور بالزهو والافتخار لإنفاقها ، فإنها خرجت من صفة البخل بإنفاقها ، دخلت فى صفة الكبر الذميمة بزهوها وافتخارها ، وإذا أظهرت طفلتك شيئا من الكرم ، ولو كان بسيطا فينبغى للوالدين إثابتهما عليه ومدحها عند أقاربها وأقرانها ، مما يجعل

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الزكاة باب فى الشح(١٦٩٨) ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم(٢٦٧٨) .

الطفلة تحس بأن هذا العمل حسن فتتعـود وتواظـب عليـه . ولكـن للإنفـاق ضوابط حتـى لا يتحـول إلى إسـراف وذلـك لما جـاء فـى قولـه تعـالى ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

٤- الصدق والبعد عن الكذب : الصدق منجاة ، والصـدق مـن الصـفات التى يتم بها الإيمان ، ويكمل بها الإسلام ، أمر الله تعالى به وجعله طريقـا إلى الجنة ، وحث عليه رسـول الله ﷺ ؛ لأنـه مصـدر راحـة للضـمير ، وطمأنينـة النفس ، ووسيلة نشـر الثقـة بـين النـاس ، يقـول الله تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبـك ، فـإن الصـدق طمأنينـة وإن الكذب ريبة »[(١)].

وقال ﷺ : « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهـدى إلى الجنـة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكـون صـديقا ، وإن الكـذب يهـدى إلى الفجـور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا »[(٢)].

فخلق الصدق أصل هام من أصـول الأخـلاق الإسـلامية التـى يحتـاج إلى جهد لتركيزها وتثبيتها ، ورسول الله ﷺ اهتم بتثبيت هذا الخلق فـى الطفـل ، وهو يراقب تصرفات الوالدين مع الأطفال ، وذلك لتجنـب وقـوع الوالـدين فى رذيلة الكذب معه[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذى كتاب : صفة القيامة ، باب : منه رقم (٢٥١٨) ، وصححه الألبـانى فـى صحيح الجامع رقم (٧٨) .

(٢) أخرجه البخارى كتاب الأدب رقم (٦٠٩٤) ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب قبح الكذب رقم(٧) .

(٣) منهج التربية النبوية نور سويد ص : ١٧٢ .

ويضع قاعدة تؤكد أن للطفل حقوقه فى التعامل الإنسانى ، ولا يجوز للوالدين اتباعه بأى وسيلة كانت والاستهتار فى التعامل معه ، فعن عبد الله ابن عامر ﷺ ، قال : دعتنى أمى يوما ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا فقالت: ها تعال أعطيك ، فقال لها رسول الله ﷺ : « وما أردت أن تعطيه؟ » قالت: أعطيه تمرا ، فقال لها رسول الله ﷺ : « أما أنك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة »(١).

٥- جنبى ابنتك الكذب والتعالى وعوديها التواضع ؛ لأن الكبر من الصفات القبيحة لما فيه من التعالى والشعور بالتميز على الخلق ، وقد قال الله تعالى ذاما المستكبرين: ﴿ لا يحب المستكبرين ﴾ [النحل: ٢٣] . وفى الحديث يقول رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل: الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحد منهما قذفته فى النار »(٢) .

وللكبر مظاهر يعرف بها المتكبرين : منها ما وصفهم به رسول الله ﷺ عندما سئل عن الرجل يحب أن يظهر فى ملبسه بمظهر جميل حسن : هل هذا من الكبر؟ فقال: « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس »(٣).

فمن رد الحق على أهله ، ولم يسمع منهم فهو المتكبر وغمط الناس استحقارهم وعدم الاعتداد بهم.

ومن مظاهره: التبختر فى المشية ذلك لما قد وقع فى نفس المتكبر من التميز والاستعلاء ، والاعتقاد بالأفضلية إما للجاه أو المال ، أو السلطان ، أو النسب أو العلم ، أو الجمال ، أو غير ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الأدب ، باب فى التشديد فى الكذب رقم (٤٩٩١) وفيه مجهول وحسنه الألبانى .
(٢) أخرجه أبو داود كتاب اللباس ، باب ما جاء فى الكبر رقم(٤٠٩٠).
(٣) أخرجه مسلم كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه رقم (٩٢).

وهذا المظهر قد ذمه الله تعالى فقال: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٧].

ولما كانت صفة الكبر على هذا النحو من الذم ، فإن تربية الطفلة من حداثة سنها على كرهها أمر هام ؛ لأنها تعودت ازدراء الناس ، والتكبر على أقرانها ، والتعالى عليهن فى صغرها ، فإن هذه الخصلة لن تتركها عند كبرها وبلوغها سن التكليف.

ومسؤولية الوالدين فى متابعة البنت ومراقبتها ، ومعرفة أمراض قلبها وعلاجها لا تقف عند حدود التعريف بالمرض والتوجيه بالعبارة فقط بل لابد حتى لا يبقى له أثر يحرمها من دخول الجنة،حيث إن الكبر- وإن قل- يحرم صاحبه الجنة ، فقد قال ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه ذرة من كبر »[1].

فإذا كانت ابنتك ممن تميل وتتمسك برأيها ، ولا تنصاع للحق إذا جاء على لسان قريناتها أو أخواتها أو صديقاتها ، فإنه يتوجب عليك أن تحذريها من هذا السلوك ، وتبينى أن الله يمقتك إن فعلته ، وإن من الكبر الذى يحرم صاحبه الجنة ، ويلزماها بأن تنصاع للحق ، وأن تعلن ذلك أمام صديقاتها ، فإن اعتذرت أمامهن ، وقبلت الحق كان لها ذلك درسا عمليا جيدا لا يظن بعده اقترانها لمثله ، فإن عادت أعيد معها الدرس حتى تتدرب فلا تعود لمثله أبدا.

والطفلة التى تحب أن تتصدر زميلاتها ولا تقبل إلا الصف الأول ، والسير أمامهن ، فإنها تدرب على ترك هذا السلوك إلى ضده ، فتؤمر الالتزام بالتوسط فى المجلس ، والسير بين الزميلات أو خلفهن ، وأن تقدمهن على نفسها ، فإن دعتهن إلى البيت أمرت بالقيام على خدمتهن وتقديم الطعام

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانه رقم (٩١).

والشراب لهن فى تواضع دون كبر أو إحساس بالتفضل ، وأجلستهن فى صدر المكان.

وإذا شعرت أن طفلتك لديها إحساس بالترفع على الفقراء والضعفاء والمساكين أمرت بالجلوس معهم فى بعض الأوقات ليذهب عنها ما تجده فى نفسها ، بحيث تصطحبها الأم فى زيارة لأحد الجارات من الفقراء - إن وجدت - فتجلس عندها بعض الوقت وتأمر طفلتها بالجلوس ، ومحادثة أطفال الجارة فتعتاد ذلك دون إحساس بالخجل أو المهانة.

ومن آداب التنشئة الاجتماعية للبنات أن تحذرى بناتك من السباب والشتائم ؛ وذلك لأن الهدى النبوى الشريف يدعو على ذلك فى أحاديث عدة منها:

قوله ﷺ : " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »[(١)] ، وقوله ﷺ : « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال: « نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »[(٢)].

وتعويد ابنتك على الادخار والبعد عن الإسراف ، فقد دعى الإسلام إلى الزهد عن الرفاه والتنعيم ، وذلك من الهدى النبوى الشريف ، ومن ما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثر فى جنبه ، فقلت: يا رسول الله ، لو اتخذنا لك وطاءة - فراشا - فقال : «مالى وما للدنيا؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها »[(٣)].

---

(١) أخرجه البخارى رقم (٤٨) كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله ولا يشعر .

(٢) أخرجه البخارى رقم (٤٨) كتاب الأدب ، باب لا يسب الرجل والديه رقم (٥٩٧٣)، ومسلم كتاب الإيمان ، باب الكبائر رقم (٩٠) .

(٣) أخرج الترمذى كتاب الزهد ، باب ما جاء فى أخذ المال بحقه . رقم (٢٣٧٧) .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض[١] .

وعن عروة بن الزبير- رضى الله عنهما - عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت له : ابن أختى إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار ، فقلت : يا خالة ، ما كان يعيشكم ؟ قالت: الأسودان: التمر والماء ، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا »[٢].

كما يجب عليك أن تعودى طفلتك الاستغلال الجيد لوقت فراغها ، وربطها بالصحبة الصالحة ، بهذا كله ستضعين أمام زوجك أبناء يفتخر بهم ويسعد بهدوئهم وتربيتهم الصالحة فتكونى أحب زوجة إليه.

١٤- أوصيك بالقرآن:

أنت والقرآن:

أيتها الفتاة المؤمنة ، أحبى القرآن ، وتلاوة القرآن ، فلكى تبلغ المرأة المسلمة هذا الشأو العالى من الطاعة والصلاح والتقوى والوعى والنضج ، لا بد من استرواحها نسمات الهداية المعطرة من كتاب الله ، تضيء إلى ظلاله الوارفات كل يوم ، فيكون لها ورد ، قرآن دائم ، تقبل فيه على آياته البينات ، تتلوها بتمعن وتبصر وتأمل وتدبر ، فتنسرب معانيها فى مسارب عقلها ومشاعرها ، ويتشرب قلبها نورانيته الصافية ، وتستنير نفسها بهدية اللآلاء ، ففى القرآن تشريع عظيم ومثل قويم فيه كل شيء يبحث عنه الإنسان فيقول

---

(١) أخرج البخارى كتاب الأطعمة ، باب ما كان السلف يدخرون فى بيوتهم ، رقم (٥٤٢٣) .

(٢) أخرج البخارى ، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها ، باب فضل الهيئة رقم (٢٥٦٧) .

ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف:٥٤] فيجب أن تكون علاقتك بالقرآن حميمة فيها دفء الإيمان.

منزلة قارئ القرآن عند الله :

ويكفى المرأة المسلمة والفتاة المسلمة أن تعلم منزلة قارئ القرآن ، كما بينها رسول الله ﷺ فى عدد من أحاديثه الكريمة ، ، لتقبل على قراءته كلما سنحت له سانحة من وقت ، بل لتملأ بياض أيامها وسواد لياليها بتلاوته وترتيله وتدبر معانيه.

يقول الرسول الكريم ﷺ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة[١] ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنضلة ليس لها ريح وطعمها مر »[٢].

فعليك بالقرآن لكى تكونين قراءتك مثل الفاكهة التى ريحها طيب وطعمها طيب.

قراءة القرآن ثواب عظيم :

يقول الرسول ﷺ : « اقرؤوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه »[٣].

ويقول أيضا: « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق ، له أجران »[٤].

---

(١) الأترجة : فاكهة ذات رائحة طيبة .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم ٦/ ٩٠ ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة القرآن .

(٤) متفق عليه .

فهل تتوانى المرأة المسلمة التقية والفتاة المسلمة الواعية بعد هذا عن قراءة القرآن مهما تراكمت عليها الشواغل ، ومهما أثقلت كاهلها أعباء الأمومة والزوجية والبيت.

وهل تتلكأ فى الإقبال على تلاوته والعيش فى أجوائه الربانية المعطرة ، فتحرم نفسها ذلك النعيم المقيم ، والثواب الجزيل العظيم الذى أعده الله لقارئة القرآن؟.

وبعد ، فهذا شأن المرأة المسلمة مع ربها إيمان بالله عميق ، وتسليم بقضاء الله ، وإقبال صادق على عبادته ، وطاعة مطلقة لأوامره واجتناب نواهيه ، وتمثل واع لمعنى عبوديتها لله ، وعمل دائب على نصرة دينه ، وتحقيق كلمته ، واعتزاز بشخصيتها المسلمة.

١٥- كونى ناصحة تدلين على الخير :

اعلمى أيتها الأخت المسلمة أن إبداء النصيحة ، واجب حض عليه ديننا الحنيف بل الإسلام والدين هو النصيحة ذاتها ، كما قال رسول الله ﷺ : «الدين النصيحة» قلنا : لمن؟ قال: « لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم »[١].

والمرأة المسلمة الواعية التقية لا تكتفى بنقاء نفسها من الصفات الذميمة ، بل تبذل النصح لكل امرأة تقبل إليها من النساء اللواتى خرجن عن هدى الله وكم من امرأة فى المجتمعات النسائية أسرفت على نفسها ، فهى بحاجة إلى من ينصحها ، ويلفت نفسها إلى الجادة المستقيمة التى أمر الله بسلوكها.

وقد كان الصحابة- رضوان الله عليهم - يبايعون الرسول ﷺ على الصلاة والزكاة والنصيحة لكل مسلم ، ومما يدل على ذلك قول جرير بن عبد الله ﷺ: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم[٢].

---

(١) انظر: صحيح مسلم ٢/ ٣٧ كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة .

(٢) متفق عليه : انظر شرح السنة ١٣/ ٩٢ كتاب البر والصلة ، باب النصيحة .

وقد أوجز رسول الله ﷺ حديثه عن النصيحة فى كلمات محددة كاملة المعنى شاملة المضمون حينما قال: « الدين النصيحة » ، فكانت رسالته واضحة وشريعة لكل مسلم تبين قيمة النصيحة وأثرها فى حياة الناس ، وفى اقتران النصيحة بالصلاة والزكاة فى حديث جرير بن عبد الله ﷺ دليل على أهمية النصيحة فى ميزان أعمال المسلم ، وخطورتها فى تقرير مصيره فى آخرته ؛ لذلك من خلق النصيحة تتحلى به المسلمة الصادقة التقية ، الواعية الحريصة على حسن لقائها برب العالمين يوم الدين.

وللنصيحة مضمون واسع ، ومفهوم شامل فى الإسلام ، إذا ما نظرنا إلى حديث رسول الله ﷺ الذى يقول: " كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسؤول عن رعيته ، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته »[(١)] .

وإذا كنت أيتها الأخت المسلمة مدركة لمسؤولية تقديم النصح ، فأنت تدلين على فعل الخير فأنت مسلمة تقية هذب الإسلام نفسك ، ونقاك من أمراض الأنانية وحب الظهور لذلك ، فأنت تدلين على الخير متى علمت به ، ليخرج إلى النور ، وينتفع الناس به ، وسيان لديك أن يتم فعل الخير على يديك أم على يدى غيرك ؛ لأنك تعلمين أنه من أدل على الخير فله مثل أجر فاعله ، كما أخبر رسول الله ﷺ بقوله: « من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[(٢)] .

ويقول أحد العلماء الأفاضل[(٣)] : « إن المرأة المسلمة بعيدة عن احتجان الخير لنفسها ، لتتباهى بفعله أمام الناس ، شأن الأنانيات المبتليات بحب

---

(١) متفق عليه : انظر شرح السنة ١٠/ ٦١ كتاب الإمارة والقضاء ، باب الراعى مسؤول عن رعيته .

(٢) صحيح مسلم ١٣/ ٣٨ كتاب الإمارة ، باب فضل إعانة الغازى فى سبيل الله .

(٣) د/ محمد على الهاشمى : شخصية المرأة المسلمة . دار البشائر .

الظهور والمباهاة ، وحب المرأة المسلمة الدالة على فعل الخير أن أجرها عند الله ثابت فى الحالين ، وثواب الله لدى المرأة المسلمة التقية أكبر وأعظم من السمعة والشهرة وحب الظهور ، وفى ذلك إشاعة للخير فى المجتمع ، ليقوم كل فرد بما يسر الله له منه ، وكم حجبت هذه الآفات النفسية القاتلة الخير عن المجتمعات ؛ لأن أصحابها يودون أن يقوموا هم دون سواهم بفعل الخير ، ولكن ظروفهم لا تمكنهم من القيام به ، فيبقى الخير موؤودا ، والمصالح معطلة ، والمجتمعات محرومة من ذلك الخير الذى دار فى بعض الرؤوس ، فكتمته وسكتت عنه انتظارا لفرجته تسنح تمكنهم من تنفيذه ، وقد لا تسنح هذه الفرصة وينتهى الأمر ويبقى الخير حبيس الرؤوس المظلمة » . والمسلمون براء من هذه الآفات إن شاء الله.

١٦ - اختارى الصحبة الصالحة والمجالس المؤمنة :

كما تحذرين ابنك من رفيق السوء ، وتدعينه إلى أن يتخذ لنفسه صحبة صالحة ، فعليك أنت بنفسك قبل الأبناء ، وفى سبيل بلوغ هذا الهدف السامى فعليك أن تختارى الصاحبة التقية النقية الصالحة ، التى تخلص لك الود ، وتقدم لك النصح ولا تغشك فى معاملة أبدا أو حتى الحديث.

وإذا اخترت رفيقة صالحة فسيكون لها أثر عميق فى استقامة أمرك فتتحلين بالعادات الحسنة والشمائل الرفيعة - فرفيقتك وقرينتك - ستؤثر فيك بأخلاقها وسجاياها ، وكذلك ستؤثرين أنت بخلقك الرفيع ، ومقصدك المؤمن وقد جاء الحديث عن الصاحب والقرين فى لغة العرب وهى الشعر فقال الشاعر العربى:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقال آخر :

بعشرتك الكرام تعد منهم فلا ترين لغيرهم الوفا

وقال ثالث:

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وتحدث الصحابة عن الصحبة الصالحة وثمراتها ، فقال عبد الله بن رواحة ﷺ : كنا إذا لقينا الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ نقول : « تعال نؤمن بربنا ساعة » ويبلغ ذلك النبى ﷺ ، فيقول: « يرحم الله ابن رواحة ، إنه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة »[١].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ ، رغم مشاغل خلافته وإمارته للمسلمين ، يأخذ بيد الرجل والرجلين ، فيقول: « قم بنا نزداد إيمانا... فيذكرون الله ﷻ »[٢]. وكذلك كان معاذ بن جبل ﷺ يقول لأصحابه ، وهم يمشون: اجلسوا بنا نؤمن ساعة »[٣].

فأنت يا أختاه مسؤولة عن تقوية إيمانك وروحك ، فإذا كنت تطيعين زوجك وتربين أبناءك تربية صالحة وتنصحين أخواتك عملا بهدى محمد ﷺ ، إذا كنت تفعلين ذلك وغيره من طاعات وصلوات وزكاة ، وبر الوالدين ، فعليك أن تتوانى أو تتقاعسى عن تقوية إيمانك بشيء جديد وبطاعة جديدة وبعمل جديد مثل اختيار الصحبة الصالحة والاستفادة من ثمراتها اليانعة الطيبة . وقد دعا القرآن الكريم إلى اختيار الصحبة الصالحة ، فالمرأة المسلمة مطالبة بحسن اختيار الصديقات والبيئات والمجالس التى لا تزيدها إلا إيمانا ، وتقوية لهذا الإيمان ، وهناء وصفاء لنفسها ولنتأمل قول الله ﷻ الذى يدعو إلى ذلك فيقول ﷻ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) رواه أحمد ـ إسناده حسن ٣/ ٢٦٥ .

(٢) انظر: حياة الصحابة ٣/ ٣٢٩ .

(٣) المصدر السابق .

هذه هى دعوة الإيمان الصادقة التى تؤكد أهمية الصحبة الصالحة والتى تساعدك على بنيان بيت مطمئن ، لا يخشى عليه من تقول أو حسد ، فصاحباتك الصالحات دائما ما تجدينهن فى كل المواقف التى تمرين بها فتجدينهن فى الأفراح والأتراح ، ويجد زوجك من نصحن لك ما يقرب القلوب ، ويسبل الود والصلاح على كيان أسرتك فأنت لا تجدين من صحبتك الصالحة إلا ما ينفعك وينعكس بالخير على بيتك وأسرتك .

١٧- إياك وظن السوء:

هل سمعت يا أختاه قول الله ﷻ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] . إن فى هذه الآية الكريمة والقول العظيم نهى عن ظن السوء ، وأنت امرأة مسلمة تقية صادقة إن شاء الله لا تظنين بالناس ظنا لا يقوم على دليل ، وليس له شاهد موثق ، لذلك فاجتنبى كثير من الظن كما دعت الآية . ذلك لأنك تدركين أن رجم الناس بالظن قد يوقعك فى المحظور ، فيكتب عليك ذنبا ، ولا سيما إذا أطلقت العنان لخيالك وللأوهام ، فإذا أنت تلصقين العيب بالناس ، وتتهمينهم بما ليس فيهم ، وهذا هو ظن السوء المحرم فى الإسلام.

وقد حذر الرسول ﷺ من الظن تحذيرا شديدا فى لهجة فقال : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث»(١) . انظرى كيف وصف النبى ﷺ الظن- لقد وصفه بأكذب الحديث فخذى بالظاهر من أعمال الناس ، وتجنبى رميهم بالظن والشك مما يخلق ريبة مبنية على الأوهام والأقوال والشكوك واعلمى أن لكل إنسان خصوصياته التى لا يعلمها إلا الله ، فهو يحاسب عليها إن كانت خيرا فخير وإن كانت شرا فشر .

وفى حديث رسول الله ﷺ : « إياكم والظن » دعوة لترك هذا الخلق الذميم.

---

(١) متفق عليه .

وقد أخرج عبد الرزاق عن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : سمعت عمر ابن الخطاب ﷺ يقول: « إن ناسا كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله ﷺ ، وإن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء الله يحاسبه على سريرته ، ومن أظهر لنا شرا لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال : إن سريرته حسنة»(١).

فخذى بهدى دينك ، وخذى بأسباب التقوى والعمل الصالح ، وتذكرى دوما قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦] فقضى عند النهى عن الظن ، وإياك والظن ، فإنه أكذب الحديث.

١٨ - إياك والغيبة والنميمة:

أنت إن شاء الله واعية ، حريصة على اتباع هدى ربك ، تقية تخشى الله فى السر والعلانية ، حريصة على ألا يند من لسانك كلمة فيها غيبة أو نميمة ، تغضبين بها ربك والعياذ بالله ، فلا تكونى فى زمرة المغتابات النمامات ، وإلا ستقعين تحت وطأة المعصية لقول الله ﷻ: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات: ١٢] وينهاك رسول الله ﷺ عن الغيبة والنميمة فيقول: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »(٢).

إذن فأنت فى غنى عن معصية الله ورسوله ، فأنت مؤمنة ناطقة بالشهادتين فكونى كذلك ، وقد روت - عائشة رضى الله عنها - فقالت: قلت للنبى

---

(١) حياة الصحابة ٢/ ٨٥ .
(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٢ ـ كتاب الإيمان : باب بيان تفاضل الإسلام .

ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا - قال بعض الرواة: تعنى أنها قصيرة - فقال: « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »[١] أى لخلطته وكدرته.

وأسألك الآن: هل سمعت عن السبع الموبقات التى دعا رسول الله ﷺ إلى اجتنابها؟ إنك لو سمعتيها لوجدت أن الغيبة والنميمة شر كبير وبلاء عظيم على أمة المسلمين فلتسمعى حديث رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات" قيل: يارسول الله ، وما هن ؟ قال: " الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ».

فكونى بصيرة مستوعبة ، وابتعدى عن الغيبة والنميمة ، ولا تسمحى لأخواتك وممن يرتدن مجلسك أو ترتادين مجالسهن أن يغتاب فى مجلسك وفى وجودك ، بل تدفعين عن أخواتك ألسنة البغى والعدوان ، وتدفعين عنهن قالة السوء ، طاعة وعملا بقول رسول الله ﷺ : « من ذب عن أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار »[٢] واذكرى أن رسول الله ﷺ قال: « لا يدخل الجنة نمام » ، نسأل الله لنا ولك العافية.

١٩- كونى رفيقة بمن حولك :

يقول رسول الله ﷺ : « إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله »[٣]. ويقول ﷺ : « إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»[٤].

انظرى يا أختاه إلى النصوص جاءت تدعو إلى خلق الرفق فمن طبيعتك أنت كامرأة الرفق واللين واللطف ، فلا تخرجى عن فطرتك وطبيعتك . ولقد مدح رسول الله ﷺ لرفقه فقال ﷻ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ

---

(١) رواه أبو داود ٤/ ٣٧١ كتاب الأدب ـ باب فى الغيبة .

(٢) رواه أحمد ٦/ ٤٦١ بإسناد حسن .

(٣) متفق عليه .

(٤) صحيح مسلم ١٦/ ١٤٦ كتاب البر والصلة .

مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، إن هذا القول قول خالد ودستور عظيم دائم مقيم لك كامرأة داعية تتصدين لدعوة أخواتك النساء ، وتحتاجين أن تحسنى الدخول إلى قلوبهن ، فارجعى إلى الرفق فى هدى هذا الدين فهو الخير كله ، وكونى حكيمة فإنه من أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ولا تحرمى نفسك من الرفق ؛ لأن من حرمه حرم الخير كله ، لقول رسول الله ﷺ : « من يحرم الرفق يحرم الخير »[١].

٢٠- كونى رحيمة وأكثرى من الدعاء :

الرحمة صفة المؤمنات الصالحات ، وخلق النساء الأتقياء ، فأنت مؤمنة تقية يجب أن تتفجر ينابيع الرحمة والحنان من قلبك الكبير ونفسك الطيبة . وقد جاءت الرحمة فى هدى رسول الله لقوله ﷺ: « ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء »[٢] ، « من لم يرحم الناس لم يرحمه الله »[٣] " لا تنزع الرحمة إلا من شقي »[٤] .

ولا تقتصر رحمتك على أولادك وأهلك بل اجعليها تشمل الناس جميعا حتى تكونى فى طاعة الله والرسول ﷺ ، فقد قال عليه السلام من شروط الإيمان : « لن تؤمنوا حتى تراحموا " قالوا : يا رسول الله ، كلنا رحيم ، قال: " إنه ليس برحمة أحدكم لصاحبه ، ولكنها رحمة الناس ، رحمة العامة »[٥].

إنها الرحمة الشاملة ، التى فجر ينابيعها إسلامنا العظيم فى قلوب المسلمين والمسلمات ، وجعلها صفة للمؤمنين ، وسائر أفراد المجتمع الإسلامى رجالا ونساء وأنت منهم إن شاء الله.

---

(١) رواه مسلم ١٦/ ١٤٥ كتاب البر والصلة .
(٢) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح . انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٨٧ باب رحمة الناس .
(٣) رواه الطبرانى بإسناد حسن . انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٨٧ باب رحمة الناس .
(٤) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ١/ ٤٦٦ باب ارحم من فى الأرض .
(٥) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح . انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٨٦ باب رحمة الناس .

أكثرى من ترديد الدعاء:

فى وصيتى العشرين أدعوك إلى ما يعينك على تقوية نفسك وروحك وربط قلبك بالله ﷻ ، وهو الدعاء ، وخاصة الدعاء المأثور عن النبى ﷺ . وقد كان رسول الله ﷺ يدعو به دوما بكل دعاء ، فهناك دعاء للخروج من البيت ، وآخر للدخول ، ودعاء الطعام والشراب .. ودعاء اللبس الجديد ، والاستيقاظ من النوم ، ودعاء وداع المسافر واستقباله . كان يوم الرسول ﷺ كله دعاء وتبتل وخشوع . أنت يا أختاه فى حاجة إلى الدعاء ، ورب العزة يقول: ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ . فهو مجيب الدعاء . أسأل الله أن ينفعك بكل وصية سقتها إليك فى هذه الصفحات . وأن يغفر لى تقصيرى فيما عجزت عن جمعه من الوصايا والنصائح لنساء المسلمين.

* * *

وصية اقتداء ، القدوة والمثل
الصبر والجهاد (أسماء الصابرة)

هذه السيدة القدوة أقدمها تزكية للنصائح والوصايا ، إنها أسماء بنت عميس- رضى الله عنها - فقد هاجرت إلى الحبشة وجاء عمر ﷺ يقول لها بعد عودتها من الحبشة : سبقناكم بالهجرة يا حبشية ، فردت ردا جميلا ، وقالت : كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم .. ويعلم جاهلكم.. وكنا: البعداء.. الطرداء .. أما والله لأذكرن ذلك لرسول الله ﷺ . فلما أتت الرسول ﷺ وحدثته قال لأسماء - رضى الله عنها: « للناس هجرة واحدة ، ولكم هجرتان»[1] .

ولقد حرصت على تقديم أسماء بنت عميس ؛ لأنها تزوجت أكابر الناس وأعظمهم ، تزوجت أسماء جعفر بن أبى طالب شهيد مؤتة وأنجبت له عبد الله بن جعفر ومحمد وعونا.

وتزوجت أبو بكر الصديق وولدت له محمدا . إذن فنحن مع قدوة نسائية عظيمة .. فلنترع من سيرتها وقدوتها إذن فى سياق هذه الوصايا.

الزوج الكريم :

كان لأسماء بنت عميس شرف عظيم ومكانة عليا ، فقد تزوجت أول أزواجها وهو جعفر بن أبى طالب ـ الذى قال عنه رسول الله ﷺ : " لقد رأيت جعفرا فى الجنة له جناحان مضرجان بالدماء مصبوغ القوادم " .

وهو جعفر بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم من قريش ، ولد بمكة وهو أكبر من أخيه على بن أبى طالب ﷺ بما يقرب من عشر سنوات ، كان والده من أشراف قريش.

---

(١) رواه البخارى فى المغازى ٧/ ٢٧١ ومسلم (٢٥٠٣) فى فضائل الصحابة .

ويذكر المؤرخون أنه كان فى بنى عبد مناف خمسة رجال يشبهون رسول الله ﷺ أشد الشبه ، حتى أن ضعاف البصر كثيرا ما كانوا يخلطون بين النبى ﷺ وبينهم . ولا ريب فى أنك تود أن تعرف هؤلاء كما وددت أن أعرفهم ؛ لأنهم يشبهون نبينا ﷺ ، والخمسة هم:

الأول: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عم رسول الله ﷺ ، وأخوه فى الرضاعة .

الثانى: قثم بن العباس بن عبد المطلب ، وهو ابن عم النبى ﷺ أيضا .

الثالث: السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم جد الإمام الشافعى - رضى الله عنه .

الرابع : الحسن بن على سبط رسول الله ﷺ أشد الخمسة شبها بالنبى ﷺ .

الخامس : صاحبنا الكريم جعفر بن أبى طالب ﷺ ، زوج السيدة أسماء بنت عميس ، وهو أخو أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ .

وكان أبو طالب والد جعفر على الرغم من سمو شرفه فى قريش ، وعلو منزلته فى قومه ، رقيق الحال كثير العيال . وقد ازدادت حاله سوءا بسبب تلك السنة المجدبة التى نزلت بقريش فأهلكت الزرع ، وحملت الناس على أن يأكلوا العظام البالية.

ولم يكن فى بنى هاشم يومئذ أغنى من محمد بن عبد الله ، ومن عمه العباس بن عبد المطلب . فقال محمد ﷺ للعباس: « يا عم ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من شدة القحط ، وألم الجوع ، فانطلق بنا إليه حتى نحمل عنه بعض عياله ، فآخذ أنا فتى من بنيه ، وتأخذ أنت فتى آخر فنكفيهما عنه » ، قال العباس : لقد دعوت إلى خير ، وحضضت على بر . ثم انطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك بعض ما تحمله من عبء عيالك حتى ينكشف هذا الضر الذى

مس الناس . فقال لهما : إذا تركتما لى « عقيلا » فاصنعا ما شئتما . فأخذ محمد عليا وضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرا وجعله فى عياله . فلم يزل على مع محمد حتى بعثه الله بدين الهدى والحق ، فكان أول من آمن من الفتيان . وظل جعفر مع عمه العباس حتى شب وأسلم واستغنى عنه .

أسلم جعفر بن أبى طالب ﷺ ، وأسلمت أسماء بنت عميس قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم فحازت نعمة السبق ، التى لها مكانة عظيمة فى الإسلام لقول الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢].

انضم جعفر بن أبى طالب إلى ركب النور هو وزوجته أسماء بنت عميس منذ أول الطريق ، فقد أسلما على يدى الصديق ﷺ قبل أن يدخل الرسول دار الأرقم.

ولقى الفتى الهاشمى جعفر وزوجته أسماء- رضى الله عنهما - لقيا من أذى قريش ونكالها ما لقيه المسلمون الأولون من عذاب وإيذاء وملاحقة ، فصبرا على الأذى ؛ لأنهما كانا يعلمان أن طريق الجنة مفروش بالأشواك محفوف بالمكاره ، ولكن ينغصهما وينغص إخوتها فى الله أن قريشا كانت تحول دونهم ودون أداء شعائر الإسلام ، وتحرمهم من أن يتذوقوا لذة العبادة فقد كانت تقف لهم فى كل مرصد ، وتحصى عليهم الأنفاس.

الهجرة إلى الحبشة :

ولما ازداد اضطهاد قريش للمسلمين ، استأذن جعفر بن أبى طالب ﷺ رسول الله ﷺ بأن يهاجر مع زوجته أسماء بنت عميس ونفر من الصحابة إلى الحبشة ، فأذن لهما وهو آسف حزين فقد كان يعز على رسول الله ﷺ أن يرغم هؤلاء الأبرار الأطهار على مفارقة ديارهم ، ومبارحة مراتع طفولتهم ومغانى شبابهم دون ذنب جنوه إلا أنهم قالوا: ربنا الله.

لكنه ﷺ لم يكن فى ذلك الوقت يملك من القوة والحول ما يدفع به عنهم أذى قريش .

وخرجت أسماء فى صحبة زوجها جعفر بن أبى طالب أمير المهاجرين فى أرض الحبشة حيث لبثا فيها سنين عددا ، وهناك ولدت ابنها عبد الله بن جعفر ، وبعد أن ولدت ابنها عبد الله بأيام ولد للنجاشى ـ ملك الحبشة ولدا فأرسل النجاشى إلى جعفر ما سميت ابنك؟ قال : عبد الله ، فسمى النجاشى ابنه عبد الله ، وأخذته أسماء فأرضعته حتى فطمته بلبن ابنها عبد الله بن جعفر ، ونزلت بذلك عندهم منزلة كبيرة ، فكان من أسلم بالحبشة يأتى أسماء بنت عميس بعد يخبر خبرهم[1] .

لكن قريش ما كادت تعلم برحيل جعفر وأسماء ونفر من الصحابة رضوان الله عليهم إلى أرض الحبشة ، وتقف على ما نالوه فى حمى مليكها من الطمأنينة على دينهم ، والأمن على عقيدتهم ، حتى هبت تأتمر بهم لتقتلهم أو تسترجعهم إلى السجن الكبير.

وتحدثت أم سلمة- رضى الله عنها- عن رحلة الهجرة إلى الحبشة كما رأت عيناها وسمعت أذناها فقالت:

لما نزلت أرض الحبشة لقينا فيها خير جوار فأمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ربنا غير أن نؤذى أو نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمرت بنا فأرسلت إلى النجاشى رجلين جلدين من رجالها ، هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة ، وبعثت معهما بهدايا كثيرة للنجاشى ولبطارقته ، مما كانوا يستطرفونه من أرض الحجاز ، ثم أوصتهما بأن يدفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن يكلما ملك الحبشة فى أمرنا.

فلما قدما الحبشة لقيا بطارقة النجاشى ودفعا إلى كل بطريق هديته ، فلم يبق أحد منهم إلا أهديا إليه وقالا له: إنه قد حل فى أرض الملك غلمان من

---

(١) نسب قريش ص : ٨١ .

سفهائنا ، صبؤوا عن دينهم ودين آبائهم وأجدادهم وفرقوا كلمة قومهم ، فإذا كلمنا الملك فى أمرهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا دون أن يسأل عن دينهم ؛ فإن أشراف قومهم أبصر بهم ، وأعلم بما يعتقدون . فقال البطارقة : نعم.

قالت أم سلمة: ولم يكن هناك شيء أكره لعمرو وصاحبه من أن يستدعى النجاشي أحدا منا ويسمع كلامه . ثم أتيا النجاشى وقدما إليه الهدايا . فاستطرفها وأعجب بها ، ثم كلماه فقالا: « أيها الملك إنه قد آوى إلى مملكتك طائفة من أشرار غلماننا ، قد جاؤوا بدين لا نعرفه نحن ولا أنتم ، ففارقوا ديننا ولم يدخلوا فى دينكم . وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، وهم أعلم الناس بما أحدثوا من فتنة » .

فنظر النجاشى إلى بطارقته ، فقال البطارقة : صدقا أيها الملك ، فإن قومهم أبصر بهم وأعلم بما صنعوا ، فردهم إليهم ليروا رأيهم فيهم.

فغضب الملك غضبا شديدا من كلام بطارقته وقال : لا والله لا أسلمهم لأحد حتى أدعوهم وأسألهم عما نسب إليهم ، فإن كانوا كما يقول هذان الرجلان أسلمتهم لهما ، وإن كانوا غير ذلك حميتهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى».

قالت أم سلمة: ثم أرسل النجاشي يدعونا للقائه ، فاجتمعنا قبل الذهاب إليه وقال بعضنا لبعض : إن الملك سيسألكم عن دينكم فاصدعوا (اجهروا) بما تؤمنون به ، وليتكلم عنكم جعفر بن أبى طالب ولا يتكلم أحد غيره.

ثم ذهبنا إلى النجاشى فوجدناه قد دعا بطارقته ، فجلسوا عن يمينه وعن شماله ، ونشروا كتبهم بين أيديهم ، كانت أسماء بنت عميس إلى جوار زوجها جعفر الحبيب تسانده وتشد من أزره ، كانت تعرف أنه سيقف أمام ملك الحبشة ليشرح له رسالة محمد ، وقد وقف أمامه عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة مندوبا قريش للنجاشى ، وكان عمرو بن العاص لم يسلم بعد.

تحدث النجاشي فقال: « ما هذا الدين الذى استحدثتموه لأنفسكم وفارقتم بسببه دين قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أى من هذه الملل » فتقدم منه جعفر بن أبى طالب فيما كانت أسماء تتمتم بالدعاء لزوجها الحبيب .

قال جعفر: « أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، وبقينا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، ودعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وقد أمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف عن المحارم وحقن الدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نقيم الصلاة ونؤتى الزكاة ونصوم رمضان فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، فحللنا ما أحل لنا ، وحرمنا ما حرم علينا . فما كان من قومنا أيها الملك إلا أن عدوا علينا فعذبونا أشد العذاب ليفتنونا عن ديننا ويردونا إلى عبادة الأوثان . فلما ظلمونا وقهرونا ، وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عنك».

التفت النجاشى إلى جعفر بن أبى طالب ، وقال : هل معك شيء مما جاء به نبيكم عن الله ، قال: نعم ، قال: فاقرأه على. فقرأ جعفر عليه ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ ﴾ حتى تم صدرا من السورة (سورة مريم) . قالت أم سلمة: فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته بالدموع ، وبكى أساقفته حتى بلوا كتبهم ، لما سمعوا من كلام الله .

وهنا قال لنا النجاشي: إن هذا الذى جاء به نبيكم والذى جاء بـه عيسـى ليخرج من مشكاة واحدة . ثم التفت إلى عمرو بـن العـاص وصـاحبه وقـال لهما : « انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكمـا أبـدا » . خـرج جعفـر بـن أبـى طالب وزوجته أسماء من عند النجاشـى مـع المسـلمين جميعـا ، ولمـا خرجـوا توعدهم عمرو بن العاص وقال لصاحبه : والله لآتين الملك غـدا ، ولأذكـرن له من أمرهم ما يملأ صدره غيظا منهم ويشحن فـؤاده كرهـا لهـم . ولأحملنـه على أن يستأصلهم من جذورهم.

قال له عبد الله بن ربيعة: لا تفعل يا عمرو ، فإنهم من ذوى قربانـا ، وإن كانوا قد خالفونا .

فقال له عمرو: دع عنك هذا .. والله لأخبرنـه بمـا يزلـزل أقـدامهم .. والله لأقولن له : إنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد .

فلما كان الغد دخل عمرو على النجاشى وقال له : أيها الملك ، إن هـؤلاء الذين آويتهم وحميتهم ، يقولون فى عيسى ابن مـريم قـولا عظيمـا ، فأرسـل إليهم ، وسلهم عما يقولون فيه .

قالت أم سلمة : فلما عرفنا ذلك ، نزل بنا من الهـم والغـم مـا لم نتعـرض لمثله قط .

وكانت أسماء بنت عميس تشارك المسلمين نساء ورجـالا فيمـا حـل بهـم وأكثر ما يشغل بالها أن زوجها جعفر بن أبى طالب ﷺ هـو الـذى سيتصـدى لهذه الافتراءات بما تعلمه من رسول الله ﷺ ودينه .

قالت أسماء بنت عميس لأخواتها المسـلمات ، وقـال المسـلمون بعضـهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه الملك؟ قـال بعضـهم لبعض : والله ما نقول فيه إلا ما قال الله ، ولا نخرج فى أمـره قيـد أنملـة عمـا جاءنا به نبينا ، وليكن بسبب ذلك ما يكون.

ثم اتفقوا جميعا على أن يتولى الكلام عنا جعفر بن أبى طالب أيضا .

قالت أم سلمة: فلما دعانا النجاشى دخلنا عليه فوجدنا عنده بطارقته على الهيئة التى رأيناهم عليها من قبل .

ووجدنا عنده عمرو بن العاص وصاحبه : فلما صرنا بين يديه بادرنا بقوله : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبى طالب : إنما نقول فيه ما جاء به نبينا ﷺ . قال النجاشى : وما الذى يقوله فيه ؟ فأجاب جعفر : يقول عنه : إنه عبد الله ورسوله ، وروحه وكلمته التى ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فما أن سمع النجاشى قول جعفر حتى ضرب بيده الأرض وقال : والله ، ما خرج عيسى ابن مريم عما جاء به نبيكم مقدار شعرة .

ثم التفت وقال للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون ، من سبكم غرم ، ومن تعرض لكم عوقب ، ووالله ما أحب أن يكون لى جبل من ذهب ، وأن يصاب أحد منكم بسوء .

ثم نظر إلى عمرو وصاحبه وقال: ردا على هذين الرجلين هداياهما ، فلا حاجة لى بها.

قالت أم سلمة : فخرج عمرو وصاحبه مكسورين مقهورين يجران أذيال الخيبة . أما نحن فقد أقمنا عند النجاشى بخير دار مع أكرم دار .

العودة من الحبشة :

قضت أسماء بنت عميس هى وزوجها جعفر بن أبى طالب ﷺ فى رحاب النجاشى عشر سنوات آمنين مطمئنين.

وفى السنة السابعة للهجرة غادرا بلاد الحبشة مع نفر من المسلمين متجهين إلى المدينة ، فلما بلغوها كان رسول الله ﷺ عائدا لتوه من خيبر ، بعد أن فتحها الله له .

ففرح ﷺ بلقاء جعفر فرحا شديدا حتى قال: « ما أدرى بأيهما أنا أشد فرحا؟ أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟ ».

ولم تكن فرحة المسلمين عامة والفقراء منهم خاصة بعودة جعفر بأقل من فرحة رسول الله ﷺ، فقد كان جعفر شديد العطف على الضعفاء كثير البر بهم، حتى إنه كان يلقب بأبي المساكين. فقد أخبر عنه أبو هريرة رضي الله عنه، وكان من المساكين - فقال: كان خير الناس لنا - معشر المساكين - جعفر بن أبي طالب، فقد كان يمضي بنا إلى بيته فيطعمنا ما يكون عنده، حتى إذا نفذ طعامه أخرج لنا العكة التي يوضع فيها السمن وليس فيها شيء، فنشقها ونلعق ما علق بداخلها.

في وداع الزوج الشهيد:

لم يمض عام على وصول أسماء بنت عميس وزوجها جعفر بن أبي طالب المدينة حتى دعا داعي الجهاد، ففي أوائل السنة الثامنة للهجرة جهز الرسول ﷺ جيشا لمنازلة الروم في بلاد الشام، وأمر على الجيش زيد بن حارثة وقال: " إن قتل زيد أو أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر أو أصيب فالأمير عبد الله بن رواحة، فإن قتل عبد الله بن رواحة أو أصيب فليتخذ المسلمون لأنفسهم أميرا منهم "، فلما وصل المسلمون إلى « مؤتة » وهي قرية واقعة على مشارف الشام في الأردن، وجدوا أن الروم قد اعدوا لهم مائة ألف تدعمهم وتساندهم مائة ألف أخرى من نصارى العرب من قبائل لخم وجذام وقضاعة وغيرهم.

أما جيش المسلمين فكان ثلاثة آلاف، وما أن التقى الجمعان ودارت رحى المعركة حتى خر زيد بن حارثة صريعا مقبلا غير مدبر. فما أسرع أن وثب جعفر بن أبي طالب عن ظهر فرس كانت له شقراء، ثم عقرها بسيفه حتى لا ينتفع بها الأعداء من بعده. وحمل الراية ودخل في صفوف الروم، وظل يجول في صفوف الأعداء بسيفه ويصول حتى أصابته ضربة قطعت يمينه فأخذ الراية بشماله، فما لبث أن أصابته أخرى فقطعت شماله، فأخذ الراية بصدره وعضديه فما لبث أن أصابته ثالثة شطرته شطرين، فأخذ الراية منه عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى لحق بصاحبيه.

بلغ الرسول ﷺ مصرع قواده الثلاثة فحزن عليهم أشد الحزن وأوجعه ، وانطلق إلى بيت ابن عمه جعفر بن أبى طالب ، فألفى زوجته أسماء بنت عميس تتأهب لاستقبال زوجها الغائب . فهى قد عجنت عجينها ، وغسلت بنيها ودهنتهم وألبستهم.

أسماء تتلقى الخبر:

تحدثت أسماء عن مجيء خبر زوجها واستشهاده فى غزوة مؤتة فقالت : فلما أقبل علينا رسول الله ﷺ رأيت غلالة من الحزن تغطى وجهه الكريم ، فسترت المخاوف فى نفسى ، غير أنى لم أشأ أن أسأله عن جعفر مخافة أن أسمع منه ما أكره . فحيا وقال : " ائتينى بأولاد جعفر " فدعوتهم له . فهبوا نحوه فرحين مزغردين ، وأخذوا يتزاحمون عليه ، كل يريد أن يستأثر به ، فأكب عليهم ، وجعل يتشممهم ، وعيناه تذرفان من الدمع.

فقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله - بأبى أنت وأمى- ما يبكيك؟! أبلغك عن جعفر وصاحبيه شيء؟! قال: « نعم ... لقد استشهدوا هذا اليوم ... » فبكت أسماء - رضى الله عنها - بكاء شديدا حزينا على فراق زوجها جعفر ، وعند ذلك غاضت البسمة من وجوه الصغار لما سمعوا أمهم تبكى وتنشج ، وجمدوا فى أماكنهم كأن على رؤوسهم الطير ، أما رسول الله ﷺ فمضى وهو يمسح دموعه ويقول: « اللهم اخلف جعفرا فى ولده ، اللهم اخلف جعفرا فى أهله » ثم قال : « لقد رأيت جعفرا فى الجنة له جناحان مضرجان بالدماء ، وهو مصبوغ القوادم » ورجع ﷺ إلى أهله يقول : اصنعوا لآل جعفر طعاما فإنه قد جاء ما يشغلهم » [١] .

ثم دخل رسول الله ﷺ على أسماء فى اليوم الثالث من استشهاد جعفر وقال لها : « لا تحدى بعد يومك هذا » واستعبرت أسماء بنت عميس- رضى الله عنها - وذكرت يتم أولادها ، فقال رسول الله ﷺ : « العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة ؟! » ثم دعا لها ولأولادها.

---

(١) رواه الترمذى (٩٩٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

مع أبى بكر الصديق :

مضت الأيام وأخلف الله أسماء خيرا فى مصابها ، فزوجها النبى ﷺ لأبى بكر الصديق يوم حنين(١) ، واصطحبها أبو بكر ﷺ معه فى حجة الوداع ، فولدت له محمدا بذى الحليفة ، فهم أبو بكر ﷺ بردها إلى المدينة المنورة ، فسأل النبى ﷺ فقال: « مرها فلتغتسل ثم تهل بالحج »(٢) ، وحجت أسماء بنت عميس الصابرة الحبشية رضى الله عنها » حجة الوداع ، وبقيت عند أبى بكر الصديق ﷺ إلى أن مات فغسلته بوصية منه . ثم تزوجت أسماء على بن أبى طالب ﷺ ، فولدت له يحيى وعونا(٣) .

المؤمنة الكريمة :

لعل أجل وصف وصفت به السيدة أسماء بنت عميس - رضى الله عنها - هو وصف مؤمنة ، فقد شهد لها النبى ﷺ مع أخواتها بالإيمان ، فقال : « إن الأخوات لمؤمنات » وأخوات أسماء لأمها هن ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين وزوج الرسول ﷺ ، وأم الفضل « لبابة بنت الحارث » رضى الله عنها وهى امرأة العباس بن عبد المطلب - رضى الله عنهن - وأختها لأبيها سلمى بنت عميس بن معد الخثعمية زوجة حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ .

وقد خصها النبى ﷺ بمنقبة فريدة فقد قال ابن عباس وهو ابن أختها أم الفضل- رضى الله عنهن أجمعين - قال : بينما رسول الله ﷺ جالس وأسماء بنت عميس قريبة إذ قال: « يا أسماء هذا جعفر مع جبريل وميكائيل مر ، فأخبرنى أنه لقى المشركين يوم كذا وكذا فسلم فردى عليه السلام ...»(٤) .

وفى عهد عمر بن الخطاب ، لما فرض الأعطية ، فرض للمهاجرات الأول

---

(١) الإصابة : ٤/ ٢٢٥ .
(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) وأبو داود (١٩٠٥) وابن ماجة (٣٠٧٤) .
(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨٦ .
(٤) سير أعلام النبلاء ١/ ٢١١ .

ألف درهم ، ومنهن أسماء بنت عميس ، وأسماء بنت أبى بكر ، وأم عبد الله ابن مسعود.

ومن فضائل أسماء بنت عميس الصابرة الحبشية ، أنها كانت قد اشتهرت بتأويل الرؤيا ، فقد رأى عمر بن الخطاب ﷺ فى الرؤيا ديكا نقره أسفل سرته نقرتين ، فسأل عن تأويل رؤياه أسماء فقالت : هذا رجل أعجمى يصيبك ، ومرت الأيام وطعنه أبو لؤلؤة المجوسى بسكين تحت سرته طعنتين أو ثلاثا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

وقد روت أسماء بنت عميس: عن النبى ﷺ ستين حديثا أخرجها مسلم ، وأصحاب السنن الأربعة: أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، رحمهم الله.

ومن مروياتها ما رواه عنها ابنها عبد الله بن جعفر ﷺ : علمتنى أمى أسماء بنت عميس شيئا أمرها رسول الله ﷺ أن تقوله عند الكرب : « الله ربى لا أشرك به شيئا »[1] رضى الله عن أسماء بنت عميس ، فقد توفيت فى سنة ٦٠ هـ[2] رضى الله عن الصابرة الحبشية.



---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٥) وابن ماجة (٣٨٨٢) .

(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبى ١٧٨/٤ .

القدوة والمثل

الفراسة والحياء

هذه المرأة ذكرت فى القرآن ، واتصفت بالحياء فقال عنها رب العزة: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ... ﴾ الآية [القصص:٢٥].

وعن فراسة هذه المرأة وهى « صفورا » امرأة موسى عليه السلام قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ، أى: أصدقهم وأجودهم . فراسة ثلاثة :

١) العزيز فى يوسف عليه السلام حين قال لامرأته: ﴿ أكرمى مثواه ﴾

٢) وصاحبة موسى « صفورا » حين قالت: ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ - على نبينا وعليهم الصلاة والسلام .

٣) وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب[١].

والفراسة من البصيرة ، والبصيرة هى قوة فى القلب تدرك بها العقول[٢] والفراسة الصادقة فراسة ذات بصيرة[٣]. فلنعش مع فراسة هذه المرأة ، وحياؤها العظيم الذى وصفها به القرآن ، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ۝ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ ﴾ [القصص:٢٦ ، ٢٧].

١- الأسرة الطيبة:

ليا ، وصفورا ، بنتان لرجل صالح ، وشيخ كبير، قيل: إنه شعيب عليه السلام ، عاشت هذه الأسرة الكريمة فى مدين وهى مدينة قوم شعيب ، وهى تجارة

---

(١) ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٣٦١ ـ أفرس الناس .
(٢) الكليات للكفوى ١٠/ ٤٢٩ ط الرسالة .
(٣) لسان العرب ٤/ ٦٤ وما بعدها .

تبوك بين المدينة والشام[١] كانت ليا وصفورا وأبوهما شعيب عليه السلام يعبدان الله حق عبادته ، وكانت ليا وأختها الصغرى صفورا على قدر عظيم من الجمال والحياء ، وقد ذكر القرآن الكريم خلق الحياء فى صفورا والتى تحلت به كى تتحلى به كل النساء المؤمنات ، فقال الله ﷻ فى كتابه العزيز: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص: ٢٥] وكانت صفورا تمضى كل يوم لرعى أغنامها وسقيهما من بئر مدين ، وكان أبوهما شيخ كبير لا يقدر على جهد الرعى والسقى ، فعند بزوغ الشمس وإطلالها على صفحة الوادى الرحيب فى أرض مدين كانت صفورا وأختها ليا تستيقظان من نومهما فتعدان حاجة أبوهما الشيخ الكبير الطاعن فى السن ـ يعدان حاجته من الطعام ـ فيحلبان غنيماتهما ، ويقدمان اللبن لأبوهما مع هشيم الخبز ، وبعد أن تتناولا طعامهما تخرجان إلى الوادى الخصيب الفسيح فى أرض مدين لترعيا غنمهما ، وعند الظهيرة تكون الغنم قد رعت وملأت بطونها فتمضيا بالغنم على بئر مدين فتسقى مثلما يسقى الرعاء ـ ثم تعودا فى المساء.

كانت هذه حياتهما كل يوم ونظامهما المتكرر والذى تتخلله تسابيح هذه الأسرة الصالحة ، فكانتا تعبدان الله حق عبادته ، وتشكرانه على أنه أنعم الله عليهما بأبوهما الرجل الصالح ، المؤمن ، والشيخ الكبير الذى يعرف الله حق المعرفة ، فغرس فيهما خلق الحياء والصبر، وحب العمل.

٢- موسى يقتل القبطى:

أراد الله ﷻ ، وانصرفت مشيئته أن يخرج موسى إلى أرض « مدين » فجعل له سببا كى يخرج إليها من مصر ويرى ما رآه ، وجاء السبب من الله عندما خرج موسى عليه السلام من داره بعد أن بلغ أشده ، فأصبح قويا عاقلا حازما وقد بلغ الأربعين من عمره ، وآتاه الله حكما وعلما أى معرفة بشرع إبراهيم عليه السلام وهى مقدمات النبوة[٢] . ودخل موسى عليه السلام مدينة من مدن مصر ـ فى وقت

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموى .
(٢) تفسير ابن عطية (١١/ ٢٧٣) .

القائلة والظهيرة ، وهو وقت الغفلة والنوم ، حيث إن الغالب نوم الناس فى هذا الوقت ، فوجد فى المدينة رجلان يتنازعان ويقتتلان أحدهما إسرائيلى من شيعته والآخر قبطى من قوم فرعون ، ولما رأى الإسرائيلى موسى عليه السلام استغاث به وطلب منه أن يعينه على القبطى ، وطلب منه العون والنصرة على خصمه القبطى ؛ لأنه كان مظلوما ، فجاء موسى عليه السلام فوكز القبطى ، ضربه بجمع كفه فقضى عليه ، مات القبطى ؛ ولم يرد موسى قتله ، وإنما أراد فض الاشتباك بينهما.

حزن موسى حزنا عميقا ، فما كان يريد قتله ، وإنما أراد دفع ظلمه فقال موسى: هذا من عمل الشيطان - أى أن قتل القبطى من إغواء الشيطان(١) .

ندم موسى على ما صدر منه واعتبر قتل القبطى الكافر من عمل الشيطان وبأنه ظلم لنفسه ، فاستغفر ربه من ذلك فغفر له ، قال تعالى حكاية عن موسى﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص: ١٦] وعاهد موسى ربه بعد ذلك ألا يكون معينا للمجرمين الظالمين(٢) فقال:﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص: ١٧].

أصبح موسى عليه السلام فى المدينة خائفا من فرعون وجنوده خائفا من قتل القبطى - يترقب- يتلفت من الخوف- فإن علم فرعون وجنوده أن هذا القتيل الذى قتل بالأمس إنما قتله موسى فى مساعدة ونصرة رجل من بنى إسرائيل ، وفيما هو على هذه الحال إذا بصاحبه الإسرائيلى الذى خلصه بالأمس يخاصم قبطيا آخر ويستغيث بموسى لينصره على القبطى ، فقال له موسى:﴿ إنك لغوى مبين ﴾ الآية أى ظاهر الغواية كثير الشر تخاصم من لا تستطيع دفع شره عنك ، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطى ، فاعتقد

(١) انظر تفسير القرطبى (١١/ ٢٥٩-٢٦١) .
(٢) تفسير ابن عطية (١١/ ٢٧٦) .

الإسرائيلى لرعونته وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد البطش به لما سمعه يقول له : ﴿ إنك لغوى مبين ﴾ فقال الإسرائيلى: أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، فلما سمعها هذا القبطى ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده ، فعلم فرعون أن موسى هو الذى قتل القبطى فاشتد غضبه عليه وأراد قتله ، فبعث إليه من يحضره عنده للقتل(١) . جاء ذلك كله فى قوله ﷻ: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القصص: ١٨، ١٩] ، وتحركت على الفور قوات فرعون وزبانيته ، وموسى يظن الظنون خائفا يترقب ويتلفت يمينا ويسارا ويتوقع الشر القريب من فرعون ورجاله.

٣- المؤمن الناصح:

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص: ٢٠-٢٢] رجل مؤمن ، وصفه القرآن بأنه مؤمن ، إنه حزقيل ، مؤمن من آل فرعون ، لم يعبد الأصنام ولم يقدس البشر كما كانوا يعبدون فرعون ، جاء هذا الرجل« حزقيل المؤمن »(٢) لما علم بنية فرعون ومن معه من الملأ والناس قتل موسى جاء مسرعا إلى موسى وقال له : إن الملأ يتشاورون فى قتلك بالقبطى الذى قتلته بالأمس ، فاخرج إنى لك من

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٣) ، وتفسير القرطبى (١٣/ ٢٦٥،٢٦٤) .

(٢) عند أكثر المفسرين ـ هو مؤمن آل فرعون انظر تفسير الآية فى ابن كثير والقرطبى والقاسمى (١٣/ ١٠١) .

الناصحين ، فخرج موسى من مصر خائفا ينتظر الطلب ، وأفلت من القوم الذين بحثوا عنه فلم يجدوه ، وخرج بحكم فزعه وخوفه إلى الطريق المؤدية على مدين ، وهى مدينة قوم شعيب عليه السلام ، وكان موسى عليه السلام لا يعرف الطريق ولم يصحب أحدا ، واثقا بالله ، متوكلا عليه ، ولم يكن معه زاد ولا راحلة . ولما رأى حاله وعدم معرفته بالطريق أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهۡدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فلا يلحقنى بالطريق الطالبون من رجال فرعون[1] .

٤- لقاء عند بئر مدين :

ظل موسى عليه السلام يمشى فى طريقه ، وربه يهديه سواء السبيل لا يعبأ بمشقة ، ولا يشعر بالتعب ، فكان ينهم الطريق نهما ويغز السير وهو القوى الأمين عليه السلام ، وانتهى به الطريق إلى ماء مدين ، وكان بئرا ، وكان ما هاله أن وجد أمة من الناس وعددا كبيرا من الناس يسقون أغنامهم .

جلس موسى عليه السلام يتأمل المشهد بعد سفر طويل من مصر إلى مدين ، وكان بينهما مسيرة ثمانية أيام[2] مشاها موسى على قدميه . هذا المشهد المزدحم هو الذى وقع عليه بصر موسى عليه السلام لأول وهلة ، ولكن الصورة لم تكتمل ، فقد وقع بصر موسى على مشهد آخر قريب جعله يتحرك ويشارك فى هذا المشهد الكبير الذى انضم إلى زحمة الناس والرعاء الذين يسقون امرأتين - وهما ليا وصفورا ، لم يكن موسى يعرفهما من قبل ، ولكنه وجد فى الأمر خلل فالناس يسقون أما ليا وصفورا فقد وقفتا بعيدا تمنعان غنمهما عن الماء ، ولنقرأ وصف هذا المشهد فى القرآن الكريم يقول رب العزة:

﴿ ولما وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ

---

(١) انظر : تفسير القاسمى (١٣/ ١٠١) .

(٢) انظر تفسير أبو السعود ٧/ ٨ ، وتاريخ الطبرى ١/ ٢٣٧ .

تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصص: ٢٣] . أذهب هذا المشهد عن موسى عليه السلام مشقة السفر ووعثائه وعنائه وأنساه الجوع والعطش الذى تملك منه فهاتان الفتاتان اللتان شعرتا بالضعف مما دفعهما إلى إبعاد غنمهما عن غنم الرعاء حتى لا تختلط بها ، وكذلك دفعهما حياءهما إلى البعد عن مخالطة الرجال.

قام موسى عليه السلام بدافع نخوته ورجولته ورغبته فى مساعدة الضعيف ، لقد رق موسى للفتاتين وتقدم فى هدوء وأدب وقال للفتاتين: ﴿ ما خطبكما ﴾ ما خبركما لا تسقيان غنمكما مع هؤلاء الرعاء ، فقالتا : لا نستطيع أن نزاحم الرجال والرعاة ، ولا يتيسر لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء الناس من سقى أغنامهم وصرفها عن الماء ، عجزا عن مدافعتهم ومزاحمتهم ، وحذرا من مخالطتهم.

فقال موسى: ولم تقوما بالرعى والسقى؟

قالتا: إن أبانا شيخ كبير ، فيعجز عن الخروج والسقى وقد أضعفه الكبر أن يباشر أمر غنمه ، فاضطرنا الحال إلى ما ترى من الانتظار حتى يفرغ الرعاء من سقى أغنامهم وينصرفوا وأغنامهم عن الماء ، فنستطيع أن نسقى أغنامنا بعدهم ، فلابد من التأنى والانتظار ولو نتأخر ويطول انتظارنا[١] .

وبعد هذه المحاورة من موسى مع المرأتين اللتين وجدهما عند ماء مدين وهما تمنعان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء قام موسى عليه السلام ، ونظر إلى البئر فوجد أن الرعاء قد وضعوا على فم البئر صخرة ثقيلة ضخمة تحتاج إلى عدد من الرجال كى يدفعونها ، فرفع موسى عليه السلام تلك الصخرة ثم سقى لهما غنمهما وأعاد الصخرة إلى مكانها.

كان الجو حارًا والشمس محرقة ، وموسى عليه السلام يتألم من شدة الجوع ومشقة

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٣) ، تفسير القاسمى (١٣/ ١٠١) .

السفر الطويل ، وهو فى حاجة إلى الطعام والراحة بعد هذا التعب ، فلم يذق طعاما منذ سبعة أيام[١] ، تحول موسى عليه السلام وهو على هذه الحال إلى ظل شجرة صغيرة الورق ، وتوجه إلى ربه بالدعاء وطلب المعونة والخير- فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ الآية ، وفى هذا الدعاء شكر موسى ربه على ما أعطاه من نعم ، ولقد توجه إلى ربه بهذا الدعاء ، وهو فى تعب وجهد شديدين والخير هنا مقصود به الطعام[٢] .

٤- صفورا تعود إلى موسى:

ظل موسى عليه السلام مكانه تحت الشجرة يدعو ربه بأنه فقير من ذوى الحاجات ضعيف واهن من شدة الجوع ، فقير إلى ما عندك من الخير والفضل والكرم .

وفى هذه الأثناء عادت صفورا وأختها ليا إلى أبيهما فى وقت قياسى سريع لم يعتاده من قبل ، فأنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعا ، فسألهما عن خبرهما ، فقصتا عليه ما فعله موسى عليه السلام من قيامه بالسقى لهما . وحدثتاه بما كان من أمر موسى الذى سقى لهما ، فحمد الله وشكره ، وقالت صفورا : إن هذا الرجل القوى الأمين تبدو عليه علامات السفر والتعب ، فوجهه متعب مجهد يبدو أنه قادم من سفر طويل عندئذ أمر شعيب ابنته صفورا أن تذهب إليه وتدعوه ، جاءت صفورا من فورها ؛ لأن الله عز وجل استجاب لدعوة موسى عليه السلام حينما دعاه قائلا: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، فكان أن سبب الله من يستضيفه ويسد رمقه بل وأبعد من ذلك فإنه سيزوجه إحدى بناته ، فكانت الدعوة فورية وعلى عجل لحاجة موسى الفورية لها ، فجاءت صفورا على عجل أيضا وقد تحلت بحلية الحياء ، وتخلقت بخلق الحياء الذى قال عنه العلماء[٣]: « وخلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرا

---

(١) انظر تفسير الطبرى (٢٠/ ٥٩) .
(٢) انظر تفسير ابن عطية (١١/ ٢٨٧) ، والقرطبى (١٣/ ٢٦٩، ٢٧٠) .
(٣) ابن القيم فى كتابه مفتاح دار السعادة (ص ٢٧٧) .

وأكثرها نفعا ، بل هو خاصة الإنسانية ، فمن لا حياء فيه فليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة...» ولولا خلق الحياء الذى أودعه الله فى عباده المؤمنين لم يكرم الضيف ، كما سيكرم موسى عليه السلام هنا من شعيب عليه السلام وأسرته المؤمنة ولولا خلق الحياء لم يوف بوعد كما سيفى هنا موسى عليه السلام بوعده لشعيب عليه السلام .

ولنعد إلى صفورا ونقرأ وصف حالتها عندما جاءت إلى موسى عليه السلام ، قال تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ... ﴾ الآية.

وهنا تتبين لنا شخصية صفورا التى جمعت شعب الإيمان فى صفة اختصها بها رب العالمين ومدحها بها وهى صفة الحياء ، فالحياء من قبيل الوقار وهو غض الطرف والانقباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه[(١)] وهكذا كانت صفورا المؤمنة- وإذا كان الحياء من الفضائل التى تدخل تحت العفة[(٢)] بل هو أولها ، فإن صفورا كانت على قدر عظيم من العفة والشرف والطهارة ، وقد ذكر أن صفورا كانت « تمشى غير متبخترة ولا متثنية »[(٣)] ، وذكر ابن كثير - رحمه الله - قول عمر بن الخطاب عن صفورا ، قال عمر رضي الله عنه: « إن صفورا كانت ساترة وجهها بثوبها مبالغة فى الحياء ؛ لأن ستر وجهها غير واجب عليها »[(٤)] وربما ظن البعض أن الحياء هنا يتمثل فى احمرار الوجه وستره عن المستحى منه فقط ، ولكن حياء صفورا كان حياء شاملا حياء فعليا ستره من خلال وجهها ، وأحسنت مشيتها فلم تتلوى أو تتثنى ، فقد تكون الفتاة ساترة لوجهها ولكن المفسرون والعلماء عرفوا الحياء كخلق شامل ولم يكتفوا بالستر والحجاب فقط ، ولنقرأ قول بعض العلماء حينما سئلوا ما الحياء؟ فأجابوا:

---

(١) تهذيب الأخلاق للجاحظ (٢٣) .

(٢) تهذيب الأخلاق فى التربية لابن مسكويه (١٧) .

(٣) تفسير أبو السعود ٧/ ٩ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير للآية فى سورة القصص .

١) الحياء انقباض النفس عن القبائح وتركها[1].

٢) الحياء ملكة راسخة للنفس توزعها (تدفعها) على إيفاء الحقوق وترك القطيعة والعقوق.

٣) حقيقة الحياء خلق يبعث إلى فعل الحسن وترك القبيح.

وقد ذكر رسول الله ﷺ : " الحياء شعبة من الإيمان " وقول رسول الله ﷺ هذا فى الحياء وهى صفة يكتسبها الإنسان ويتخلق بها ، قال هذا ﷺ ؛ لأن الإنسان الذى يستحى ينقطع ويمتنع عن معصية الله ، فصار كالإيمان الذى يقطع الإنسان عن المعصية ، ويحول بين المؤمن وبين هذه المعاصى.

ولذلك فقد أنعم الله على صفورا بنعمة الحياء ؛ لأنها من أسرة مؤمنة تستحى من الله وتخافه وتخشاه.

ونعود إلى صفورا التى جاءت إلى موسى تمشى على استحياء فقالت له فى أدب جم: ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ... ﴾ [القصص: ٢٥] . فأجاب موسى دعوة أبيها ، وقال لها : امش خلفى وصفى لى الطريق انظر إلى صفورا وأدبها الجم وثقتها بنفسها ، فهى واثقة من نفسها ، طاهرة عفيفة ، تزدان بالعفة وتتحصن بالطهارة ، كانت كلماتها سريعة حاسمة شأنها شأن المرأة الحرة النافرة التى لا تستمال ، ولا تدع فرصة للذين فى قلوبهم مرض عندما تخضع لهم فى القول.

تحلت صفورا بحسن أدبها ، وجمال حيائها ، تحدثت بلسان أبيها ولم تتحدث بلسانها قالت : ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ ﴾ ولم تتوقف عند هذا الحد بل كانت واضحة شفافة تقية نقية لم تدع للشك مجالا ولا للريبة سندا ، فهذا شأن المرأة العفيفة الشريفة ، قالت فى حزم: ﴿ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾[2] كأنها تقول هذا الذى بيننا وبينك.

---

(١) الراغب فى المفردات (١٤٠) .

(٢) انظر تفسير الآية فى ابن كثير (٣/ ٣٦٠) .

كان هذا كله فى نظر موسى عليه السلام ، عونا له عندما اختار صفورا زوجة له ، أدبها وحياؤها ، وحزمها ، وعفتها ، هى التى جعلت موسى يختار صفورا زوجة له ، وكذلك يكون الاختيار الشاب المؤمن لعروسه ، وليس كما تظن بعض فتياتنا أن الطريق إلى قلب الرجل هو زينتها وتبرجها الفاضح وتلويها وخضوعها بالقول . إن العفة والطهارة والحياء هى السهام التى تخترق قلب الرجل المؤمن ، والزوج الصالح.

أما موسى عليه السلام ، فقد قال لها فى أدب جم : يا أمة الله كونى ورائى ، ودلينى على الطريق يمينا أو يسارا . مشى موسى عليه السلام أمام صفورا وجعلت تدله على الطريق حتى جاء إلى شعيب عليه السلام ، وقص عليه قصته فى مصر مع آل فرعون والرجل الذى هو من شيعته ، ولما قص عليه القصة وهو خائف غير مطمئن ، جاء رد شعيب ليزيل الخوف عن نفسه ، فقال له: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص:٢٥].

وأصبح موسى- عليه السلام- فى مأمن بعيدا عن سلطان فرعون وجبروته ، وفى ضيافة أسرة طيبة مؤمنة طاهرة استطاعت أن تنظم علاقاتها بموسى عليه السلام بوضوح تام ودون لبس فقد بادر شعيب ضيفه موسى عليه السلام بأمور تحدد علاقته بهم ولم يترك الأمر غامضا يتجاذب أطرافه الشيطان ، بل كان واضحا حازما.

٥- فراسة صفورا وبصيرتها :

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « أفرس الناس- أى: أصدقهم وأجودهم - فراسة ثلاثة :

الأول: العزيز فى يوسف عليه السلام حين قال لامرأته : ﴿ اكرمى مثواه ﴾

والثانى: وصاحبة موسى « صفورا » حين قالت : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استجرت القوى الأمين ﴾ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

الثالث: وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب[١] .

والفراسة من البصيرة ، والبصيرة هى قوة فى القلب تدرك بها العقول[٢] ، والفراسة الصادقة فراسة ذات بصيرة[٣] .

وإذا كانت صفورا تتصف بالفراسة ، فإن فراستها جاءت فى محلها ؛ لأن موسى عليه السلام جدير بالاستئجار لقوته وأمانته ، وقد اكتشفت صفورا بفراستها وبصيرتها قوة هذا الرجل فى صبره على مشقة السفر ، وحمله الحجر عن البئر رغم ضخامته وسقايته لهم وإعادته مرة أخرى ، واكتشفت بفراستها وبصيرتها أيضا أن موسى عليه السلام يتحلى بخلق الأمانة ؛ لأنها خبرته فى الطريق حينما جعلها خلفه كى يغض بصره ولا يرى شيئا من سترها ، وإذا كانت صفورا قد خبرت واكتشفت فى موسى عليه السلام القوة والأمانة فإنها نبت اختيارها على ضوء ما يحتاجونه من موسى عليه السلام فراعى الغنم لابد أن يكون قويا حتى يحفظ ويحافظ على الماشية ، والأمانة هى حلية القوة وتاجها والغنم مال يستمر وحاجة المال على الأمانة شديدة ، وضرورة ملحة .

فكرت صفورا بعد لقاء أبيها الشيخ العجوز بموسى عليه السلام فقد وجدت فى مهنة الرعى - رعى الغنم مشقة كبيرة ، لا يقدر عليها غير الرجال الأقوياء ، أما النساء فالأمر يختلف ، كما أن السقى من بئر مدين وقد اعتادت أن تكون مزدحمة بالرجال ، وفى ذلك مشقة نفسية قد تخالف شرائع الله ، وتعرضهما لما لا يحمد عقباه ، وأصبحت صفورا وأختها ليا تتأذيان من هذا العمل الشاق ولا تريد أن تخدش حياءها كل يوم عند السقاية من البئر فتوجهت إلى أبيها بهذا الطلب ـ وتحدث القرآن حكاية عن صفورا فقال رب العزة : ﴿ قَالَتۡ

---

(١) انظر المصباح المنير عندما استعمل الزجاج منه أفعل فقال: أفرس الناس . ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٣٦١

(٢) الكليات للكفوى ١٠/ ٤٢٩

(٣) لسان العرب ٤/ ٦٤ وما بعدها .

إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾

[القصص:٢٦]

استجاب الرجل الصالح ، الشيخ العجوز شعيب عليه السلام لطلب ابنته ونزولا على رغبتها ، وثقة منه فى وصفها له بأنه قوى وأمين . ولكن الرجل لم يمض فى طريق الاستجابة دون أن يمحص الأمر ويجعل له ضوابط وأصول تخلو من العاطفة ، وخاصة أنه باستجابته لطلب ابنته ﴿ يا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ سيجعل موسى عليه السلام فردا قريبا من الأسرة الصغيرة المكونة منه ومن ابنتيه صفورا وليا.

فكر الرجل مليا وحزم أمره وتوكل على الله ، ثم دعا موسى عليه السلام إلى مجلسه وهو يكن له كل أواصر الحب والإجلال ، والمعرفة بأن موسى عليه السلام رجلا أمينا صالحا شهما ، ولما جلس إليه عرض عليه أمر الزواج من إحدى ابنتيه (صفورا) على لأن يرعى غنمه ثمانى سنين ، فإن تبرع بزيادة سنتين فهذا له ، وإلا ففى الثمانى كفاية .

فقال موسى عليه السلام أيما المدتين قضيت فلا حرج على ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾، أى شاهد وحفيظ[(١)] .

ذلك ما ذكره رب العزة عما قال شعيب لموسى عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

[القصص: ٢٧، ٢٨].

٦- جواز عرض الرجل ابنته على رجل صالح :

ويستفاد من قول الله تعالى حكاية عن شعيب: ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٨ ، وتفسير القاسمى (١٣/ ١٠٣).

إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَـٰتَيۡنِ ﴾ جواز أن يعرض الرجل ابنته أو من تحت ولايته على رجل صالح ليتزوجها ، ولا غضاضة فى ذلك ، فعله شعيب ، وفعله الصالحون من أمة محمد ﷺ مما يدل على أن الأمر سنة قديمة وهو سنة قائمة فى الشريعة الإسلامية ، فقد أخرج الإمام البخارى فى(صحيحه) عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على عثمان بن عفان ﷺ ولما لم يبد رغبة فى نكاحها قال عمر : فلقيت أبا بكر فقلت : إن شئت زوجتك ابنتى حفصة ، وفصمت أبو بكر فلم يرجع إلى شيئا ، فلبثت ليالى ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه.

وجاء فى شرح هذا الحديث: « وفيه عرض الإنسان بنته وغيرها من مولياته على من يعتقد خيره وصلاحه لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه وأنه لا استحياء فى ذلك »[١].

وذكر المحدثون والمؤرخون أن عمر ﷺ لما عرض حفصة على أبى بكر ، فلم يجبه بشيء ، وعرضها على عثمان ، فقال : بدا لى ألا أتزوج اليوم ، فوجد عليهما ، وانكسر ، وشكا حاله إلى النبى ﷺ ، فقال: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة ، ثم خطبها فزوجه عمر[٢]. وزوج رسول الله ﷺ عثمان بابنته رقية بعد وفاة أختها . ولما زوجها عمر لرسول الله ﷺ ، لقيه أبو بكر ، فاعتذر ، وقال : لا تجد على ، فإن رسول الله ﷺ ، كان قد ذكر حفصة ، فلم أكن لأفشى سره، ولو تركها لتزوجتها[٣].

نعود إلى موسى عليه السلام وشعيب عليه السلام ، فقد تعهد بالوفاء بما طلب منه وأشهد الله على ذلك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى خير الشاهدين ، ولم يكن موسى وحده الذى أشهد الله ، ولكن اشترك مع شعيب فى إشهاد الله على

---

(١) صحيح البخارى بشرح العسقلانى (٩/ ١٧٥ـ١٧٨) .
(٢) البخارى (٩/ ١٥٢ ، ١٥٣) فى النكاح .
(٣) تفسير القرطبى (١٣/ ٢٨٠) .

التزام كل منهما بما عاهد الآخر عليه فقالا معا: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أى شاهد وحفيظ.

فاكتفى الصالحان (موسى وشعيب عليهما السلام) فى الإشهاد عليهما بالله ، ولم يشهدا أحدا من الخلق[1].

وتحدث المحدثون والمفسرون عن أى الأجلين قضى موسى عليه السلام (هم الثمانى سنين أم العشر) وقد روى البخارى فى (صحيحه) . عن سعيد بن جبير ، قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة : أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أدرى حتى أقدم على جد العرب فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل[2] ، وعن أبى ذر رضي الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إذا سألت أى الأجلين قضى موسى؟ فقل خيرهما وأبرهما ، وإذا سألت أى المرأتين تزوج؟ فقل الصغرى منهما . وهى التى جاءت فقالت: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ فقال: ما رأيت من قوته؟ قالت: أخذ حجرا ثقيلا فألقاه على البئر . قال: وما الذى رأيت من أمانته؟ قالت: قال: امش خلفى ولا تمش أمامى »[3].

من هذا الحديث الذى رواه أبو هريرة وأورده السيوطى نجد أن صفورا قد حددت مواصفات الزوج من موسى عليه السلام لأبيها حينما سألها أبوها : ما رأيت من قوته؟ فأجابت أخذ حجرا ثقيلا فألقاه على البئر ، أما عن أمانته فقد استشفها من خلقه الرفيع حين غض طرفه وحمى بصره ، وحفظ عرضه فقال لها : امش خلفى ولا تمش أمامى.

---

(١) تفسير القرطبى (١٣/ ٢٨٠) .

(٢) رواه البخارى فى الشهادات ، باب : من أمر بإنجاز الوعد حديث رقم (٢٦٨٤) .

(٣) الإتقان فى علوم القرآن (٢/ ١٢٦٧) ، الدر المنثور للسيوطى (٦/ ٤١٠) .

٧- الزواج المبارك :

ظل موسى عليه السلام يعمل فى رعى الغنم ، وسقيها ، ويمضى نهاره فى أودية مدين راعيا للغنم ، باحثا عن كل أرض خصبة ينمو فيها مال شعيب عليه السلام ، فترعى غنمه وتملأ بطونها وعندما يأتى المساء يمضى على بئر مدين ليسقيها ولقد اعتاده الرعاء والسقاه من أهل مدين رجلا قويا أمينا ، كان لا يترك عبادته وتسبيحه فنهاره تسبيح وليله حمد وشكر وقيام ، وقد شمل حديث النبى محمد ﷺ أخاه موسى عليه السلام حينما قال: « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم فقال أصحابه : وأنت؟ فقال: « نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[(١)] .

وقد روى عن النبى ﷺ فى شأن موسى ووفائه بما عاهد شعيب عليه فقال عليه السلام : « تزوج صغراهما وقضى أوفاهما » أى : قضى أوفى الأجلين وهو عشر سنين[(٢)] .

أتم موسى عليه السلام السنين العشر وهى تزيد عن الثمانى الذى حددها شعيب ، واكتمل مهر صفورا المؤمنة المخلصة والتى اختصها ربها بخلق عظيم وهو الحياء . وتم زفاف صفورا لموسى عليه السلام ، فاستقبلها وهى فى جلوة العروس فرحا هانئا ، وها هو القوى الأمين يحنو على عروسه ويفرد لها أجنحة الإيمان والتقوى ، فتوفرت على هذا البيت النبوى المبارك أمارات السعادة وعلامات الإيمان والطمأنينة ، ومضت حياتهما سعيدة هانئة إلى جوار الرجل الصالح شعيب عليه السلام فى مدين .

٨- لقاء عند الطور الأيمن :

وفيما كانت السعادة ترفرف على هذا البيت النبوى المبارك ، فوجئت صفورا ذات صباح بزوجها موسى عليه السلام يفاتحها فى أمر العودة إلى مصر ،

---

(١) رواه البخارى فى الإجارة ، باب : رعى الغنم على قراريط .
(٢) ابن كثير(٣/ ٣٦١) .

ليرى أمه وأخته مريم وأخاه هارون عليه السلام ، وكذلك ليرى « آسية » امرأة فرعون المرأة المؤمنة والتى ضرب الله بها مثلا للنساء المؤمنات المخلصات لدينهن وخالقهن ، فلم تطلب أمرا دنيويا بل طلبت بيتا فى الجنة ، فقال عز وجل فى آسية: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التحريم:١١].

وكانت هذه السيدة المباركة تحب موسى عليه السلام حبا شديدا حتى أنها قالت عن موسى : ﴿ قرة عين لى ... ﴾ وقد انصرفت مشيئة الله لأمر هو يعلمه وحده أن يهم موسى عليه السلام بالسفر إلى مصر وترك مدين ـ ليبدأ رسالته وليسمع أمر ربه بالبدء فيها . سبحانه جل شأنه.

وافقت صفورا رأى زوجها فحيثما يذهب الزوج تذهب معه زوجته ؛ وذلك لأن الزوج له فضل القوامة عليها ، يحفظها ويرعاها ويحميها من كل سوء ، وهذا حق لها عنده ، شرعه الله عز وجل . استعدت صفورا للسفر ، وأعدت عدتها ولم يعطلها ما حملته فى بطنها من موسى عليه السلام ، فقد كانت حاملا وظهر حملها ، وقال المفسرون: إنها ولدت لموسى ولدين ، وفى صباح يوم من أيام الله خرج موسى ومعه زوجته المؤمنة صفورا بنت الرجل الصالح شعيب عليه السلام خرج الرجل وزوجته بعد أن ودعا شعيب الشيخ الجليل ، واحتضنت صفورا أختها ليا فى وداع حار ربما لم يخل من دمعة حارة انسكبت على وجنتى كل منهما ، وقد مرت سريعا فى خاطرهما أول يوم رأيا فيه هذا النبى القوى الأمين عند بئر مدين ، وها هو يختص صفورا ويحملها معه حيث نزل فى أى أرض يحل.

خرج موسى مع أهله – وأهل زوجته صفورا[1] ، وسار وقد حمل معه أمتعة وساق بعض المواشى مما يعينه على السفر ، ولما ترك مدين وفصل عنهما

---

(١) انظر تفسير الماوردى : تفسير الآية ٢٩ من سورة القصص

وسار باتجاه سيناء ، وفى بقعة معينة أخطأ موسى الطريق فاتجه نحو جانب الطور الأيمن ، وكان فى هذه الجانب شجرة مباركة يقول عنها الله تبارك وتعالى: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٠].

يقول الطبرى عن هذا المشهد : فلما كانت الليلة التى أراد الله بموسى كرامته وابتداءه فيها بنبوته وكلامه ، أخطأ الطريق حتى لا يدرى أين يتوجه ، فأخرج زنده ليقدح نارا لأهله ليبيتوا عليها حتى يصبح ، ويعلم وجه السبيل فصلد عليه زنده ، فلم يور نارا فقدح حتى أعياه .

وفيما هو يبحث عن النار « لاحت له النار فرآها » فقال لزوجته صفورا: ﴿امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ كان يريد قبسا من النار يستدفئون به من البرد فقد كانت ليلة باردة ، وزوجه صفورا فى حاجة إلى الدفء ، وأراد موسى عليه السلام من النار أن تهديه إلى الطريق الذى ضله فخرج موسى نحو النار فإذا هى شجرة من العليق.

فلما دنا منها موسى عليه السلام واقترب استأخرت عنه ، فلما رأى استئخارها رجع عنها وأوجس فى نفسه خيفة ، فلما أراد الرجعة دنت منه ، ثم كلم موسى عليه السلام من عند الشجرة فسمع صوتا يناديه قائلا : يا موسى ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ [طه: ١٢] . ألقى موسى نعليه ، ولا ندرى أسمعت صفورا هذا الصوت الكريم المبارك أم لا.. فهذا يعلمه الله كل ما نعرفه أنها مكثت تنتظر.

حدد القرآن المكان الذى نودى منه موسى عليه السلام فقال عز وجل : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص:٣٠] أتاه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة عن يمين موسى عليه السلام وقيل: عن يمين الجبل ، وهذه البقعة

خصها الله بالبركة ، ويقول المفسرون: أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من ناحية الشجرة على ما شاء الله[1] ، وكلم الله موسى فى عدة أمور منها:

أولهما: عرفه بمن يكلمه فقال ﷻ: ﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، أى أن الذى يخاطبك ويكلمك هو الله رب العالمين الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ولا رب سواه تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله[2].

وثانيهما: قال له ربه: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١] ، هذا المشهد بدأ عندما سأل الله موسى عليه السلام ، وما تلك بيمينك؟ فأجاب: ﴿ هى عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ﴾ « أى منافع أخرى »[3].

قال رب العزة لموسى: ﴿ ألقها ﴾ ، فألقى موسى عصاه فاهتزت وانقلبت حية عظيمة ، ولها اضطراب الجان ، ولها صفير الحيات ، فجمعت هول الثعبان ونشاط وسرعة حركة الجان ، فخاف موسى وولى ظهره وانفلت هاربا ﴿ولم يعقب ﴾ لم يرجع من هروبه وتوليه ، ولكن رب العزة طمأنه وقال له: « ارجع يا موسى " أقبل ولا تخف فأنت فى أمان رب العزة ﷻ قال له: يا موسى ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴾ الآية ، وهذا تأمين الله تعالى إياه ، فرجع موسى ووقف فى مكانه الأول- ثم قال له: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ ، أى: ادخل يدك فى جيبك وهو فتح الجبة

(١) تفسير ابن عطية (١١/ ٢٩٦) ، وتفسير القرطبى (١٣/ ٢٨١، ٢٨٢) .
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٨) .
(٣) انظر تفسير الطبرى للآيات ، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٢٤٢ .

من حيث يخرج رأس الإنسان ، تخرج بيضاء من غير برص أو عيب ، أى إذا أدخلت يدك فى جيب درعك يا موسى ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ، ولهذا قال ﴿ من غير سوء ﴾ - أى من غير برص أو مثله من العيوب ، ثم قال له: ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ والجناح: اليد ، والرهب الخوف ، ومعنى ذلك : أنه إذا أخافك أمر يدك وشعاعها فأدخلها فى جيبك واردها إليه تعد كما كانت ، وقيل : أمره الله تعالى أن يضم يده على صدره فيذهب عنه خوف الحية .

وقال ابن كثير: " إن الله تعالى أمر موسى ﷺ إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه أى يده فيضعه على صدره ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف ، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء بموسى ﷺ ، فوضع يده على قلبه فإنه يزول عنه ما يجده من الخوف إن شاء الله تعالى ، وقد روى ذلك ابن عباس رضي الله عنه (١) .

ثم قال الله تعالى لموسى: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص: ٣٢] يعنى أن إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخال يده فى جبته فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الله تعالى الفاعل المختار وعلى صحة نبوة موسى ﷺ ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ أى فرعون وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع لأنهم قوم فاسقين خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه » (٢) .

خاف موسى وقال: ﴿ رب إنى قتلت منهم نفسا ﴾ : يعنى ذلك القبطى الذى

---

(١) القرطبى (١٣/ ٢٨٤) ، وابن كثير (٣/ ٣٨٨) ، وابن عطية (١١/ ٢٩٧) ، والقاسمى(١٣/ ١٠٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٨) .

كان يخاصم الإسرائيلى ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ أى إذا رأونى وعرض موسى أخاه هارون لأنه أحسن منه بيانا وأفصح لسانا وطلب منه أن يجعله له معينا ووزيرا ومقويا يصدقه فيما يقول ؛ لأنه يخاف أن يكذبوه ، وفى ذلك يقول رب العزة فى كتابه عن موسى: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص:٣٤].

وطلب موسى من ربه أن يرسل هارون معه بأن يجعله رسولا فيتفضل عليه بالنبوة والرسالة إلى فرعون ، كما جاء فى آية أخرى حكاية عما قاله موسى وطلبه: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾ [طه: ٢٩-٣٢] أى أشركه فيما أمرتنى به من القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى فرعون ، هذا الملك المتكبر الجبار العنيد[١] ، أى اجعل هارون شريكى فى الرسالة[٢] .

أجاب الله طلب موسى ، وقال له: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص:٣٥] ، وفى آية أخرى قال له ربه: ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ ومضى موسى عليه السلام يحمل رسالته ـ رسالة رب العالمين إلى فرعون وملئه، وعرف أنه رسول ربه ، فقد اختاره ، وسيكون مطيعا لربه أما صفورا فقد كانت تنتظر فى مكانها . ولا ندرى بعد هذا الموقف العظيم ، ماذا حدث لصفورا ، بالطبع فقد صحبت زوجها موسى عليه السلام إلى مصر . وشهدت معه المشاهد ، لم يتحدث القرآن عن صفورا ، كانت نهاية أخبارها قرب الجانب الأيمن من الطور ، لا نعرف هل سمعت هذا الحوار أم لا ، رضى الله عن صفورا ، وصلى الله وسلم على موسى القوى الأمين.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٩) .
(٢) تفسير الزمخشرى (٣/ ٦٠) .

المحتـــويات

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

النجدى
للصف والإخراج التصويرى
ت: ٠١٢/ ٢٦١٤٣٤٩ & ٠٥٠/ ٢١٣١١٠٤